ليتزو

الترجمة الكاملة لكتاب ليتزو

فيلسوف الطاوية



ترجمة محسن فرجاني


محمد خطاب

الترجمة الكاملة لكتاب ليتزو

فيلسوف الطاوية

تأليف
ليتزو

ترجمة
محسن فرجاني



الترجمة الكاملة لكتاب ليتزو

列子

ليتزو

列子

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٤٤٤ ١

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الصينية عام ٧٧ قبل الميلاد.
صدرت هذه الترجمة عام ٢٠١١.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

المحتويات

كلمة المؤلِّف

بمناسبة صدور الطبعة الإلكترونية من ترجمة الكلاسيكيات الصينية إلى العربية، يُسعدني ويُشرِّفني أن تَصدر الطبعة الإلكترونية من عيون التراث الصيني، التي ترجمتُها إلى العربية، عن مؤسسة هنداوي للنشر؛ لأسبابٍ كثيرة، منها أن اللغة العربية كانت وسيطًا للتعريف بالصين على مستوًى عالمي، في فترةٍ مهمة من تاريخ الحضارة العربية، إبَّان عصورٍ مضَتْ، وقد جاء الوقت المناسب لمُواصلة هذا الدور في عصرٍ حاضر، خصوصًا عن طريقِ مؤسسةٍ تُتيح تقديم النصوص المُترجَمة إلى القارئ باللغة العربية عَبْر وسيلة إلكترونية أكثر حداثةً وانتشارًا؛ ومنها أيضًا أن المطبعة العربية الورقية، على مدى تاريخها، كانت مُخلِصة لجهود الكتابة عن الصين، في مدوَّنات الرحَّالة والجغرافيين، لكنها تأخَّرت طويلًا في الترجمة عن الصين، وقد حانت فرصةُ تَدارُك ما فاتها، عَبْر وسيلتَين متوازيتَين، هما: تلبية حاجة المكتبة العربية إلى هذه الترجمة التي تركَّزت على مصادر الفكر والإبداع الصيني القديم، وتجاوُز حدود النشر الورقي بالتطوُّر إلى آفاقٍ إلكترونية، وصولًا إلى ساحةِ اطِّلاعٍ أكبر، وتعويضًا عمَّا فات المكتبةَ العربيةَ ترجمتُه من الكلاسيكيات الصينية. وفي تقديري أن قراءة مصادر الفكر الصيني في مدارسه الأساسية؛ الكونفوشية والطاوية والموهية والتشريعية ... إلخ، يمكن أن تُفيد، على نحوٍ ما، في التعريف بالشخصية الثقافية والحضارية للصين، وفي دَعْم جسور الاتصال التاريخي معها، فضلًا عن شيءٍ آخَر أظنُّه من ضِمن واجبات أو مسئوليات النشاط الترجمي في الحضارات العريقة، ومنها مصر، وهو الحفاظ على الذاكرة الثقافية للحضارات الإنسانية الكبرى، وهو مجهود يتجاوز حدودَ أيِّ فردٍ مهما حاول، ومهما ادَّعى من إجادةٍ أو إتقانٍ في أدوات النقل بواسطة الترجمة. وبالمناسبة، فربما يلزم هنا التنويه، أو الاعتراف، بأن ما قمتُ به من ترجمةٍ لأهم كتب التراث الصيني،

مثل: كتاب الحوار، والطاو، وسياسات الدول المتحاربة، وكتاب الأغاني (أو الشِّعر القديم)، وفن الحرب، وغيرها؛ كان يهدف إلى تعريف القارئ العام بمحتوى هذه النصوص، وذلك حين تَبنَّت صحيفة «أخبار الأدب» (دار أخبار اليوم) هذا المشروعَ ودعمَته، منذ اللحظة الأولى؛ ومن هنا فقد رُوعي في مستوى الترجمة البساطةُ والوضوح والسهولة، قَدْر الإمكان، دونَ الغوص فيما تستوجبه ضروراتُ النقل الأكاديمي المتخصِّص، أو التحقيق العلمي الدقيق لنصوصٍ شكَّلت الخصائصَ الذهنية لمنطقةٍ ممتدة في شرق آسيا، أوسعَ كثيرًا من حدود الصين الجغرافية، لتشمل اليابان وكوريا وفيتنام، بل ربما ما هو أبعد من ذلك. ولعلَّ هذا هو الدافع الأساسي الذي شجَّعني على التعاون مع مؤسسة هنداوي؛ ذلك أن مساحة النشر الإلكتروني بمداها الواسع وآفاقها الرحيبة، يُمكِن أن تُسهِم في تحقيق الهدف الأصلي لترجمة هذه النصوص. مع تحياتي وتقديري للقارئ وللمؤسسة، معًا!

محسن فرجاني
القاهرة، في يناير ٢٠٢٢م

مقدمة

«الأذكياء يجيدون النظر كثيرًا إلى مياه البحار، أما الطيبون فيتطلعون دائمًا إلى الصحاري والجبال»، تلك كلمة قالها كونفوشيوس، ذات مرة، في ماضي الزمان، وكانت تعبيرًا صادقًا عن الشروط أو الظروف القائمة في الطبيعة والتي تسهم في صياغة التكوين النفسي والذهني للناس، حسب عناصر البيئة الجغرافية والاجتماعية، مِن ثَم المحيطة بهم. وقد تأثرت الصين بظروف بيئتها الطبيعية، وتشكلت تبعًا لها شخصيتها الثقافية بسمات محددة مما صاغته لها جغرافيتها؛ إذ لم يكن هناك سوى البر الواسع الممتد من الصحاري إلى الجبال، صحيح أن الشطآن كانت تطل على بحار مترامية، لكنها لم ترَ من البحر سوى الشاطئ (تعبير مناسب جدًّا ذلك الذي يطلقونه على تايوان والصين الأم، عندما يراد له أن يكون محايدًا، فيقال: الشعب الصيني على الشاطئين)، فالبحر دائمًا نكرة، وهو موطن الغموض والظلام، حيث يُبتلَع الضياء وبهجة الأحلام على قمم الموج. وتحكي أسطورة صينية قديمة أن ابنة الملك «ياندي» أرادت أن تستحم بالقرب من الشاطئ، فبينما هي في الماء، ثار الموج فجأة؛ واختطفها إلى الأعماق، ولم تشأ الآلهة أن تدعها حبيسة البحر الكبير، فمنحتها روح عصفور جميل، وأسمتها «جينوي» (الروح الحارس)، وكان أن حلقت بها الأجنحة الصغيرة عاليًا، لكنها أبت إلا أن تقتلع بمنقارها كل ما استطاعت أن تحمله من حصى الجبال لتلقم به دوامات الماء؛ علها تغلق فم البحر الواسع وتطم جوفه العميق. وبقيت الصين عصفور جينوي، تبغض البحر منذ فجر التاريخ، حتى القرن التاسع عشر الميلادي تقريبًا. ظلت الصين عصفورًا يحلق فوق أرضه الطيبة، ينزع من قمم الجبال ما يسد به أفواه الخطر، ولطالما بقيت تلك الحضارة العظيمة حبيسة البحر والجبل، حيث انطوت على نفسها في كهف عزلة تاريخية طويلة، على عكس اليونان القديمة التي تطلعت

في ثقة إلى قمم الماء اللازوردي، والأمواج الصافية، فنشطت جسور التبادل والانتقال ... لكن غياب البحر مقابل البر، في حالة الصين، أمكن تعويضه بثنائية الأرض والسماء، ومن هنا كانت بداية لها خطرها.

فمن التقاء الأرض والسماء تشكلت الحضارة والفكر والتاريخ والفن وعصور الأباطرة، وزمان عريض في عمر الصين، وفي حين تحددت العلاقة بين الأرض والسماء في اليونان القديمة على طرفي نقيض، حصرا الوجود الإنساني بين دفتَي الصراع في مواجهات بائسة بين الآلهة والبشر، نجد الصين قد صالحت بينهما، لكنها بفعل الانسجام الكبير، أعطت الأرض للإنسان واعتبرته أعظم ثمار الكون، ثم صالحت بينه وبين السماء — على طريقتها — وأدمجته في طاقات السماء ومنحته صفات إلهية، حتى صار الوجود كله محض إنسان، بل قد شاعت في الصين، إبان القرن السادس عشر مقولة فلسفية، ترى أن مجرد التفكير أو تصور هذا الانسجام الكبير بين الإنسان والسماء يفترض، بداهة، نوعًا من الثنائية، في حين أن الطرفين ليسا سوى شيء واحد في الأصل؛ واستدل قائلهم على ذلك، بما ورد في كتب التراث القديم حيث جاء في كتاب «شانهاي» ما مفاده: ... إن السماء في لغة القدماء، لم تكن تشير إلى تلك القبة العريضة في الأفق، وإنما إلى ذلك الرأس القائم فوق كتفي بني البشر، حتى لقد كان الملوك، وهم يصدرون أحكام الإعدام يقولون بإطاحة السماء (الرأس) عن الكتف؛ ففي رأس كل إنسان سماؤه التي تسيِّر خطاه وأقداره، وتسمع وترى.

التآلف بين الأرض والسماء جعل من النزعة الإنسانية في الوجدان الصيني، فكرة جوهرية تقوم على أساس العلاقة الجدلية؛ ففي ناحية منها، يقوم الجدل بين طرفي السماء والأرض (والرمز الواضح هنا الين واليانغ)، وفي ناحية أخرى تقوم العلاقة على صيغة مركبة من خمسة عناصر تشكل مفردات الحياة على الأرض: الماء، النار، التراب، الخشب، المعادن. أقول: إن النزعة الإنسانية كانت تشكل جوهر الفلسفة الصينية التي وجدت صداها في الكتلة الثقافية والاجتماعية، بالحجم الكبير، للحضارة الصينية، لكنها لم تنشغل كثيرًا بالوجود الفردي (الذري) للإنسان/الفرد، الذي يقف وحده في صراع مع الكون؛ إذ إنها صبَّت جل اهتمامها على الإنسان، في علاقة مركبة مع عناصر الحياة.

إن كثرة ما يتردد في تاريخ الفكر الصيني من حديث عن «وحدة الأضداد» و«العناصر الخمسة» «والمبادئ الخلقية الثلاثة»، وما إلى ذلك من مبادئ عامة تحت مسميات أو عناوين كبرى، قد يومئ إلى أن هناك اهتمامًا أو تقديرًا محددًا لقيمة ما، ذات مضمون يجري قياسه بالكم أو الأرقام، لكن الواقع أن مثل هذه التقديرات الرقمية جاءت متأخرة

جدًّا (مع البوذية الوافدة من الهند)، ويبقى أن هذه الصياغة الموشاة بالتقدير الكمي ليست سوى تفنيد لعناصر تراتبية تعمل ضمن إطار لتنظيم العلاقات أو عناصر الأفكار أكثر مما تحمل من دلالة الأعداد في الحساب الرياضي. وربما كان الإطار التقليدي الذي انتظم داخله أول نمط لعلاقات إنسانية متفاعلة، هو إطار العشائر الصينية القديمة التي صاحبها شكل من أشكال الاقتصاد الطبيعي في مجتمع زراعي، حيث العلاقات بين الناس صريحة وواضحة ومباشرة، والإخلاص هو القاعدة الأولى للمعاملات؛ فكانت تلك نقطة البدء في أول مفهوم أخلاقي توارثته جماعات العشائر الصينية (... وورثته الدولة فيما بعد، دون المرور بجماعات الملكية الخاصة؛ لأسباب ليس هنا مجال الاستطراد في تتبعها)، وعلى العكس تمامًا من المجتمعات ذات النمط الاقتصادي القائم على التجارة، حيث لا مجال لأي حسابات بسيطة أو مباشرة ... فلا الواحد، هنالك واحد بسيط؛ ولا الاثنان اثنان، بل المجال مفتوح لتحليل أكثر غنًى، بقدر ما هناك من حسابات متنوعة بالأرقام، ومِن ثَم تنشأ تقديرات للأفكار بصياغات تجريدية ... ويتسع الأفق لمنطق رقمي (صوري) ويسود اعتزاز بحكمة تتخذ صورة المثل من قيمة تتجاوز حدود المتداول الأرضي (... وينتشر نمط من حب الحكمة، كما في اليونان، قديمًا).

لم تعرف الصين، في سالف الزمان، فلسفة من ذلك النوع القائم على «حب الحكمة» أو الافتتان بالمعرفة؛ ذلك أنها صرفت كل اهتمامها للفضائل والأخلاقيات، لأعلى النحو الذي يمكن للفلاسفة أن يتصورها به في عالم للمثل، وإنما بالطريقة اللائقة بسلوك الناس في معاملاتهم اليومية وشئون حياتهم، كما يعيشونها في دنيا الواقع (... ذلك جانب يستحق التأمل للصين البراغماتية). كانت الصين تطلق أحيانًا على فلاسفتها القدماء لقب «القديسين»، لا بالمعنى الكهنوتي، ولكن بمعنى: دعاة الخلق القويم، وأحيانًا أخرى — لا سيما في الطاوية — بمعنى «الزهاد والمتنسكين في الكهوف» ... التماسًا لفضائل أسمى، أكثر إخلاصًا وإذعانًا للوجود الطبيعي. فكثيرًا ما جنحت الصين إلى مجتمع البر الزراعي أكثر منها إلى موانئ البحر التجاري، وبالتالي فلم تكن لتمنح قيمة كبرى للذكاء والعبقرية التي تجيز مساءلة المعاني البسيطة المعطاة لمواهب البشر في حدود معاملاتهم المباشرة وعلاقاتهم الدائمة داخل تجمعات العشائر التقليدية، وهي المعاني التي اتخذت من قواعد الأخلاق قدس أقداس تحصَّنت به وعاشت به حياتها الطويلة تحت السماء لكنها؛ أبدًا لم تكن تأبه للذكاء المفرط أو التأمل في سديم الميتافيزيقا، أو التوسل لفهم الحياة بنظريات في المعرفة (... لاحظ أن تأخر الصين لسنوات في الثقافة والعلوم، كانت له أسبابه الكامنة

في فلسفتها)، كانت أعراف الصين ومبادئ معاملاتها ومواريثها القديمة هي كل ما تملك من قواعد لبناء حصون من الأفكار، جاهدت الكونفوشية كثيرًا لتدعيمه والحفاظ عليه (الكونفوشية لم تبدع جديدًا فقط حصَّنت الإرث ضد الاندثار)؛ ثم جاءت الطاوية لتثور على سذاجة تلك الحصون، لتلفت الانتباه إلى الحصن الأعظم — إذا جاز التعبير — … ذلك هو الوجود الطبيعي (قل المجتمع الطبيعي) الذي يسيء إليه الناس باتخاذهم مبادئ ومناهج تحيد بهم عن الطريق الذي رسمته يد الطبيعة، ثم ظهر المذهب القانوني — ثالث الاتجاهات الفلسفية الكبرى في الحضارة الصينية — لينتزع الفضائل من يد المواريث، ويصوغ تشريعات واجبة الإلزام، تضع الأمور في نصابها، حيث الدولة، لا الحكماء، هي المنوطة بتقنين المبادئ وتلقينها، وكانت تلك أكبر نقلة انقلابية (كان كونفوشيوس نفسه يستنكرها!) ابتدعت ضروبًا من البدع لم يعرفها الكونفوشيون الأولون … وجاء حين من الدهر ذهب فيه أحد رؤساء الوزراء إلى الإمبراطور تشين شيهوانغ — أول إمبراطور للصين الموحدة — ليقول له: … إن السبب في انتشار الفوضى والفساد، على مر العصور، واستعصاء تنفيذ مشروع الوحدة الصينية الكبرى والقضاء على التنابز والفرقة بين الدويلات الصينية المتنازعة يرجع إلى أن الناس كانوا يخرجون على الملوك بنظريات هدامة تحبط كل مسعًى لإنشاء قواعد الوحدة، وقد آن الأوان، بعد أن تحققت وحدة تشين، ووُضِعت الأمور في نصابها، أن يتم القضاء على تلك النظريات التي تعمل أثرها في الخفاء، وأن تُشطَب أفكارها من سجلات التاريخ (عدا سجلات دولة تشين) وكل أفكار المدارس المائة (عدا المنجزات العلمية؛ فقد كانت دولة تشين، والحق يُقال، تحترم الإبداع العلمي!) … وليس أفضل من حرق كل تلك البؤر الفاسدة؛ لتنضبط الأمور ويعم الاستقرار … (وفعلًا، تحقق الهدوء والاستقرار، لكنه أقرب لهدوء الموتى واستقرار الأجداث، لمدة ثلاثة عشر عامًا فقط) … ووسط الأنقاض والخرائب التي خلفتها دولة تشين (الكبرى!) ظهر ملوك دولة هان، وحاولوا إنقاذ ما يمكن إنقاذه، وقد اقتنعوا بعدم جدوى فرض القوانين الأخلاقية بالقوة الغاشمة، أو حتى بأي نوع من القوة. وفي تلك الأجواء بدا للجميع أن الحل يكمن في التوسل بالطريق الطاوي حسبما عرفه الناس في الممالك القديمة، وعلى الأسس التي صاغها «هوانلاو» (وهو اسم مركب تركيبًا مزجيًّا من كلمتي «هواندي» أي الإمبراطور، وهو رمز إلى السلطة الطيبة في قديم الزمان؛ وكلمة «لاوتسي» إشارة إلى شيخ الطاوية الكبير — وإن لم يكن المؤسس الأول لها — والمعنى يشير إلى المذهب الذي جمع بين القوة والفكر الطاويين)، وكان هذا الزمان الذي توسل بالطاوية في زمن الفوضى، هو زمان دولة هان الغربية [٢٠٦ق.م.–٢٤ ميلادية]، وتم استدعاء المذهب الطاوي، لكنه جاء، في ثوب

جديد ليمارس أدوارًا متباينة، تحت أضواء عصر له خصائصه المختلفة، وقد أُعيد النظر في تلك الأيام، فيما خلفته الطاوية من كتب وما حَوَته من سير عن قدامى الشيوخ الكبار في العصر القديم (الذهبي)، من أمثال: يانغ شو، لاوتسي، كوان يين، جانهي، تسيهوازي، ويمو، سونشين، آينون، تشوانغ تسي، بن منغ، شنداو، هوانيوان؛ وأخيرًا ليتزو، صاحب كتابنا هذا، الذي يحمل اسمه «كتاب ليتزو».

ثم إن لهذا الكتاب وصاحبه حكاية من أغرب الحكايات في تاريخ الفكر الصيني، تلك مسألة سأتناولها بالتفصيل في سياق موضوعنا، لكن قد يكون من المفيد أن نقترب، ولو بلمحة سريعة، إلى موضوع «الطاوية»، تلك الفلسفة التي يُلاحظ أنها تحوز اهتمام القارئ العربي دون سواها من مذاهب الفكر الصيني. ولنبدأ من نقطة البداية الأولى التي كثيرًا ما يُغفل شأنها الكثيرون ممن تناولوا الحديث أو الكتابة عن ذلك المذهب الفلسفي الصيني …

(١) ففيما بين سقوط العبودية وظهور المرحلة الإقطاعية، وعلى مدى قرنين ونصف من الزمان؛ من منتصف عصر «الربيع والخريف» (٧٧٠–٤٧٦ق.م.) حتى منتصف زمن «الدول المتحاربة» (٤٧٥–٢٢١ق.م.) تقريبًا، كانت قد نشأت أعداد هائلة من ملَّاك الأرض الصغار، أو «الفلاحين ملَّاك الأراضي» (في ترجمة حرفية للمصطلح كما هو وارد في عدد غير قليل من المصادر المتعلقة بتاريخ الحضارة الصينية)، وتكوَّنت منهم قوة اجتماعية مؤثرة — وذلك بعد إقرار الضرائب على الأراضي لأول مرة في تاريخ الصين كله، حيث جرى الاعتراف بالملكية الفردية، تحديدًا في ٥٩٤ق.م. — ثم بادرت هذه الشريحة الاجتماعية إلى المطالبة بسقف من الحماية السياسية الاجتماعية لأملاكهم وحقوقهم، وكان شيخ الطاوية الأول «يانغ شو» رائد المدرسة الطاوية وتلاميذه هم الممثلين لملَّاك الأرض الصغار هؤلاء، وأصبح لزامًا على المدرسة وشيخها أن يجاهدوا لانتزاع حقوق متساوية لهؤلاء الملَّاك تحت ظلال باقية من القهر والكبت المتخلف عن زمن العبودية المتهدم، ووجد يانغ شو نفسه وسط ظروف مناسبة لبلورة الأفكار التي تردد صداها بقوة في كل الأرجاء؛ حيث تعالت الدعوة إلى صياغة مجتمع جديد، يصير فيه «لكل فرد شأنه الذاتي» … و«يمتنع فيه الجميع عن التعدي على أو سلب أملاك بعضهم بعضًا» … بحيث «تكون الأولوية المطلقة لمصالح الأفراد الذاتية» … و«يمتنع الأفراد عن عبادة الملوك»؛ ذلك أن «لكل إنسان الحق في أن يرضي رغباته الذاتية أولًا، طامحًا إلى تحقيق منجزاته»، باعتبار أن «تحقيق الرغبات الفردية أهم كثيرًا من خدمة الدولة» … إلخ.

وكثيرًا ما يقال بأن يانغ شو هو شيخ الطاوية الأول، والحق أنه قد تتماثل أفكاره مع رؤى الطاويين في عدة نقاط، أهمها: الحفاظ على ما هو طبيعى وأصيل في الحياة، لكنه؛ مع ذلك لا ينبغي أن يوضع مع الطاويين في كهف واحد ... قد كان شعارهم: الأولوية المطلقة للحفاظ على الجسد الإنساني (باعتباره أثمن ما جادت به الطبيعة على الإنسان)؛ وكان هو يقول: ... «لا شيء يعلو على النفس الإنسانية»؛ وفي حين كانوا هم ينصحون بـ «اللاعمل، والقعود عن تغيير مسار الطبائع الفطرية»، كان هو يؤيد النشاط الإيجابي في الحياة؛ وإذ قالوا بأنه لكي يعيش الإنسان عمرًا أطول، فليس له أن يقف في وجه كل ما هو فطري وطبيعي، لكنه كان يؤكد بأن ضبط جماح الرغبات هو الشرط الأساس لحياة طويلة هانئة. وعلى أية حال، فقد أفل نجم يانغ شو مع الآفلين، بعد أن انقسم صغار الملاك الزراعيين في عهده إلى شقين: الأول، صعد إلى رتبة ملاك الأرض الكبار؛ والثاني، تراجع ليعود إلى صفوف الفقراء، فمِن ثَم انهار الأساس الاجتماعي لمدرسة يانغ شو، ثم ما لبث أن رحل هو في إثرها، وانهالت على رأسه كل اللعنات؛ فقد اتهمه «منشيوس» بأنه هو الذي سقى الناس من بئر الأنانية، وأنه ... «لو كان قد ظن أنه يفيد الإنسان بخصلة شعر ينزعها من رأسه، لما فعل» ... ثم قيل إنه داعية للشهوانية والمتع الحسية والنهل من مشارب اللذة، دون قيد، (وتلك تهمة لا يردها الطاويون أنفسهم، بل يتباهون بها ويرون أن الإثم الحقيقي هو الوقوف في وجه الرغبات الفطرية) ... لكن الرجل لم يقل بشيء من هذا مطلقًا، وبرغم ذلك فقد استعاذ الكونفوشيون والقانونيون، معًا — على ما بينهما من خلاف — من شر شيطانه الأثيم، واتهمه «ليتزو»، صاحب كتابنا، بأنه ... «رغم ذكائه، فلم يكن يفقه أحكام القدر.»

ومضى الرجل دون أن يترك لنا كتابًا، أو حتى عدة سطور تشهد بما دعا إليه من أفكار، فكان أول فيلسوف يترك للناس سيرة ذاتية بغير مدونات تحمل أفكاره (فهو، في هذا، يقف على النقيض من «ليتزو» الذي ترك لنا هذا الكتاب الذي بين أيدينا الآن، دون أن يخلف لنا سيرة ذاتية موثقة ... فما أكثر أعاجيب الطاويين).

لم يبقَ لـ «يانغ شو»، بعد أن تراجعت شرائح ملاك الأراضي إلى حضيض الفقر، إلا أن ينصح لهم بالاعتكاف عن الناس والنأي بأنفسهم عن الانغماس في شئون العالم، والاعتصام بالكهوف في الجبال يتخذونها مأوًى لهم، بعيدًا عن شرور العالم؛ لكن طريقة الاعتكاف هذه لم تكن مجدية في معظم الأحيان؛ لأن بعض الشرور لم يكن ثمة مفر منها، فيما يبدو ...

(٢) ثم جاء «لاوتسي» لينهج نهجًا آخر، أو مسعًى مختلفًا؛ فقد اهتم بالكشف عن القوانين التي تحكم عملية التغير في الكون، والتبدل في أحوال الدنيا؛ فالأشياء تتغير ... نعم هذا صحيح، لكن القوانين التي ينتظم، تبعًا لها، دوام هذا التغير تتميز بالثبات والدوام، ومن يقف على أسرار تلك القوانين، يقدر على تحريك ودفع أسباب التغير لمصلحته ... تلك كانت المرحلة الثانية في الطاوية، إبان عصرها الذهبي.

(٣) وفي المرحلة الثالثة، فقد اتضح أنه، وبرغم ثبات قوانين التغير، فهناك عناصر في العالم الطبيعي والحياة والمجتمع والدنيا والأشياء كلها تأبى إلا أن تأتي بمفاجآت صادمة، تجري على غير المعهود، ومِن ثَم تنشأ مخاطر — رغم أنف الحذر — فإذا ما تم تغيير موقع النظر إلى العالم بالتطلع من زاوية مختلفة، أمكن الاهتداء إلى درجة تضمن تجاوزًا للواقع، يحد من شأن الخطر ويقصي كل أسبابه، فتلك هي درجة العزلة، لكنها ليست عزلة الكهوف والجبال، بل هجرة وانتقال إلى عوالم أخرى غير هذا العالم.

فهذه المراحل الثلاث من عهود الطاوية الأولى، كان همها منحصرًا في الذات الفردية، واستقصاء أبواب خلاصها؛ أما طاوية ما بعد ذلك العصر، والتي تُسمى في كتب تاريخ الفكر الصيني اصطلاحًا ب «طاوية ما بعد دولة تشين»، فقد طرحت عنها هذا الاهتمام بالذات الفردية ماضية إلى غاية أخرى.

في الزمن الطاوي الأول ظهر «ليتزو» مؤلف هذا الكتاب الذي بين يديك، سيدي القارئ (هذا إذا جاز لنا أن نقر بأنه المؤلف الحقيقي ... فتلك قضية لم تُحسم بعد)، يقال بأنه عاش في القرن الرابع قبل الميلاد، وتُقدر بعض المصادر مولده في سنة ٣٥٠ق.م. على وجه التقريب؛ لكن التشكيك في وجود هذا الفيلسوف/المؤلف بلغ درجة كادت تنسف كل محاولات التيقن من وجوده في الأساس، واحتدمت هنالك آراء شتى:

- قيل مثلًا إن ليتزو ليس إلا شخصية وهمية من اختلاق الدارسين، وبالتالي فربما كان هذا الكتاب الذي يحمل اسمه من وضع تلاميذ «تشوانغ تسي»، في زمن دولة تشين، و«هان الغربية» (٢٠٦ق.م./٢٤ ميلادية).
- وقيل إن وجود صاحب الاسم (ليتزو) لم يكن محل ثقة أهم مؤرخ صيني للعصر القديم، وهو «صِما تشيان» [تُنطق بكسر الصاد وسكون التاء في أول المقطع الثاني]، فلم يورد ترجمة له في كتابه المشهور بعنوان «شي جي» (سجلات تاريخية). ولما كان معروفًا عن صما تشيان هذا دقته وحرصه على توثيق التسجيل

للشخصيات التاريخية بأسانيد ثابتة؛ فالواضح أنه لم يهتدِ إلى مصادر يمكن الاطمئنان إلى صحتها فيما يتعلق بترجمة شخصية ليتزو.

- كان أحد أهم أبواب الكتاب المعروف باسم «تشوانغ تسي» (ثاني أهم وأشهر الكتب الطاوية القديمة)، وهو الباب الذي بعنوان «تيان شان»، يذكر إشارات مختلفة إلى أهم شيوخ الطاوية، ثم إنه لم يُشِر من قريب أو بعيد إلى ليتزو، فكيف ظنك بكتاب كهذا، ينكر وجود مثل هذه الشخصية ... أيمكن حقًّا بعد هذا، أن تكون قد ظهرت على مسرح التاريخ فيما مضى؟
- ثم إن أحد أهم كُتَّاب السير في عصر دولة هان الغربية، وهو «ليو شيانغ»، كان برغم ما قدمه له من سيرة موجزة، إلا أنها احتوت على نقاط تثير المزيد من الشك؛ لتضارب تفاصيلها مع وقائع سير أخرى لشخصيات جاءت بعده بزمان طويل؛ مما يخصم من يقين التعويل على هذه الترجمة الموجزة كسند يُستدل به على وجود هذا الفيلسوف الطاوي القديم.

هذا، ولم يقتصر التشكيك على وجود المؤلف، بل امتد ليشمل الكتاب نفسه:

- فهناك من يقولون بأنه من تأليف تلاميذ تشوانغ تسي، في زمن دولتي: تشين، وهان الغربية.
- وهناك من يرددون أنه من تأليف الدارسين في العصور الثلاثة: هان، ووي، وجين؛ سوى أن الدارسين اختلقوا الاسم ووضعوه على الغلاف (لينسبوا له قيمة ما، أملًا في الاعتداد به كمصدر تراثي ذي شأن).
- وتستند دعاوى التشكيك في الكتاب أيضًا إلى ما كتبه «ليو شيانغ» المحقق المشهور، في عصر دولة هان الغربية، فيما كان قد ذكره في أحد مراجعاته عن الكتب الطاوية؛ حيث كشف عن نقاط تستوجب الشك في نصوص «كتاب ليتزو».
- كما أن بعض محققي عصر «طانغ» (٦١٨–٩٠٧م) أيَّدوا مثار هذا الشك.
- أشاع بعض محققي عصر «تشينغ» (القرن السابع عشر الميلادي) أن الكتاب مجرد عرض عام لأفكار بوذية؛ بالإضافة إلى بعض القَصص الخرافي.
- ويقول أحد خبراء الدراسات الفلسفية المعاصرين (هو شي) في كتابه: «أصول الفلسفة الصينية القديمة» أن ما ورد في «كتاب ليتزو» بشأن مقابلة يانغ شو لملك دولة لـ «يانغ»، يثبت أن المحتوى كله زائف؛ وذلك للفارق الزمني الهائل بين الزمن الذي عاش فيه يانغ شو، والفترة التي تولى فيها الملك المشار إليه، عرش البلاد.

- يؤكد عالم معاصر في الصينيات، وهو «يانغ بو جون»، أن الكتاب مختلق، وأن النسخة الموجودة منه لا أساس لها من الأسانيد التاريخية، وأنها ربما تكون قد وُضعت في زمن دولتي «جين» (٢٦٥–٤٢٠م)، و«وي» (٣٨٦–٥٥٠م).
- يذكر الباحث «رن جيو» في كتابه «تاريخ تطور الفلسفة الصينية» … في المبحث الخاص ب «كتاب ليتزو» … أن النص قد وُضع إبان عصر جين الغربية (٢٦٥–٣١٦م)، داعمًا رأيه بشواهد تدل على صحة استنتاجه.
- ثم إن الكتاب اشتمل على باب بعنوان «يانغ شو»، وهو الفيلسوف الطاوي الأول، في عصر «ما قبل دولة تشين»، غير أن أفكاره الواردة في المتن تختلف عما تذكره عنه المصادر القديمة للطاوية الأولى، فمِن ثَم تثور كل ألوان الشك والاعتراض على قبول النص من الأساس، سواء بوصفه كتابًا ينتمي إلى الطاوية أو بنسبة المتن إلى زمن تأليف محدد وكاتب بعينه.

وبرغم هذا كله، فإن كثيرًا من نقاط الشك في وجود الفيلسوف «ليتزو» [ربما كان جائزًا أن يُنطق على نحو آخر: «ليتسو»، «لي تسو»، «لي تسي»، «لي تزو». فكله تعريب صوتي قريب بدرجات من النطق الأصلي]، أقول إن الشك في وجود هذا المؤلف وفي صحة انتساب نص الكتاب إليه، وفي تكذيب كثير من الدارسين لنسبة الكتاب — بفرض الاعتراف بأصالة النص — إلى هذا الشيخ الطاوي المزعوم، كل ذلك لن يصمد طويلًا أمام مراجعة جادة وتفنيد سليم، فتعالَ نناقش ما قالوا.

(١) ليس من المستبعد، بادئ ذي بدء، أن يكون هذا الفيلسوف قد ظهر، حقًّا، على مسرح التاريخ؛ ومارس دوره كواحد من شيوخ الطاوية في زمن بدئها الأول؛ وبرغم إغفال ذكره في موسوعة «سجلات تاريخية»، وتجاهل الطاوي المشهور «تشوانغ تسي» له ولسيرة حياته فيما وضع من كتب، وسقوط ترجمته فيما جمع المحقق «ليو شيانغ» من وثائق وأسانيد معتبرة، إلا أن كتابًا تراثيًّا ذا شأن عظيم، مثل «سجلات ليو شي» كان قد ذكر ترجمة وافية له، وهذا التوثيق وحده، يكفي لأن يزيل كل شك في وجود هذا الطاوي القديم، وذلك لما هو معروف عن هذا السجل بين جمهرة المتخصصين من دقة الأسانيد وصدق الرواية وصحة النقل … هذه واحدة.

(٢) ثم إنه قد ورد ذكره في كتاب «سياسات الدول المتحاربة» (باب سجلات دولة هان) [راجع النسخة العربية الصادرة عن المركز القومي للترجمة، القاهرة. ص٣٩٧، وقد

رُسم الاسم هكذا «ليتس إيقو»؛ فالأول ينبغي تعديله إلى «ليتزو»؛ فلطالما كانت «السين» مثقلة بالدلالات الشيطانية، مما لا يليق بشيخ طاوي حكيم؛ أما «إيقو» فهو أحد ألقابه المشهورة].

(٣) ولئن لم تكن هناك إشارة صريحة إليه في باب «تيان شان» من كتاب «تشوانغ تسي»، فإن عددًا من أبواب الكتاب تناولت سردًا مطولًا لأفكاره وجولاته، بل منها ما ذكر بعضًا من الحكايات التي أوردها ليتزو في كتابه حرفًا بحرف.

(٤) هذا بالإضافة إلى أن كثيرًا من شيوخ الكونفوشية، في عصر «طانغ» (... منهم «يانشي» مثلًا) ذكروا ترجمات تفصيلية له، وهؤلاء من ثقات أهل السير والتراجم.

(٥) وفيما يتعلق بإغفال «صما تشيان» لترجمة سيرة ليتزو في سجلاته؛ فربما لأنه لم يجد مستندات أو مصادر تامة تمكِّنه من الترجمة لحياة ليتزو، أو لعله كان قد استوفى في كتابه ذكر كبار الطاويين — تحديدًا لاوتسي وتشوانغ تسي — فاكتفى من سيرتهم بما يلقي الضوء على المذهب الطاوي وخصائصه وأهم ثماره الفكرية، ولم يجد للحديث عن الشيخ ليتزو أي طائل. ثم إن الشغل الشاغل لـ «صما تشيان» كان ينحصر بشكل أساسي في الترجمة والتأريخ لفترة هان، ووي، وهي مراحل تاريخية كانت وقفًا على الكتابات الكونفوشية؛ حيث تضاءل الاهتمام بتتبع آثار الطاوية في عصر دولة هان الغربية، أي في العصر الذهبي الثاني للمد الطاوي.

لكن، تُرى في أي عصر عاش ليتزو؟

وربما تعذَّر الجزم بذكر سنة محددة، بيد أن الثابت أنه تلقى العلم على يد «كوان يين»، ومِن ثَم فيمكن الاستنتاج بأنه عاش في الفترة ما بين نهاية زمن الربيع والخريف (٤٧٦ق.م.) وعهد الدول المتحاربة (٤٧٥–٢٢١ق.م.) فلماذا إذن، جرى ذكره أكثر من مرة في ثنايا كتاب «تشوانغ تسي»، بينما أُغفل شأنه في باب «تيان شان» من الكتاب نفسه؟!

ويُقال في الرد على هذا التساؤل إن الباب المشار إليه كان مخصصًا في الأصل، لذكر كبار شيوخ الطاوية، على سبيل الإشارة الموجزة، اكتفاء بالترجمة لسيرة تشوانغ تسي، ولاوتسي، وكوان يين، دون التطرق إلى طاويين آخرين، من بينهم ليتزو. ثم إن إغفال الإشارة إلى سيرة حياة أحد الشخصيات لم تكن تعني إنكار وجوده، وهناك أمثلة على ذلك؛ منها أن كتابًا تراثيًّا ذا شأن، مثل كتاب «شو نزي» كان قد تغاضى عن ذكر كونفوشيوس،

دون أن يفسر هذا على أنه إهمال أو إنكار لوجود الحكيم الأكبر أو اعتباره شخصية وهمية مختلقة.

أما عن الكتاب، وبالنسبة لما أثير من جدل حول صحة إسناد النص إلى أصول التراث الطاوي؛ فالثابت أنه:

- لم يرد أي ذكر لهذا النص في مؤلفات عصر ما قبل تشين، وإنما كان أول توثيق له على يد «بانكو» (أحد محققي التراث) في دولة هان الشرقية (٣٢–٩٢م).
- وكان «ليو شيانغ»، أشهر محققي التراث في العصر القديم، قد أشار إلى وجود توثيق تام للكتاب تحت عنوان «فهرس عام لكتاب ليتزو»، محتواه يشتمل على ثمانية أبواب، وظهرت نسخته الكاملة في عهد الملك «هان شنغ وي» (١٤ق.م.)، وربما عُد هذا أقدم توثيق للنص. ومع ذلك، فهناك دارسون يشككون في صحة هذا التوثيق ويعتبرونه مجرد كلام يسوقه ليو شيانغ على عواهنه.
- وفي عصر دولة جين (٢٦٥–٤٢٠م) أصدر المحقق «جانغ شان»، أحد محققي التراث القديم، نسخة بعنوان «شروح على كتاب ليتزو»، وتعد هذه النسخة الأصل المعتمد في إصدار المتن المعروف للكتاب بأبوابه الثمانية ومحتواه الذي نطالعه وصيغته المعهودة لنا في الوقت الحالي؛ لكن هناك من الدارسين المتخصصين من يعدونها نسخة منتحلة، مختلفة عن تلك التي أشار إليها المحققون القدامى أمثال: ليو شيانغ، وبانكو. وهذا هو الرأي الذي استقر عليه معظم المتخصصين. وبِناءً على ذلك، نخلص إلى نتيجة حاسمة، مفادها: إن كتاب ليتزو، بصورته ومحتواه الحالي ليس من وضع الفيلسوف ليتزو، حسبما كانت تتردد الإشارة إليه في ترجمته إبان عصر ما قبل تشين (... وإن كانت النتيجة الحاسمة مرهونة بما يمكن الاطمئنان إليه من استدلالات، في هذا الشأن).

وبرغم ذلك، فيبقى أن جمهرة من الدارسين ما زالت تحجم عن الوثوق بالنتيجة الحاسمة القائلة بانتحال الكتاب؛ ذلك أن التقدير السليم، في ظنها، يقوم على فكرة أن النص — وإن لم تصح نسبته كله إلى ليتزو — فهو يشتمل على جزء كبير مما يعبر عن أفكاره وعن الاتجاهات العامة في تصورات وأفكار وآراء يانغ شو، في العصر الطاوي الأول.

ثم يبقى السؤال الذي يفرض نفسه الآن ببداهة هو: من صاحب النص الحالي إذن، إن لم يكن هو ليتزو؟ ويجيب البعض بأنه «جانغ شان»، أول من حقق النسخة الكاملة من الكتاب ... هكذا يقولون!

لكن مثل هذا الزعم مردود عليه بأن المحقق المذكور كان قد أشار، في غير موضع من الهامش إلى ثغرات وأخطاء ووقائع مغلوطة وعبارات مستغلقة الفهم وصيغ متكررة، وما إلى ذلك من المثالب التي تعيب كتابًا تراثيًّا، والتي ما كان يمكن بالطبع أن يشير إليها لو كان الكتاب من وضعه، ولا يطعن هذا فيما تؤكده مصادر كثيرة من أن «جانغ شان» هذا، هو الذي حفظ لنا الكتاب بنصوصه وشروحه على الوجه الذي نطالعه به اليوم [الغريب والطريف معًا، أن جانغ شان كان مجرد محقق هاوٍ، مهنته الأساسية الجراحة، وتخصصه طب العيون، وكان قد تعرف إلى الفلسفة الطاوية — التي تحولت إلى مذهب ديني في زمانه، بعد أن كانت في العصر القديم مجرد فلسفة طبيعية — ومهر في دراسة الغيبيات — ذلك الفرع من العلوم القديمة الذي مهَّدت له وشجَّعت عليه الدراسات الطاوية، وبخلاف هذا فلا يعرف الكثير من تفاصيل حياته، سوى أنه من مواليد دولة جين الشرقية (٣١٧–٤٢٠م)] وتثني المصادر المختلفة: من دراسات وشروح على متون قديمة ومراجع ذات صلة، على الجهد الذي قام به جانغ شان في تبويب ومراجعة وعرض أفكار الكتاب، ولئن كان متهمًا بانتحاله، أو في أحسن التقديرات، يعزى إليه إبداع النص الأصلي؛ فلأنه قد أضاف الكثير إلى الشروح، مما بدا جزءًا من قناعاته وسبك صياغاته المملاة على الاتجاه الفكري في الكتاب، ولا شك أن ما قام به من جهد في التحقيق أضفى قيمة لا يستهان بها؛ لا سيما أن براعته وتضلعه في علوم الغيبيات قد أضفى مسحة من جلال المعاني الباطنية على المتن؛ حتى بدا — في عصر شهد توافد الأفكار البوذية وانتشارها بين الصينيين — معبرًا سوَّغ انتقال الطلاسم البوذية إلى البر الصيني.

وإذا كان الطاويون القدامى قد وضعوا نصوصهم داخل كهوف العزلة، فإن عملية تحقيق متونهم لم تكن تجري في أجواء مغلقة، وإنما في مجتمع يموج بأحداث وتيارات فكرية شتى، ولما كنت قد حاولت توضيح جانب من الخلفية التي صاحبت ظهور الفيلسوف/المؤلف، وبكل ما أثير عنه من جدل وما تلاه من تفنيد ومناقشة، فقد يكون مطلوبًا بالتوازي، أن أعرض للظروف التي واكبت جهود تحقيق النص، وما سار في ركابها من أفكار وتعليقات.

فمتى بدأت عملية تحقيق المتن؟ ولماذا؟ وما العوامل المشجعة على تناول هذا الكتاب بالمراجعة؟ وفي أي ظروف بدأت التناولات النقدية للنص؟ وعلى أي تقديرات استند زعم النقاد في نسبتهم الكتاب إلى المحقق وليس إلى مؤلفه الأصلي؟ ولماذا؟ وتحت أي ظروف تم كل هذا؟

وقبل الشروع في أي محاولة للمناقشة، فقد يكون من المهم أن نتذكر شيئًا مهمًّا جدًّا، وهو أن درجة الثبات والاتزان التي تبدو عليها نصوص الفلسفات الصينية القديمة داخل كتبها العتيقة، ووراء أسوار معابدها المهيبة، لم تحظَ بها عملية تطورها التاريخي، داخل بلادها على الأقل (لأن تأثيرات من الطاوية والكونفوشية طالت بلادًا أخرى في الشرق الأقصى: اليابان، كوريا، فيتنام … إلخ)، فالطاوية تبدو لنا في الكتب مادة واحدة متماسكة ذات صوت واحد لكنها؛ خارج النصوص تبدلت كثيرًا عبر التاريخ؛ حتى أمكن القول بأن التاريخ الصيني شهد أكثر من طاوية واحدة (… نفس الشيء حدث مع الكونفوشية)، والثابت، حتى الآن، أن هناك نسختين من الطاوية، على مدار التاريخ في الصين: الأولى تُنسب إلى الجيل الأول ويُشار إليها بـ «طاوية ما قبل تشين»، ويغلب عليها الطابع الفلسفي؛ والثانية تُسمى «طاوية ما بعد تشين»، وتتسم بخصائص المذهب الديني. ثم إني كنت قد تكلمت بشيء من الإيجاز عن الطاوية الأولى فيما سلف، فماذا عن الطاوية الأخرى ذات الطابع الديني؟ كيف تشكَّلت؟ وماذا عن ظروف نشأتها؟ ولماذا وكيف ظهرت طاوية «أخرى» جديدة بعد طاوية العصر الأول؟

ولنعد إلى صفحات التاريخ …

كانت الصين بعد سنوات طويلة من الصراعات والحروب والانقسامات بين الدويلات والممالك قد توصلت إلى مشروع الوحدة على يد الإمبراطور «تشين شيهوانغ»، لكنها إذ أفلحت في بناء قاعدة الوحدة، فقد تعثرت في طريق البناء الفكري، ووقعت في الخطأ الجسيم عندما شرعت في هدم أروع الإنجازات الباقية من عصر الربيع الخريف (عصر الازدهار الثقافي)، ذلك الذي عبَّر عن نفسه في الجدل الدائر عبر ساحة الفكر، فيما سُمي بـ «المدارس المائة»، ثم إذا بدولة الوحدة الصينية الأولى — في التاريخ الصيني كله — تشن حربًا شعواء على التراث القديم وتحرق ما تبقى في خزائن التاريخ من ذلك الزمن العبقري، وكان تقليد «حرق الكتب» هو الذي وضع نهاية ملموسة لزمن الازدهار الفكري، ولم تكد تمر سنوات قليلة حتى سقطت «دولة تشين الكبرى»، وعلى أنقاضها قامت «دولة هان الغربية» (٢٠٦ق.م./ ٢٤ ميلادية)، وبالكاد بدأ العهد الجديد يتلمس طريقه للصعود، وسط خرائب وأنقاض وفوضى عارمة: اقتصاد متهدِّم، وحاجة ماسة إلى قوى عاملة في الريف، وتناقص سكاني حاد في المناطق الحضرية، وعجز مالي يتهدد الدولة الوليدة … (ورد في أخبار ما سلف أن الإمبراطور لم يجد أربعة خيول ذات لون واحد لموكبه الرسمي، كما قد جرت العادة بذلك … ولم يستطع رئيس الوزراء توفير اعتماد مالي لاقتناء خيول مطهمة لمركبته الحكومية، فركب عربة تجرها الثيران … تمشي متثاقلة ولها خوار … كذا جاء في التاريخ!)

كانت المهمة ذات الأولوية المطلقة للنظم الحاكمة هي تأمين استقرار الوضع السياسي الجديد، وتأسيس قواعد لنظام اجتماعي يصمد للظروف؛ لضمان استنهاض عناصر القوة الاقتصادية، فتتمكن العروش من تمويل الإدارة الحكومية والجيش، فمِن ثَم اضطرت الإجراءات الحكومية إلى انتهاج أساليب قاسية وعقوبات صارمة وقوانين من حديد ... لكن ذلك كان يذكر الناس بالقانونيين البائدين، ويضفي على الكونفوشية مسحة كئيبة؛ فتوافرت ظروف تسمح بانتهاج أيديولوجية طاوية جديدة، شعارها «الصفاء النفسي ... الانخزال ... اللاعمل». كانت الطاوية البازغة بتشديدها على مبدأ «اللاعمل، اللاانشغال بتنظيم شئون الحياة» تتصرف بطريقة رد الفعل المضاد لاتجاه الظروف التاريخية السابقة؛ فبقدر ما كان الطغيان الملكي السابق وقبضة رجال القانون ضاربة ومستبدة (أيام دولة تشين)، جاءت الطاوية الجديدة منغمسة — قهريًّا — في ضروب من الاغتراب والهروب من كل ما له علاقة بتنظيم شئون الدنيا والتدخل في أحوال الناس ومعاشهم بأي شكل من الأشكال ... بقدر ما طالب النظام البائد بالانصياع لدولة القانون، اشتطت الطاوية القادمة في المطالبة بالخضوع «لأحكام الطبيعة ... وقانون الفطرة الإنسانية الأولى»؛ فالطبيعة هي التي تعمل كل شيء، وليس للإنسان أن يقف في وجه تيارها العارم، إلا إذا أراد التهلكة.

استعار الناس، من العهد الطاوي الأول، مبدأ «هوانلاو»، وهو — كما ذكرت في موضع سابق — مصطلح مركب يشير إلى مذهب في الفكر يمزج بين رمز القوة المسالمة والعزلة المتوسلة بقوة الطبع الفطري. كان الجميع، حكَّامًا ومحكومين في حاجة إلى توفير أسباب للاستقرار، فنشط التفكير بتصورات مختلفة عن تلك الأفكار الغليظة التي أطبقت عليهم إبان حكم تشين؛ فمن هنا لاقت الطاوية العائدة صدًى طيبًا ... وعندما تقدم أول إمبراطور لدول هان الغربية (اسمه: ليو بانغ)، داخلًا من بوابة العاصمة «شيان يانغ»، حاضرة دولة تشين المنهارة، وأعلن «الاتفاق حول اللوائح الثلاث»، تلبية لرغبة الشعب في تطبيق «التعاليم الطاوية»؛ وذلك لرفع آثار الممارسات السيئة لدولة تشين الاستبدادية، قوبل بكل الحماس والترحيب.

كانت السنوات الأولى لعصر دولة هان الغربية تشهد هدوءًا واستقرارًا نسبيًّا بعد سنوات من الفوضى والقلاقل، وتذكر سجلات التاريخ عن تلك الفترة أنها ... (شهدت الخلاص من نير وقسوة حكم تشين، ثم جاء رئيس الوزراء «ساو تسن» بدولة هان؛ لينشر في ربوع البلاد الهدوء والاستقرار واللاعمل [مصطلح طاوي، لا يعني التبطل عن العمل، بل

التخلي عن التدخل فيما هو طبيعي وفطري، أي: العمل بموجب ما تقتضيه الطبيعة]، فلهج الناس في أرجاء البلاد بالثناء عليه، وتحكي أخبار الأيام الأولى في سير الوقائع المذكورة عن هذا المسئول الحكومي نفسه أنه كان قد استدعى أحد شيوخ القبائل، ممن يفقهون بعض تعاليم الطاوية، وسأله عن رأيه في سياسات الحكم الرشيد، كيف تكون؟ وما مثالها؟ فأنبأه الشيخ بأن الأمر كله يتلخص في عبارة واحدة فقط، يقولها لمن يعنيهم الأمر … «اهدءُوا تمامًا، وستهدأ الأحوال، ويعم الاستقرار!» وهي الفكرة التي أصبحت عنوانًا على توجهات، بخطوط عريضة، في حياة الناس والمجتمع فيما بعد … (لكن التاريخ يشهد، أيضًا، أنها الفكرة التي كانت وبالًا على الجميع، بصورة مفزعة) … سارت الأمور هادئة، نسبيًّا، طوال عهد دولة هان، أقول «نسبيًّا» لأن الظروف لم تكن تخلو من أسباب للقلق، فمن ذلك، مثلًا، أنه في عهد أحد العروش الحاكمة (عهد الملك وو) التي اتسمت بالطموح الزائد، جاء من أراد أن يضع ثقته في الكونفوشيين، وأتاح لهم مكانًا في القصر الحاكم، مما تسبَّب في تصدعات وخلافات خطيرة … وصل صداها وأصاب تأثيرها بعض أفراد العائلة المالكة أنفسهم).

المهم، أن النقاط الأساسية في السياسات الطاوية التي انتهجتها الحكومات المتعاقبة، أوائل عهد دولة هان الغربية، قامت على أساس عدم تحميل الأهالي المزيد من الأعباء؛ حرصًا على استقرار الأوضاع الاجتماعية، أملًا في تحقيق مستوى من الازدهار يلمسه الناس بأنفسهم؛ وبالفعل فقد تطورت مستويات الأداء الاقتصادي، وتدعَّمت سلطة «آل هان»، هذا مع العلم بأن ملوك هذا البيت الحاكم لم يكونوا في حقيقة الأمر يطبقون مبادئ الطاوية عن اقتناع وإخلاص ونوازع طيبة، أو حتى بتأثير انفعال أو هوًى صادف النفوس، وإنما يرجع اختيارهم للنمط الطاوي في الأساس إلى محاولة تلافي المخاطر الناجمة عن سنوات الحرب الأهلية الطويلة وما أفضت إليه من أحوال مزرية عانى ويلاتها الجميع، لكن ذلك لم يمنع حكَّام دولة هان الغربية من إعلان تمسكهم بأفكار المدارس المائة … (بما تشتمل عليه من نوازع كونفوشية)، ومثلًا، فقد كان يمكن أن يظهر في أيام حكمهم، وفي الفترة التي سادت فيها التعاليم الطاوية، مفكرون كبار على الطراز الكونفوشي.

وفي كل الأحوال، فقد استطاعت دولة هان، وعلى مدى ستين عامًا من بداية حكمها، أن تحقق شروط استقرار في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية، حتى لقد تضاعف عدد السكان أكثر من مرة … (تلك علامة طيبة، دليل على الحكم الرشيد … في الصين بخاصة!) ونشط الإنتاج الفكري، لا سيما في مجال التدوين التاريخي، وازدهرت الطاوية، بعد أن عادت إلى مسرح الفكر من جديد، لكنها — هذه المرة — اتخذت طابعًا دينيًّا، وتحقق للبلاد نمط من أنماط الوحدة الفكرية التي لم تنعم بها، حتى في زمن تشين — رمز الوحدة الأول —

فلما جاء زمن ما يُسمى بـ «دولة هان الشرقية» (٢٥–٢٢٠ق.م.) كانت الطاوية قد جددت شبابها بالكامل، بينما شاخت الكونفوشية، وترهلت وتصلبت شرايينها. ثم إن الطاوية الجديدة تميزت من النسخة القديمة (التي لم يتزعمها سوى شيخ واحد، هو لاوتسي) بأنها ارتدت مسوح قداسة فأقيمت لها المعابد وساحات القرابين، وصار لها شيوخ وكهنة في طول البلاد وعرضها. فما كاد يبزغ فجر القرن الثالث (ثم الرابع) الميلادي، مع ظهور دولتي وي، وجين، حتى كانت الطاوية قد صارت كيانًا كهنوتيًّا ذا أسرار وتقاليد ومسوح وصلوات، وهو ما أصبح ذائعًا ومشهورًا باسم «شيوانشيو» (الغيبيات)، حيث نشطت الدعوة إلى العودة إلى الطبيعة، وحرية الاعتقاد الباطني، وتحرير الفكر من آثار التوجهات والآراء الفلسفية؛ وبات كل عالم أو مفكر بارز في هذه المرحلة التاريخية منتسبًا، بشكل أو بآخر، إلى الطاوية.

لم يكن ممكنًا للطاوية الدينية، في هذا الزمان الجديد، أن تتخذ هذا الرداء الكهنوتي، إلا بما سبقها من مراحل ممهدة؛ وتحديدًا فقد تطورت الطاوية في زمن هان، عبر مراحل ثلاث: الأولى، مرحلة مذهب «هوانلاو»؛ الثانية، مرحلة «وانشون» ... (وهو أحد المفكرين الطاويين، وكان قد وضع كتابًا أسماه «التوازن»، قُدِّر له أن يفسح الطريق أمام تجديد الطاوية، بما أرساه من أسس نظرية شجَّعت على الاتجاه الطبيعي في الفكر) ... الثالثة، مرحلة التصورات الغيبية.

كان في خلفية أجواء المسرح الذي تألقت فوقه الطاوية العائدة عناصر ساهمت في روعة المشهد؛ ذلك أن جزءًا من أسباب القوة والحيوية كان راجعًا لعوامل حضارية ومادية، خصوصًا أن الفكر الطاوي ساهم في إيجاد ظاهرة اقتصادية جديدة هي وحدة الإنتاج القروي، التي اتخذت طابعًا مستقلًّا عن باقي وحدات الإنتاج، وصنعت لنفسها اكتفاءً ذاتيًّا، فمِن ثَم أمكن للأذهان أن تحلق في فضاءات التأمل وقد تنسمت ذرى معارج الأنوار فوق هياكل الغيب الأقدس، فظهرت أجيال من دارسي الغيبيات، ووسمت مظاهر الإبداع في ذلك الزمان بميسمها. كان شيوخ الفكر الطاوي، هم أنفسهم رواد الطاوية القدماء، أبرزهم: الشيخان «لاوتسي»، و«تشوانغ تسي»؛ غير أن الطاوية الثانية كانت مختلفة عن تلك التي تزعمها الرهبان والنُّسَّاك أيام العزلة في الكهوف، فقد صار شيوخ الزمان الجديد هم كبار مشاهير المحافل الاجتماعية والسياسية وأقوى رجال الدولة ... (ورغم ذلك، فقد جاء زمان آخر، مع نهاية دولة هان (٢٢٠م) تقوَّضت فيه أركان النظام الحاكم والطاوية معًا، بسبب تلك النغمة الطاوية المميزة، التي طالما دعت إلى تجنب المخاطر وإيثار السلامة

والعكوف على الذات، ومناهضة النظم الاجتماعية والسياسية «الكونفوشية» المتجهة بكل طاقتها لما يتعلق بشئون البشر والعلاقات الإنسانية في المجتمع الذي يتصوره الإنسان بنفسه ولنفسه) ... لكن تلك مسألة أخرى!

في الفترة الممتدة من عهد أسرة هان الشرقية، حتى زمن دولتي: وي، وجين (٢٥–٤٢٠م) كانت الأفكار الطاوية هي الأكثر انتشارًا، لكنها كانت ذات إطار من المفاهيم الغيبية التي أتاحت للفكر أن ينعتق من أسر التقاليد الكونفوشية ليهيم في كل وادٍ، ووراءه جماعات من الشباب، تنزع معه في أودية الأفكار الجديدة، وجاء زمان تقلَّصت فيه تقاليد تحقيق الكتب ومراجعتها، وحتى المراجعون كانوا ينأون بأنفسهم عن التراث الكونفوشي، وعن التقاليد المعهودة في مراجعة التراث بشكل عام.

ووسط هذه الأجواء، ظهر المحقق جانغ شان، تحديدًا في زمن دولة جين الشرقية (٣١٧–٤٢٠م) وهي فترة ذات أهمية خاصة في تاريخ الصين القديم؛ لأنه في ذلك الزمان كانت البوذية تطل بأعناقها فوق الأسوار الصينية قادمة من الهند ... (وهي واحدة من خمس غزوات، ذات شأن، اقتحمت أسوار العزلة الصينية، ثلاث منها ذات طابع عسكري، مصحوب بقوات من وراء حدود؛ وهي: المانشو، اليابان، الاستعمار الغربي؛ واثنتان منها عبارة عن غزوات فكرية وثقافية، غيَّرت مجرى الثقافة التقليدية، أولاهما هي البوذية (في القرن الأول للميلاد)، وثانيتهما الماركسية، في مطلع العصر الحديث).

كانت ساحة المشاعر القومية الصينية مستثارة، بل مشتعلة، وهي ترى البوذية الوافدة من الخارج قد احتلت مواقع قداسة في قلب الحضارة الصينية (وكان بعض الأهالي يعدون البوذية ديانة البرابرة المقيمين وراء الحدود)، ولعل الاتجاه العام لحركة الفكر كان يرى أن الطاوية (الوطنية) قد تحوَّلت واستجابت لظروف المجتمع وتشكلت بطابعه وخرجت من عزلة الفردية الجامحة، واكتملت لها عناصر الاستحقاق كديانة محلية؛ ومِن ثَم راحت الطاوية تناوئ البوذية كديانة ذات كهنوت ومعابد وطقوس، وإن صادقتها وتطامنت إلى تيارها الوافد بوصفها نظريات فلسفية. يعني، وباختصار شديد، فهي قد صالحتها كفلسفة، لكنها نفرت منها كعقيدة.

وربما بدا للمحقق جانغ شان أن يتصالح هو الآخر مع تقاليد تحقيق التراث الطاوي الأول، وأن يبحث في المتون عن ذخائر الفكر، حتى لو كانت مجرد مختارات منتقاة من عيون الأخبار، فتسقط منها شيئًا بعد شيء، وجمعها بين دفتي كتاب ... هذا وارد أيضًا، خصوصًا أن أحدًا لا يستطيع القطع؛ حتى يومنا هذا، بأن ليتزو هو مؤلف الكتاب.

وعمومًا، فليس بمستغرب لمن يتأمل أحوال التراث الصيني القديم أن يصادف تلك الأحوال التي يثور فيها الشك حول نسبة كتاب إلى مؤلفه، حتى لأكاد أجزم بأن ما يمكن التثبُّت من نسبته إلى مؤلف محدد في التراث الصيني لا يتجاوز العدد الضئيل من الكتب.

ويبقى بعد هذا أن الكتاب نفسه، سواء نُسب إلى مؤلف معروف أو حتى بغير مؤلف على الإطلاق، هو أحد أبرز كتب التراث الطاوي الكبرى، وكثيرًا ما يرد ذكره في المرتبة الثالثة بعد لاوتسي وتشوانغ تسي. ثم إن بعضًا من النقاد يرون أنه سابق على تشوانغ تسي، من حيث تاريخ زمن التأليف، ويعزون ذلك إلى ما ورد في كتاب تشوانغ تسي من عبارات يثني فيها على الشيخ ليتزو ويصفه بأنه «القديس الذي يمتطي الريح».

الكتاب يقدم تصورًا للوجود مستمد، بطبيعة الحال، من وجهة النظر الطاوية، فهو يتصور أن الطاو ذا وجود مادي (برغم أنه يتناوله، في الأساس بوصفه موضوعًا للغيبيات)، فهو التجسيد المادي لـ «التشي»، أي: الطاقة؛ فكل الموجودات في الأرض والسماء إن هي إلا تجسيد لركام هائل من الطاقة، حيث يتفق في هذا الرأي مع ما يعرض له تشوانغ تسي، تحت مقولة الـ «طاوتشي» — طاو الطاقة — ومِن ثَم يتجلى انتماؤه للفكر الطاوي التقليدي.

وقد تأثر النص في هذا الكتاب بالكثير من آراء كتاب «التغيرات»، لكنه استقل بتصوراته وأفكاره التي استمد عناصرها من رؤى الطاوية حول فكرة التشكيل المادي للعالم (وهي التصورات التي ستساهم، بعد مئات السنين، في خلق تمهيد فكري مناسب لاستقبال المادية الجدلية والتاريخية والاشتراكية العلمية، في إطار الفكر الماركسي الذي قامت الصين باستيعابه وتوطينه، في العصر الحديث ... فمن المفارقات، أن تكون الرؤى الدينية التي كانت أنوار هداية أو سياج عزلة، في وقت ما، هي بعينها الدروب التي مهَّدت، بشكل غير واعٍ، لمسارات الغزو الفكري التي اقتحمتها، في غفلة من الزمان!)

لم يقف الكتاب عند حدود الاتفاق المبدئي مع الأفكار التي يعبر عنها تشوانغ تسي، لكنه تجاوز ذلك إلى استيعاب مجمل النظريات التي عبرت عنها المدارس المختلفة في عصري وي، وجين، وقد تميزت هاتين الحقبتين بالإقبال على الأفكار الطاوية والبوذية المترفعة عن الانغماس في المطالب الدنيوية، وهو الاتجاه الذي لاقى هجومًا من قبل السلطات الحاكمة، فاقتصر النشاط الفكري على مراجعة الأعمال التراثية للطاوية، وفي تلك الأجواء المفعمة بنشاط محموم في مجال الكتابات الغيبية، وُلد الاهتمام بكتاب ليتزو الذي دخل دائرة الضوء، فهتفت له جوقة التهليل الطاوية هتافًا شديد الحماسة.

يتضح من الكتاب أنه قد ورث الأفكار الفلسفية للمذهب الطاوي، وأفكار لاوتسي، وكان لفترة من الزمان محل تقدير خاص بوصفه أحد الكتب (الميتافيزيقية) الأربعة، إلى

جانب «كتاب لاوتسي»، «كتاب تشوانغ تسي»، «كتاب أونزو»؛ ثم جرى تصنيف آخر للكتب الطاوية الأربعة، استوعب كتاب ليتزو في إطارها، بالإضافة إلى «كتاب الأسرار»، «كتاب الطاو»، «كتاب تشوانغ تسي».

وفوق ما تعبر عنه نصوص الكتاب من محتويات وثيقة الصلة بالفكر الطاوي (الأصولي)، فإن موضوعها العام يرمي إلى تأكيد فكرة جوهرية مفادها أن الحركة الطبيعية للكون قادرة على إنتاج دورة حياتها بنفسها؛ فكل الأشياء تُولد وتتحول وتمرض وتفنى، لتتوالد من جديد وفق آلية طبيعية تجدد شرايين بقائها على نحو مستمر؛ فدورة الحياة والموت تخلق الحياة والموت دائمًا أبدًا، فما إن تبدأ حتى تنتهي، ثم تبدأ من جديد، وهكذا دواليك.

في الطاوية، يقوم مبدأ اللاعمل (أو «الانخزال»، حسبما أجتهد في ترجمته)، على التنائي عن بذل أي جهد لتغيير الطبائع، فكيف يمكن تطبيق هذا المبدأ في الشأن الاجتماعي؟ يجيب متن الكتاب على ذلك قائلًا: إن السلطة الوحيدة القادرة على تحقيق مبدأ الانخزال في الشأن الاجتماعي العام هي سلطة الملوك والحكماء. وعند تناوله لفلسفة الحياة يستعرض الكتاب تقاليد الكونفوشية (المراسم، الآداب، قواعد السلوك الأخلاقي) بكثير من التهكم والسخرية، ويرفضها بكل حسم. وبرغم ما قد يبدو أنه يشوب بعض نصوص الكتاب من نزوع إلى إعلاء قيمة الانغماس في الملاذ والمتع الحسية الشهوانية، إلا أن الفكرة الموجِبة لمثل هذا الطرح تقوم على أساس إطلاق الحافز الطبيعي بغير قيد؛ وقد نتج عن هذا الاتجاه تنامي الاهتمام بالجسد (آلة اللذة والمتعة الحسية) والاعتناء بشروط الحياة الصحيحة، والاغتذاء على ما يجلب دوام العافية وطاقات البقاء، ثم تطور هذا المسعى إلى الاجتهاد في طلب شروط العافية الذهنية. فمِن ثَم كانت فلسفة الحياة، في الطاوية، تقود إلى حال من يقظة الوعي وتنبه طاقات الإدراك الذهني. وعلى أية حال، فلم يكن إطلاق حرية التمتع بالملذات متجاوزًا كل الحدود، بل كان الغرض منه انفتاح الوعي على آفاق الطبيعة واستلهام طاقات الخلق والإبداع المحتشدة في كوامن الوجود الفطري والطبيعي، ومع ذلك، فلم يسلم النص من الاتهام بأنه دعوة للإباحية والانغماس في الملذات (بصورة مبطنة، غير مباشرة، كما قد يُلاحظ). لم يقتصر الأمر على ذلك، بل قيل في مثالب المتن الكثير؛ من ذلك مثلًا:

- أن محتوى الكتاب لا يزيد عن كونه مجرد خلط سخيف لآراء شتى.
- أنه مشحون بصور من الغرائبية الفجة.
- أنه مليء بالحكايات الخرافية، وهو أمر غريب يثير الاستفهام حول جدية محتوى يتعلق بموضوعات ذات صلة بالتراث الفكري القديم.

ثم تأتي الردود، سريعًا، في معرض المجادلة، لتجيب وتوضح:

- أن موضوع الكتاب يشمل عرضًا وافيًا وأصيلًا لأفكار المدرسة الطاوية، ما في ذلك شك.
- أنه يمكن للبحث الوافي أن يستقصي، في غير موضع من المتن، أسبابًا تكشف عن أصالة انحياز المحتوى للصف المناوئ لسلبيات الغرائبية، فليس ثمة أفكار هدامة أو ظلامية.
- ولئن كان يحتشد بالحكايات الخرافية، فهو في هذا صنو لكتاب آخر يحوز التقدير والاحترام، وهو كتاب «تشوانغ تسي».
- قد حظي النص بامتداح تشوانغ تسي، كما عبر عن ذلك بنفسه في ثنايا كتابه، وهو ثاني اثنين في وضع أسس الفلسفة الطاوية وأصولها كلها، منذ أول عهدها.
- أن المتن لم يكن داعيًا، بأي حال، للانغماس في الملذات، بل كان يقرر وجهة نظر صحيحة، في معرض الآراء الطاوية، مفادها أن الجنس والموسيقى والجمال والثراء أهداف مناسبة لتطلعات الناس في الحياة، وقد قال ذلك في إطار تصوراته الأساسية التي تقوم على فكرة جوهرية مؤداها: إن الطاو هو أكبر حقيقة في الدنيا.

ثم إن حكاية الخرافة في المتون الطاوية ليست موضع استغراب؛ فبطبيعة مطالب وتصورات الطاوية، كان لا بد أن تصنع لمثلها العليا حكايا خرافية، حيث يستطيع الناس جميعًا، من الإمبراطور حتى أدنى فرد في المجتمع أن يمتطي بساط الأحلام وخيالات التأمل إلى فضاء مليء بذخائر من كنوز تخفى عن العيون، فيتخلص الناس من أغلال القلق، ويتجاوزون بأفعالهم البسيطة حدود واقعهم، وينجزون مطالبهم مهما كانت التوهمات؛ فلكل واحد حلمه الخيالي، ولكل خيال فضاء عريض، فمِن ثَم جاءت الأساطير بإلحاح الرغبة الإنسانية (را. كارل يونغ)، فالأسطورة هي الحلم الجماعي، بمثل ما إن حلم كل واحد من الناس هو أسطورته الهائمة فيما وراء الوعي.

اشتمل الكتاب على مائة واثنتين حكاية خرافية، وإذا كان بعضها قد تعثر في عتبات الخطابة الوعظية المباشرة، إلا أنها انسجمت في معظمها، مع ملامح الرمزية الصينية (قل الطاوية) المعهودة وأثمرت قيمة فنية وفكرية، منحت الكتاب مكانة معتبرة في مبحث التدوين الكلاسيكي للخرافة.

ويبدو لي، كمترجم للنص ومطالع لمصادره وأصوله الفكرية، أن الخرافة في حكايات الكتاب تعكس، في وعي كاتبها وزمانها أزمة الواقع، وأنه لم يكن يمكن عمومًا، لأي حكاية

أسطورية أن تحلق عاليًا في فضاء التهويل والمبالغة، إلا بقدر ما تفرش على الأرض من ظلال تنبسط كأقنعة على وجه المسكوت عنه، أو المخبوء في تفاصيل الواقع المعيش، عبر تجربة الحياة.

وأخيرًا، فهذه ترجمة كتاب آخر من كتب التراث الطاوي، أنقلها عن اللغة الأصلية (الصينية) مباشرة، علها تضيف إلى ما هو موجود من ترجمات عن الطاوية في المكتبة العربية، ولطالما حظيت الطاوية بترجمات متعددة إلى العربية، فهناك الترجمة الرائعة لكتاب الطاو، التي قام بها أستاذنا الدكتور عبد الغفار مكاوي؛ وفي تقديري فهي ترجمة ذات قيمة كبيرة، خصوصًا أن مبدعها أستاذ في الفلسفة، له اطلاع واسع على الثقافة الصينية، بالإضافة إلى موهبته وتفرده ككاتب وقاصٍّ ومبدع؛ فمِن ثَم كانت لترجمته قيمة لا تضاهى، حتى بما فيها الترجمات التي نقلت النص مباشرة من لغته الأصلية. إن ترجمة على يد أستاذ قدير في الفلسفة تساوي أكثر مما يمكن تقديره بمعطيات النقد الترجمي، في حقل الدراسات المتخصصة.

تأتي هذه الترجمة (أتمنى) لتضيف إلى رصيد ما هو قائم في مكتباتنا العربية عن الطاوية، ولعلها الترجمة الأولى عن اللغة الصينية مباشرة لهذا الكتاب، لكنها ليست الأولى، على الإطلاق، فقد سبق أن طالعت على صفحات «أخبار الأدب» (دار أخبار اليوم)، بتاريخ ٢٩ / ٨ / ٢٠١٠م، ترجمة لمختارات من هذا الكتاب تحت عنوان «نصوص من الطاو»، ترجمة: محمد الخالدي (تونس)، وهي ترجمة عن لغة وسيطة، كما أني لم أجد في اللغة الإنكليزية سوى ترجمة واحدة، منشورة على «الإنترنت»، بياناتها كالتالي:

{Lie tze, An overview by Laurentiu Teoorescu, English version By Corina Berbecar.}

وهي ترجمة متاحة للاطلاع على الشبكة العالمية، لكن يعيبها أنها غير كاملة؛ إذ تنقصها فصول كثيرة من الكتاب، بل يغيب عنها باب بتمامه من أبوابه الثمانية.

وقد اعتمدت في ترجمتي لهذا الكتاب على نسختين أصليتين مودعتين بمكتبة كلية الألسن، بالقاهرة، وأود أن أشير، هنا، أنه لولا هذه المكتبة المتخصصة، وحصيلتها من المصادر والمطبوعات التي أُهديت للمكتبة عبر قنوات التبادل المشترك بين المؤسسات التعليمية في كل من مصر والصين؛ ما استطعت إنجاز هذه الترجمة عبر نص أصلي، وقد كانت الأرفف جاهزة بعدد من المصادر عن الطاوية، أمدتني بحصيلة وافرة من المعلومات، كانت بمثابة المعجم الثقافي والفلسفي الذي رافق عملية الترجمة بأكثر مما اعتمدت فيها

على القاموس اللغوي، ولعله مما قد يفيد مترجمي التراث الصيني أن يتوفروا على مواد علمية أو مصادر بحثية، ذات صلة؛ فكثيرًا ما تضيء جنبات، وتكشف عن رؤى، وترشد إلى حقائق كامنة في صحراء التيه الفلسفي الصيني … حيث احتجبت حقائق التراث هناك على يد النُّسَّاخ غير المدققين، الذين سمحوا لأنفسهم بالتصرف كثيرًا في المتون، وانتزعوا عبارات من سياقاتها وأضافوا وبسطوا يد الانتقاء هنا وهناك … (يقال بأن الكثير من النصوص الكونفوشية والطاوية ليست في حقيقتها سوى أقوال مقتطفة ومنتقاة من سياقات شتى؛ ذلك أن طريقة التدوين القديمة كانت تقوم على تجميع المواد على نحو اعتباطي … وكثيرًا ما رُصَّت عبارات في سطور متوالية، بجوار بعضها بعضًا، دون أي رابطة منطقية بينها) … وكان من الممكن لمثل هذه الطريقة أن تلقى قبولًا في موطنها — وزمانها — بين الدارسين، أو حتى بين عامة القراء، في بيئتها الثقافية الأصلية، فلطالما كانت اللغة الصينية في صيغتها الكلاسيكية تحبذ طرق الكتابة التي توحي بمعانٍ متنوعة للعبارات، حتى عد ذلك هو النمط الأصوب في طرق التعبير وجماليات الكتابة … (ألا تكون الكتابة واضحة، بأي حال)؛ فالرموز القديمة، بطريقتها المعقدة والفريدة، تحتشد بإمكانية توليد معانٍ شتى حسب النمط الذي تصاغ به الجمل والعبارات … (لم تكن هناك «جملة تامة» في الصينية القديمة، بل عدة عبارات قصيرة، متصلة … بصورة ما).

وإذا كان القارئ الأصلي في لغته الصينية يستعذب هذا الغموض ويستملح جماليات المتاهة الخلاقة بين دروب المعاني، فلست أظن أن المترجم يمكن أن يستمتع بهذه الدياجير الحالكة، لا سيما إذا كان من غير الباحثين في التراث الصيني، من أمثالي … (فلست من الدارسين للفلسفة الصينية، بمؤهلات التخصص، لكن بالشغف والاطلاع؛ فمجال أبحاثي: اللغويات الصينية، ومؤهلاتي أبعد ما تكون عن تاريخ الأفكار) … [تخصصي الدقيق: «دراسة تطور الأشكال التركيبية للرموز الصينية»]، ومع ذلك، فقد كان من حسن الحظ أحيانًا أن تكون الخلفية البحثية خير معين على رصد معاني المصطلحات التي تزخر بها النصوص التراثية، فكم من مرة كان المعجم اللغوي، لا الثقافي، هو الذي يكشف عن خبايا دلالات الألفاظ.

بيد أن طائفة لا يستهان بها من مصطلحات الطاوية بقيت عصية على عبور جسور النقل الترجمي … إليك، مثلًا: كلمة «الطاو» نفسها، ما معناها بالضبط؟ قد يقال في الاجتهاد بإجابة سريعة إنها إشارة إلى معنى «الطريق»، أو «المنهج»؛ وربما بترجمة أقرب من الصواب «المعنى الأعلى»، لكن أحدًا لا يستطيع الجزم بأي من هذه التفسيرات؛ لذلك

فليس أفضل من «تعريب» الكلمة؛ أي كتابتها بحروف صوتية منقولة من لغتها الأصلية، هكذا: الطاو.

ثم قيل في تفسير معنى الطاو إنه اسم اللااسم، أو المعنى بغير اسم، وبلغ من فوضى التفسيرات وسوء الترجمة أن عقلًا عبقريًّا، بمستوى إدراك ونبوغ واحد مثل المفكر الألماني العظيم هيغل، لم يستطع أن يفهم معنى الطاو، وجاءت كتابته عنه تحمل قدرًا كبيرًا من الالتباس هذا؛ رغم اطلاعه الواسع ودرايته غير المحدودة بالفلسفة والفكر الصيني القديم؛ (حتى إنه لم يقع في خطأ النظرة الأحادية التي تكتفي بكونفوشيوس دون غيره، في تأمل تاريخ الفكر الصيني، ثم إنه كان قارئًا جيدًا للفكر الطاوي، لا سيما أعمال تشوانغ تسي …)

لعل «جوزيف نيدهام» كان هو الوحيد من علماء الصينيات في العالم كله، الذي أدرك أهمية الفكر الطاوي، حتى إنه ذكر في ثنايا مؤلفه الكبير عن تاريخ الحضارة والعلم في الصين، ما مفاده: إنه لو لم تقم للطاوية في الفلسفة الصينية قائمة، لصارت كشجرة بغير جذور. بل أكثر من ذلك يقول — في لمحة عبقرية — إنه لا يصح أن تكون الكونفوشية هي ضمير الإشارة إلى الثقافة الصينية؛ وللغرابة، فهو يتفق في هذا الرأي مع الأديب الصيني الكبير «لوشون»، حيث يقتنع كلاهما بأن «الطاوية» هي الرمز الأصدق تمثيلًا لروح الصين.

وهنا، فإني أقدم هذه الترجمة لكل قارئ في اللغة العربية، وقد قصدت بها أن أتيح، للجمهور والمتخصصين، مطالعة أحد أهم كتب التراث الطاوي، من مصادره وبلغته الأصلية. إن النصوص الكبرى في الفكر الصيني القديم كثيرة جدًّا، ففي الكونفوشية وحدها، ما لا يقل عن خمسة عشر كتابًا، لم يُترجم منها، حتى في الإنجليزية، سوى عدد ضئيل للغاية؛ فليست كل الفلسفة الصينية هي «الكتب الأربعة»، ولا «كتاب الطاو»، أو «كتاب الشعر» أو «التغيرات» … تلك كلها مجرد كلمات افتتاحية في دفاتر الذخائر الباقية من تراث الحضارة الإنسانية في الشرق الأقصى … (الصين، اليابان، كوريا، فيتنام … كلها تأثرت بالكونفوشية والطاوية).

على أن اهتمامي بالتراث الصيني لم يكن مدفوعًا باعتبارات ترى أية قداسة ضمنية لسوابق في التجربة الإنسانية، سواء في المجال الفلسفي أو الفكري، بما في ذلك المواريث التي تحمل سمة القداسة، فلست بأي حال من دعاة العودة للقديم، أو استلهام مقولاته أو التأسي بحكمته (بافتراض حكمة ما للقدماء)، بل على العكس، فقد كان «التقدم»، و«التطلع للأمام»، «الحاضر هو سيد الماضي» … إلخ، كلمات ومعانٍ عشتها واقعًا، وتشرَّبت فحواها، منذ أن كنت صبيًّا أتعلم على يد جيل من الأساتذة الصينيين عركوا تجارب مجتمع يتطلع

بالأمل والجهد إلى آفاق التقدم ... وأظن أن قدرًا مما حفظته عن التاريخ واللغة والأدب الصيني — ولو بالتلقين — قد صار بالتجربة والتعلم، جزءًا من الوعي والإيمان ... ولئن كنت قد رأيت في صفحات الصين القديمة مادة ذات قيمة للترجمة، فقد رأيت في الصين الحديثة والمعاصرة أروع مشاهد العبقرية والجلال، ماثلة في دلالات المعاني الحاضرة، وشواهد المثل الحي على عظمة الإنسان ... في صين الحاضر ما هو أكثر إبداعًا ... في رواد النهضة ... في أجيال من المثقفين والمبدعين الذين أرسوا دعائم الانطلاق في مسيرة التقدم ... في الذين طالبوا بالعلم والتمدن واستنكروا كهنوت الماضي ورفضوا مواريث التخلف ... في المسيرة الكبرى لأجل بناء وطن ... في نضال أجيال من الثوار والحالمين بمستقبل أفضل للإنسان ... في كل هؤلاء وكل صناع الغد، يكمن ما هو أبقى وأخلد من الماضي كله، وأعظم من كل المواريث.

فقط أدفع إلى القارئ بهذه الترجمة، وكل ترجمة للتراث، في محاولة لكي نتصفح معًا، فصولًا من تجربة الفكر في مراحل مبكرة من مسيرة الإنسانية، لعلنا نتوفر على أسس أمتن وتقديرات أكثر ثقة وصوابًا في رصد وتحليل تاريخ العقل الإنساني، كي نلحظ طريقته الفريدة في صياغة مسيرة تقدمه، أملًا في الاهتداء إلى المعنى، فتنكشف عن الرموز أقنعتها، وينفتح الطريق ... طريق الوعي إلى آفاق المدى.

محسن فرجاني
القاهرة، الأول من أكتوبر ٢٠١٠

الباب الأول

تيان روي

天 瑞

(الطبيعة)[1]

[١][2]

أقام ليتزو بأرض دولة «تشنغ» مدة أربعين سنة، دون أن يكترث لأحواله أحد من الناس، وكان الملك وحاشيته يغفلون أمره ويعدونه مثل واحد من الدهماء، وحدث أن أجدبت الأرض فاجتاحت البلاد جائحة المجاعة والبلاء، فقام وتجهَّز للرحيل إلى أرض (دولة) «ويه»، وهنالك قدم إليه أحد تلاميذه، وتكلم معه، قائلًا: «هو ذا تسافر الآن، يا سيدي، ولا نعرف متى تعود ثانيةً، (فاسمح لي، أنا تلميذك المطيع، أن أتجاسر على أن أسألك مسألة ...)

[1] يشتمل الكتاب على ثمانية أبواب، لكل واحد منها عنوان رئيسي، وقد حرصت على تقديم العناوين، أولًا، بطريقة التعريب، أي كتابة الصوت بحروف عربية، ثم وضعت ترجمة المعنى بين قوسين هلاليين. يتناول الباب الأول، وهو بعنوان «تيان روي» في الصوت الصيني، عدة نقاط مختلفة منها: «الأصل الأول للطبيعة» أو ما يطلق عليه في الاصطلاح الطاوي: «جذر الأرض والسماء»، وهو المبحث الذي يشغل الطاويين في الكثير من تأملاتهم؛ حيث إن «الكون» أو «العماء الكوني» أو «الظلمة الكونية» هو ما يتضمن الإشارة إلى الغموض الذي يكتنف النشأة الكونية أو «ما قبل النشأة الأولى»؛ ويطرح الباب عددًا من التصورات، حول هذه المسألة، في أربع نقاط رئيسية، يعرض لها هذا الجزء من الكتاب.

[2] وردت الفصول تحت كل باب في سرد متتالٍ، من دون عناوين محددة لكل فصل منها، فرأيت أن أضيف من عندي، ليس فقط بحكم ما هو متاح من حدود أمام الاجتهاد التفسيري في الترجمة، ولكن

فهلا ذكرت لي شيئًا من علمك، وعلمتني بمواعظك؟ أما أدركت شيئًا مما علمك أستاذك «هو شيو تسي»، فتعلمناه؟» فتبسم ليتزو، قائلًا: ومتى تكلم «هو شيو تسي» بشيء؟ كل ما أذكره أني كنت حاضرًا ذات مرة، وهو يتحدث إلى (زميلي) «بو هون ماورن»، وكنت إلى جواره أنصت باهتمام لما يقال، فإذا هو يحدثه بما أذكر لك الساعة طرفًا منه؛ إذ قال: «هناك ما يقال له الطاو، فاعلم أنه المبدع ولا بارئ له، يُبدِّل كل شيء، ولا مبدِّل له، تنزَّه عن أن يكون له خالق، بيد أنه صانع كل شيء، وعزَّ عن أن تلحقه لواحق التبديل، لكنه مبدل الأشياء كافة. فلئن كان هو الخالق، فالكل مخلوق به؛ ولما كان قد سبق منه أنه المُبدِّل، فقد صار من المحتم أن التغيير قضاء مقضي، فهو المبدع في كل آن، والمبدل كل شيء تبديلًا دائم الجريان [حرفيًّا: لا تنقضي لحظة إلا كان له خلق جديد، ولا ساعة إلا قدَّر فيها التبديل والتغيير]، (فالموجودات إبداعه الدائم، والتغيير قضاؤه في كل حين، وليتدبر المتدبر، فسيجد مصداق ذلك في العنصرين ...) الـ «ين» والـ «يانغ»، والفصول الأربعة. أما الذي لم يبدعه مبدع فقد تفرَّد واستقل، وما استقل عن التعريج في مواطن التبديل، فقد دارت به دائرة أبدية الدوران، فلما استدارت دائرة بغير بدء ومنتهى، استتب به مدار الوقت في طول الزمان؛ ولما تفرد واستقل، عزَّ باطنه عن أن يتجلَّى للأفهام، ودقَّ معناه عن النظر والاستقصاء. قد جاء في كتاب «هواندي»، (ما مفاده): «في منبسط السهول وخلاء الوديان وشموخ التلال رسوخ أسرار لا يُبلغ قرارها؛ حتى قيل إنها أشبه شيء بغوامض بواطن أنثوية؛ ففي رحم أنثى، يستكن باطن دنيا بأسرها، فهنالك منبت النشأة وجذر جذور أصيلة الغرس بلا انفصام، وطاقة مديدة لا تنفد أبدًا».»

(فهكذا، أقول لك ... بأن:) «مبدع الأشياء لم يبدعه شيء، ومُبدِّل الأشياء لا ينفعل لحادث التغيير؛ فهو قد أبدع كل شيء، وبدَّل وارتسم له ظاهر حال، واصطبغت ألوانه،

أيضًا بدافع الحماس والواجب في أن أعرض النص عبر أوضح سياق ممكن للقارئ — رأيت أن أضيف — أرقامًا مسلسلة، بين قوسين مربعين في بداية كل فصل؛ علمًا بأني، كقاعدة عامة، أضع بين قوسين مربعين كل ما هو اجتهاد بالترجمة مما قد يفيد في توضيح المتن، بإضافة من خارج محتواه؛ سواء من الشروح المصاحبة للنص الأصلي في النسخ المترجم عنها، أو من المصادر ذات الصلة في الفلسفة الطاوية، سوى ما كان متضمنًا، في المتن، من عبارات أصلية أو تراكيب استوجبت ترجمة متحررة من أسر الصياغة الجامدة في لغة المصدر، وكان عدد غير قليل من دارسي اللغة الصينية، من الباحثين العرب، قد ألح على ضرورة إيراد تلك النماذج التعبيرية، ولو على هامش المتن، علها تضيء جنبات من المحتوى اللغوي-الثقافي، الذي ينطوي عليه النص؛ وسيطالع القارئ الكثير من تلك الإشارات، بين القوسين المربعين، مسبوقة بكلمة «حرفيًّا».

وشهد له شاهد الحكمة، وانبسطت ليده مقابض القوة، وفرغ بددًا ثم نما وتجدَّد سرمدًا من تلقاء ذاته وطبيعة سريان وجوده، فإذا بدا لك القول بأن الإبداع والتبديل وتبيان الأحوال، وتجلي الألوان وإنفاذ الحكمة، واستلام مقود البطش بالقوة، والتبدد والتجدد؛ كل ذلك قد ثُني عِنانه لإرادة القصد المقصود، وعلى غير ما تسلك مسارات الطبائع، تكون قد أخطأت القول وملت عن السداد.»

[٢]

قال ليتزو: «كان القديسون، في الزمن القديم، قد تسلطوا على الموجودات [حرفيًّا: السماء والأرض]، بقهَّارية الـ «ين»، والـ «يانغ»؛ وذلك بزعمهم أن ما تشكل من صورة السماء والأرض إنما هو متولِّد عمَّا لم يظهر في هيئة مصوَّرة (الـ «ين»، والـ «يانغ»)، (فإن لم يكن الأمر على هذا النحو ...) فعن أي شيء صدرت أعيان الموجودات؟ فلذلك قيل إن هناك «طاي» و«تايشو» (تشكُّل الصورة الأولى)، و«تا يسو» (تشكُّل المادة الأولى)؛ فالمقصود بـ «الطاي» هو حال البدء الأول، قبل أن تتحدد له صورة وجوده، أما الـ «تايشو»، فهي حال البدء الدخاني (العمائي)، وكان الـ «تايشي» هو مظهر البدء العياني الكلي؛ ثم جاء من بعده الـ «تايسو»، وهو ابتداء رسوخ مادة الوجود الأولى.

ولما كان الدخان والشكل والمادة الأولى، جميعًا، ذوات وجود كلي غير متعين، فقد أُطلق على جميعها اسم «هونلون»، أي: كتلة الوجود العمائي، وهو ذلك الكل الذي لا تبين للعين ملامحه، ولا تردد في الأذن صداه، ولا ينال الطالب له منالًا، ويعجز عن أن يطاله الطائل؛ حتى حق عليه الوصف بأنه الـ «طاي»، الذي لا يتبدى له شكل ولا يحيط به مدًى.

وإذ دَرَجَتْ بالطاي مدارج التغيُّر، فقد صار إلى الدخان الأول، الذي هو «الواحد» ثم صار الواحد إلى «السبعة» (بدء ظهور الـ «يانغ»، وهو العنصر الذكوري، الذي يسبق «الرقم السادس»، وهو رمز العنصر الأنثوي، لكنه غير ملفوظ به هنا؛ لأن البدء يكون بـ «اليانغ» مطلقًا، أي الرقم السابع، ثم التاسع من بعده)، ثم ما لبث أن تبدل إلى «التسعة»، وما برح يتغير حتى صار إلى غاية الغاية، ثم إذا العدد يعود إلى مبتدأ الدائرة، إلى «الواحد» مجددًا؛ فثم كان تبدل الأشياء كافة، حيث انشق دخان، وشفَّ غيم، فارتفعت إلى مصافها السماء، وراق صفاء مرقاها في الأفق الأعلى، وكان أن ران كدر على سحب مدلهمَّة، فثقل موطئها، وتدنى حتى رسخ منها أديم الأرض، وتوسط بينهما هواء لطيف، فكان ثم مبتدأ ظهور الإنسان؛ فلذلك فاضت الأجواء ما بين السماء والأرض، بروح ونسمات، وتوالد الإنسي، وتكثرت كثرة الأحياء.»

[٣]

قال ليتزو: «لم تبلغ طاقات الأرض والسماء غاية الكمال، ولا بلغت مقدرة القديسين الغاية القصوى، ولا نفدت وسيلة الأشياء (الناس، والموجودات)، إلى تمام حدها؛ فمِن ثَم أحاطت غايات السماء بحيوات الأرض ونثرت فوقها من قباب الأفق الأعلى حدبًا وعنايةً، وحملت الأرض أثقال الأشياء التي لا يحصرها عدٌّ، وصار لكلٍّ مواهب قدرته وحدود قضائه التي ناسبت طبيعته، وكان من جراء ذلك أن بات للسماء ما تعيَّنت به أقطار قدرتها، وصار للأرض ما يمكن أن تتجاوزه، ولو انضاف إلى مديد عطائها المدد، وبدا أن للقديسين مواطن تقصير لا طاقة لهم بتجاوز عثراتها، وتشعبت (النقائص) حتى تشابكت بها بين الناس الدروب والطرقات والمسالك، فإذا سأل سائل عن السبب في كل ذلك، جاء الجواب بأن السماء التي انفردت قباب عطائها (فوق الكافة) ليست مكلفة بحمل أثقال الموجودات، ثم إن الأرض التي وُكلت بحمل أثقال أهلها، ليست موصوفة بواجب الوعظ والهداية، ولا كان القديسون، المنوط بهم الإرشاد والنصح، بقادرين على تجاوز الكائن من طبائع الأشياء، ولم يكن طبع الأشياء الراسخ في جوهرها، فاعل في اقتحام مواطن المواهب المخصوصة؛ فلذلك كان قانون السماء يتبع الـ «ين»، أو الـ «يانغ»، وكانت وصايا القديسين تنحو إلى «العدل»، أو «الرحمة». وكانت طبيعة كل الموجودات، إما حانية باللين، أو آخذة بالقسوة والنكال، فهي كلها تبع لما قام في جوهرها من خصائص مناسبة لطبيعتها.

فمن وقتئذٍ، قامت بين السماء والأرض الحياة، وظهرت مادة وطبيعة ما تتولد به الحياة، وكان بين السماء والأرض مظهر الأشياء، فتبدت طبيعة ما يتشكل به ظاهر صورها، ثم كان صوت كل صائت، حيث اضطلعت بإيجاده الطبيعة التي أبدعت النطق للناطق؛ وكان اللون الذي هيأته طبائع الألوان، والذوق الذي اشتملت عليه مواهب طبيعية أبدعت المذاق.

ثم إن مادة ما بدأت به الحياة صارت تضمحل وتموت موتًا، في حين بقيت طبيعة الحياة. وحدث أن انمحت الأشكال وبادت، بينما تسرمدت الطبيعة الحاملة خواص الأشكال، وكان أن تردد الصوت في كل مسمع، وتبددت مادة الأصوات، وتألقت الألوان حين زالت مادة الأصباغ، وبقي في كل فم مذاق، بعد أن بادت مادة المذاق، فذلك ممَّا قدرته مواهب الإرادة التي تنزهت عن التوسل بيد القصد ووسائط الأفعال [حرفيًا: (فذلك كله من تقدير «اللافعل») أي: الطاقة الكامنة في الأشياء بالفطرة، دون أي محاولة للتوسل بوسيلة من صنع الإنسان].

فذلك هو الطريق [حرفيًّا: الطاو] الذي كان الـ «ين»، والـ «يانغ»، لطيف الرحمة، غليظ القسوة؛ مديد الارتفاع، خفيض الانبساط؛ تام استدارة الدائرة، مترب أضلاع التربيع؛ مكين الحياة والموت، صاحب الظل والهاجرة؛ طافيًا ومطمورًا، جهير الصوت مهموس الرنات؛ ظاهر خفي، تطويه الغمرات، وتتبدى به الباديات؛ ذو صفاء جلي، وقترة خفاء قاتم؛ علقم المر، شهي الحلوان؛ معطر النسمات، أبخر الأنفاس؛ تجرد عن علم وقدرة، بيد أنه عالم بكل شيء، ذو اقتدار.»

[٤]

لما كان ليتزو مرتحلًا إلى دولة «ويه»، فقد انتحى جانبًا، في بعض الطريق يلتمس الراحة من مشقة السفر، وما كاد يجلس قليلًا، حتى تبدَّى لناظرَيه بالقرب منه منظر بقايا هيكل عظمي لميت، هلك في الغابرين، فمد ليتزو يده ونزع بقايا ما انتثر فوق الرفات من أعشاب الطريق، وقال لتلاميذه: «ليس سواي، أنا وهذه العظام المهشمة، نعرف أنه لا دوام لحياة من عاش ولا ممات لمن أدركه الموت، (... لكنني أتساءل:) هل الموتى تعساء؟ أم هل يجد الأحياء في الحياة مسرة؟ كم هي كثيرة مراتب تقلبها. إن ضفدعًا قد يتحول إلى طائر السمانى، وقد تنبت سيقان نبات الـ «جي» في المستنقعات، ثم تصبح حشائش كبيرة ملتفة على حواف الجداول والأنهار؛ وقد تنبت زهور الزينة «فويي» فوق قمم التلال، ثم إذا أُلقي بها وسط حقول مغمورة بالطمي، صارت عشبًا كثيفًا على أطراف البحيرات، فإذا اشتد عودها، تحولت جذورها إلى يرقات ديدان طينية، وتحورت سيقانها إلى فراشات لاهية، ثم إذا الفراشات تصير حشرات زاحفة تُسمى «تشيو طو»، ثم لا يكاد يمضي على هذه الحشرات ثلاث سنوات، وهي في هذا الطور من النمو، حتى تتحول إلى نوع من العصافير،[٣] وهو طائر يقال له «تشيا نو كو»، لكنه لا يلبث أن يتحور إلى «سيمي»، الذي يتحول تدريجيًّا، إلى حشرة تعيش وسط الحشائش، تُعرف باسم «شيس هيلو»، ثم ينبت منها نوع مختلف من النباتات يغزر في مزارع اليقطين، اسمه «سيشي هوانكون»، وهو ذلك

[٣] أسماء النباتات والحشرات، هنا، لا مقابل لها في المعجم العربي؛ فآثرت تعريبها، وذلك بكتابة ألفاظها بحروف عربية؛ وليس ذلك بغريب، فقد دخلت العربية، من قبل، ألفاظ مثل: الياقوت، الدرهم، النرجس، الطاغوت؛ من مصادر مختلفة، ولظروف مماثلة.

الجنس من الحشرات الذي يتوالد عنه نوع يعرف باسم «جيويو»، ثم يأتي من هذا النوع فصيل يُسمى «ماو روي»؛ وهو ما ينتقل طور التغير به تباعًا، إلى نوع آخر من الحشرات الزاحفة يُطلق عليه «فو تشيوان»؛ ويتحول نبات «يانكان» [حرفيًّا: كبد الضأن]، إلى زهور «طيقاو»؛ كما تتحول دماء الخيل إلى كبريت فسفوري؛ وتصير دماء الإنسان خيالات أشباح هائمة في البرية؛ ويتحور الباشق إلى فصيل من الصقور يُسمى بصقر «تشان»، وهو ما ينقلب، بتوالي مراحل التطور إلى طائر الوقواق، الذي تعود به مدارج التقلب إلى أن يتخذ هيئة الصقر في طور جديد.

كان طائر السنونو قد تحول إلى نوع من الأسماك الصدفية التي تعيش بالقرب من الشطآن؛ مثلما تحور فأر الغيطان إلى ما يقال له طائر السمانى؛ وقد انقلب القثاء إلى أسماك تسبح في الماء؛ وصار الكراث نبات يؤكل، منه ما هو معروف باسم «شيان»؛ وقد تحورت النعاج فأصبحت قردة؛ وصار بيض الأسماك فصائل من دود الأرض؛ وكان أحد الوحوش المشهورة في أحراش «تشا نيوان» (واسمه «لي») قد تكاثرت فصائله، بغير تناسل، (من دون انتزاء)؛ وظهرت أفراخ طائر الـ «جي» من لقاح أودعته ذكورها في رحم إناثها، عبر النظر في أحداقها، وهناك فصيل من السلاحف يتكاثر بغير ذكور، ويقال له «داياو»؛ وهناك أيضًا نوع من النحل لا إناث له من جنسه، وهو ذاك النوع المعروف باسم «جي فنغ»؛ وفي بعض بقاع الأرض ينجذب الذكور إلى أمثالهم، ويشتهون بعضهم بعضًا؛ وكذلك تميل الإناث إلى بنات جنسهن فتتواقعن وتحملن حملًا في أرحامهن، دون أن يمسهن الذكور.

وكان «هو جي» [أقدم أجداد أسرة «جو» الملكية (القرن الحادي عشر/٢٦٥ق.م.)] قد استقر جنينًا، في بطن أمه التي حملت به عندما داست بقدميها آثار أقدام الغابرين (وكانت قد مشت فوق أثر أقدام مجهولة، بقيت غائرة في الأرض على مر السنين)، مثلما قُضي أن يولد «آيين»، في جوف شجرة توت، بعدما رأت أمه في منامها صورة جني (وكانت تقيم على شاطئ نهر «آي»)، فلما حبلت جاءها، في الحلم، جني وقال لها: «غدًا تفيض الينابيع، فإذا عاينت دفق الماء فاهربي صوب الشرق البعيد، وحذارِ أن تنظري وراءك.» فما هو إلا أن جاء نهار اليوم التالي، وفاضت المياه، فذهبت المرأة، وقصت الرؤيا على جيرانها، فقاموا ومضوا جميعًا تجاه الشرق، غير أنهم ما كادوا يمشون بعض الطريق حتى التفتوا وراءهم، فغمرتهم المياه، وأغرقتهم عن آخرهم، لم تغادر منهم أحدًا، وجرى القضاء على أم «آيين» بأن تتحول إلى شجرة توت (باطنها خواء)؛ وحدث أن فتاة من آل «شين» كانت تقطف ثمرات التوت، فوجدت طفلًا بباطن الشجرة، فأخذته واتخذت له اسم

«آيين»، وذهبت به إلى الملك، فدفعه إلى من سهروا على تنشئته، فلما بلغ سن الرشد، أظهر حكمة وفضلًا، وصار فيما بعد مقدمًا شريفًا، حتى إنه تولى منصب رئيس الوزراء وأصبح مستشارًا للملك «طان» آل شانغ (أحد ملوك أسرة شانغ).

[واستطرادًا في الكلام عن تحول الفصائل والأجناس الطبيعية …] ففي المناطق الرطبة تنمو حشرة «جو شاو»؛ وتتخلَّق ذبابة «ميمنغ» في كل ما اختمر من الخمر، وإذا ما تم تهجين شتلات البامبو من فصيلة «يانشي»، بأخرى من فصائل «البوصون»، تشابكت في أعقابهما العناصر واختلطت الخصائص.

ومن البامبو الذي شاخت أغصانه، تولد حشرات «تشي نين»، ومن هذه الضئيلة يُولد الفهد، ومن الفهود تطلع الأفراس، ومن الأفراس الإنسان؛ وكم مر على الإنسان زمان صار بعده إلى حال مكتنف بالغموض، لا يعرف فيه موت ولا حياة؛ فالكل آتٍ من هذا الحال الطلسمي، وإلى هذا الحال، في آخر الأمر، يئول المعاد.»

[٥]

جاء في كتاب «هواندي»، ما نصه: «إذا ما تحركت الأشكال، انعكست عنها الظلال؛ وإذا ما هاجت الأوتار، تردد الصدى (فالناتج هو الأصداء، لا الأصوات نفسها)، وإذا ما دارت دائرة العدم، ظهر الوجود، فليس يجيء من العدم مثال ذاته.»

كل الأشكال، لا محالة، إلى فناء، فهل تفنى السماء والأرض؟ (أجل)؛ فلها مثل ما لنا من انتهاء، لكن، هل لهذا الانتهاء زمن معلوم؟ كلا، فذلك مما لا تُعلم حقيقته.

للطاو نهاية، لكنها من دون بداية، وهو إلى محو وزوال رسم، من دون سابق وجود. لكل وجود حي عَوْد إلى حال ما قبل الحياة، ولكل ذي شكل رجوع إلى ما قبل التشكل. قد يكون ثمة مواتٍ أدركت أوائله الحياة، أو يكون محض فراغ وخيال بعد ملاء وانشغال.

قد جرى القضاء بأحكام طبيعة الأشياء، أن تفنى كل حياة، فلا مفر لما كُتب عليه المحو أن يئول إلى الفناء، مثلما جرى الحتم أن يولد ميلاد حياة، فإذا نشأ الظن أن تخلد حياة أبد الآباد، فهو دليل على الجهل بسنن الطبيعة.

إن الروح من أمر السماء، أما الهيئة والشكل المتجسد فمن أمر الأرض، ثم إن الروح التي من شأن السماء معدنها أنقى وأطهر، فهي ذات طبع أثيري، لكن الشكل المتجسد متكاثف العنصر، مشوب بالكدر، فالروح والجسد متمايزان؛ وإذ يفترقان يعود كل منهما إلى أصيل طبعه، [حرفيًّا: إلى فراغ الكهف الكوني]، فمِن ثَم، أُطلق عليه اسم «كويي»،

الذي يعني في الأصل، الرجوع إلى حدود الفراغ الكوني، واسع المدى، وقد قال «هواندي»: «إذ تعود الروح من الباب العمائي الذي جاءت منه، وترجع العظام إلى منبتها، فما يبقى للذات وقد تبددت الروح وانسحقت العظام والأجساد!»

[٦]

أربع مراحلَ يمر بها الإنسان، من لحظةِ ميلاده إلى ساعة وفاته: الطفولة، والشباب، والشيخوخة، والممات؛ ففي الطفولة تتبدَّى طاقة الإنسان بكل تركيز وكثافة، ويصير الجسد، روحًا وعقلًا كيانًا متآلفًا متناغمًا كالطبيعة، مطوَّقًا بالأمن والأمان ضد كل خطر، ويبلغ النقاء مبلغًا لا تضارعه كل مستويات الخلق الرفيع؛ وفي سِني الشباب يفيض القلب حماسةً وفتوة، ويصير الباطن مفعمًا بكل غريزة واشتهاء، وتجتاح الإنسان — عبر حواسه — كلُّ النوازع والرغبات، فمِن ثَم تتراجع عنده الفضيلة والأخلاق، وفي مرحلة الشيخوخة تذوي النوازع ويضعف الجسد وتعجز الغواية أن تؤتي ثمارها، ورغم استحالة العودة إلى تمام براءة سني الحياة الأولى، إلا أن ما تبلغه الكهولة من النضج والاتزان يفوق مبلغ احترام المرء في زمن الشباب؛ وإذ يرد وارد الموت، تثوي الأجساد في سكينة، ثم الرجوع إلى غاية المنتهى، التي لا مفر عن بلوغ حدها.

[٧]

التقى كونفوشيوس أثناء تجواله بجبل «طاي»، عند تخوم منطقة «شنغدي»، بأحد الزهاد ممن يجوبون القفار، ويُدعى «سون شيتشي»، وكانت عليه ثياب خشنة وقميص من جلد الأيائل، وقد تمنطق بحبل غليظ حول وسطه وراح يضرب بالمعزف، وهو يغني، فباغته كونفوشيوس، وسأله قائلًا: «فيمَ غناؤك ومرحك وأنت على هذه الحال؟» فأجابه الرجل، قائلًا: «عندي من الأسباب ما لا يعد ولا يحصى، فانظر — مثلًا — إلى السماء وقد أوجدت هذا الوجود الكبير، وأهدت للإنسان مكانة عظمى، فمن دواعي سعادتي أني أحد بني الإنسان الذي نال تكريمًا لا مزيد عليه، وبالإضافة إلى ذلك، فقد وجدت أن البشر أبناء ذكر وأنثى، وأن الذكر يفضل الأنثى، فرضيت أني ممن أُعطوا درجة فضلى، فاغتبطت لذلك؛ ثم إني قد عشت ورأيت من الأجنة ما تلفظه الأرحام قبل أن يتنسم نسمة حياة، ومن المواليد من يلفظ أنفاسه وهو بعد في الرضاعة، فكنت أسعد حظًّا؛ إذ عشت ما يربو على التسعين

عامًا، فهذا ثالث أسباب سعادتي، ثم إني تأملت الناس فوجدت أغلب أهل العلم فقراء، وأن مآل الجميع إلى الموت، إن آجلًا أو عاجلًا، فوطنت نفسي على الرضا بفقر العلماء، ورضيت بالبقاء أملًا في ملاقاة الموت الذي لا محيد عنه، فكيف ينزل بي السخط، ولماذا يشتط بي الحزن والقلق؟» فهنالك قال كونفوشيوس: «لا بأس إذن، فهذا رجل يعرف كيف يواسي نفسه!»

[٨]

كان «لين لي» [أحد أشهر الزهاد، في العصر القديم]، قد بلغ المائة من عمره، ورغم ذلك؛ فقد قام ذات صباح، إلى الحقول وهو يرتدي قميصًا خشنًا من الجلد، وراح يلتقط ما تبقى من حصاد القمح بين المزارع، وصار يجدُّ في سيره وهو يشدو بالغناء، وتصادف، في تلك الأثناء، أن كان كونفوشيوس مارًّا وسط الحقول، في طريق سفره إلى دولة «ويه»، في ذلك الزمان، فلما رأى «لين لي» على هذه الحال، استدار إلى تلاميذه، قائلًا لهم: «انظروا إلى ذلك الشيخ الذي يجمع الحطب وفضلات السنابل، من منكم على استعداد لأن يذهب إليه ويحادثه؟» فانبرى «تسيكون» من بين الجميع يريد أن يبادر إلى الحيث معه، ثم إنه دنا منه، وقال له: «فيمَ يمضي شيخ مثلك على هذا النحو وهو يشدو بالغناء ويلتقط السنابل، تُرى أأنت نادم على شيء فعلته؟ [كذا]»، ولم يكترث له لين لي، بل مضى في طريقه وهو يواصل الغناء، فألح عليه تسيكون، وما زال به حتى التفت إليه، قائلًا: «ولماذا يجب أن يكون هناك ما أندم عليه؟» فقال له تسيكون: «ربما تكون قد أضعت أيام شبابك بغير جد ودأب، أو أمضيت سني فتوتك بغير طموح، فأدركتك الشيخوخة، وليس لك زوجة ولا ولد، والأغرب أنك برغم ما كاد أن ينتهي من عمرك، فما زلت تمرح وتغني، بل إنك تمضي وسط المزارع تلتقط فضالة الحصاد.» فضحك الشيخ، وهو يجيبه قائلًا: «وما الذي يدعو إلى الدهشة من شعوري بالمرح، هذا أمر يستطيع أي واحد من الناس أن يجربه مثلي، ومع ذلك فما أكثر الاستغراب من أحوالي، وعمومًا، فإذا كنت قد أضعت أيام شبابي متكاسلًا بغير كد، وأفنيت فتوتي بغير طموح، فقد كان ذلك تحديدًا، هو السبب في أني عشت عمرًا طويلًا. ولئن كنت لم أتخذ زوجة وليس لي ولد، فقد حان وقت ذهابي وفناء عمري، وليس ورائي ما يثير جزعي؛ فلذلك طابت أيامي بغير كدر.» فقال له تسيكون: «الناس جميعًا يأملون في العمر الطويل مثلما يبغضون الموت العاجل، فما الذي يجعلك مستبشرًا بلقاء الموت هكذا؟» فأجابه لين لي قائلًا: «إنما الموت والحياة كمثل شيء يطالعك بوجهه، ثم يدير

لك ظهره، ويعود من حيث جاء، في عاجل الحال، فإذا كنت قد عرفت أن ثمة موتًا، فلم يغب عني إحساسي بالحياة؛ ولما كنت قد أدركت أن الحياة والموت مختلفان، فكيف لي الوثوق بأن تشبث المرء بالبقاء حيًّا، أطول فترة ممكنة، يحول دون شعوره بالحيرة والقلق؟ وأنى لي أن أعرف إذا كان موتي العاجل أفضل من ميلادي في سالف الأيام؟» وتأمل تسيكون كلام الشيخ، لكنه لم يفهم معناه، فعاد إلى كونفوشيوس (وأخبره بما سمعه من الرجل، فرد عليه الشيخ الأكبر قائلًا: ...) «قد عرفت أن لدى الرجل ما يجدر بك أن تسمعه، لكن يبدو أنه يفتقد إلى المنطق الواضح والحجة القوية.»

[٩]

فترت همة تسيكون عن تحصيل العلوم، وعافت نفسه الدراسة، فحكى لأستاذه (كونفوشيوس) ما حل به قائلًا: «يبدو أني في حاجة إلى الاستجمام والراحة.» فأجابه، قائلًا: «ليس للإنسان سبيل إلى الراحة.» فقال تسيكون: «أيقضي طالب العلم حياته، دون أن يعرف مكانًا لراحته؟» فأجابه كونفوشيوس، قائلًا: «ثمة أماكن كثيرة — إذا أردت — للراحة، فانظر إلى القبور مثلًا، وتأمل الجبَّانات الكبيرة المتكومة والمدافن المستديرة البارزة فوق الأرض، إنها أشبه شيء بأوعية القرابين وأواني الطقوس الكبيرة، التي تراها متناثرة ومقلوبة فوق الأرض، فتلك هي الأماكن التي يمكن أن تجد لك من بينها موطئًا للراحة.» فقال له تسيكون: «إنما الموت هو المشار إليه، حيث يجد النبيل الراحة بعد عناء، ويجد الذليل مضطجعًا للرقاد.» فرد عليه كونفوشيوس، قال: «قد وعيت المعنى، إذن، فالناس جميعًا يدركون ما للحياة من بهجة، ويتناسون ما تمتلئ به من بؤس وشقاء، وكلهم يدركون ما في الشيخوخة من ضعف، دون أن يتأملوا ما فيها من الهدوء والسلام؛ وما من فرد إلا يعرف ما يثيره معنى الموت من نفور، دون الالتفات إلى ما ينطوي عليه من معاني الراحة والسكينة؛ ومما يؤثر عن الفاضل الحكيم يانزي [أحد رجال الحكم في الممالك القديمة]، ما قاله ذات مرة، مما نصه: «الموت حقيقة أزلية، وليس بعد الموت سوى امرئ فاضل يرقد في سلام، أو وضيع دنيء يضطجع وسط التراب.» فالموت مآل لا محيد عنه للناس كافة، وقد كان يقال للموتى، فيما مضى من الزمان الغابر، «العائدون»؛ ولما كان الموتى هم العائدون، فلا بد أن يكون الموتى هم السائرون، أما المتسكعون في الطرقات، والتائهون الذين لا يعرفون طريق الرجوع، فأولئك هم المشردون الذين انتبذوا الأهل والديار، ومثل كل المشردين الغافلين عن بيوتهم وأهلهم، فهم موضع لوم وانتقاد

الناس في كل مكان؛ لكن ما ظنك بالمجتمع كله، بل الدنيا بأسرها، إذا كان الجميع قد نبذ بيته وتنكر لأهله مفضلًا أن يهيم على وجهه في الأزقة والحارات، دون أن يدرك أي فرد منهم أنه مخطئ!

إن من الناس من يرحل عن وطنه ويودع أهله وينبذ ما كان يحترفه من أعمال ليتجول متسكعًا في البراري على غير هدًى، فأي صنف من الناس هذا؟ لعلهم من جرى عليهم الوصف بين الجميع، بأنهم الشاردون، وهناك نفر آخر يبذلون كل جهد ممكن بما أوتوا من مهارة أو فن أو علم من العلوم؛ لكي يرتفعوا بأنفسهم ومجتمعاتهم إلى مصاف التطور، وهؤلاء لا يدعون فرصة إلا كشفوا فيها عن مواهبهم مختالين بما حققوا من مجد، فأي صنف من الناس هم؟ لا بد أنهم الحكماء وذوو المهارة والاقتدار. وأقول لك إن كلا الصنفين باطل، برغم ما قد يشيع بين الناس أن أولئك المجتهدين العباقرة هم الصلحاء وأن الآخرين المتسكعين هم الفاسدون؛ وأرى أن الحكماء والقديسين هم وحدهم الذين يملكون تقدير أي الصنفين أجدر بالتمجيد والثناء، وأيهم أحق بالتنديد والاستخذاء.»

[١٠]

ذهب إلى ليتزو، من قال له: «ما لي أراك تصرف كل اهتمامك للعدم (الخواء)؟» فأجابه قائلًا: «في البدء كان العدم، ولم يكن هناك ما يستحق أي اهتمام.» ثم أضاف قائلًا: «(اعلم أنه ...) قد يستطيع المرء أن ينفي الأسماء وينكر الوجود، لكن لا شيء أعظم من الوثوق في «العدم»، وصرف الاهتمام كله إلى [اللاشيء]؛ لأنهما يحوزان المكانة الصحيحة دائمًا؛ واعلم أن الأخذ أو العطاء، أو الحصول على الأشياء أو إعطائها للآخرين، لا يقومان على قاعدة سليمة وملائمة، (فانظر، مثلًا، إذا ...) انهدم شيء أو أصابه التلف، فإنك تجهد نفسك في محاولة تفسير هذا الهدم أو الفساد، وتعليل أسبابه ودواعيه؛ لكن يظل ماثلًا أمام كل عين استحالة رجوع الأشياء إلى مبتدأ حالها (قبل أن تنصدع).»

[١١]

قال يوشيون [أحد معلمي الملوك، في زمن أسرة تشو ٧٧٠–٢٢١ق.م.]: «الكون في حركة دائبة وصيرورة من التغير لا تتوقف أبدًا؛ فالأرض والسماء تتحركان في دوران غير ملحوظ، فمثل هذه الحركة الدائبة تحدث، وليس من شاهد عيان (فمن هنا، كان ثمة تكامل بين الأشياء ...) ذلك أن ما فُقد في ناحية، قد تم الفوز به في ناحية أخرى؛ وما صنعته يد الصانع

هنا، استهلكته نوازع التبديد هناك؛ فالفقد والفوز؛ والتوفير والتبديد، كلها تنشأ وتفنى في كل وقت، وفي أي زمان. إن التقدم والتقهقر مرتبطان، وليس من يقف على اللحظة الفاصلة بين حركتهما المتعاقبتين ودورانهما المتصل بغير انقطاع. هل هناك من يمكنه الزعم بغير ذلك؟ إن أي طاقة حيوية، عرضة للتغير، لكن بغير طفرة مفاجئة، ولا كان أي شكل متجسد يتعرض للاستهلاك على نحو طارئ، فثمة تبدُّل يلحق بأي طاقة حيوية وأي كيان ملموس، لكن من دون عوارض أو ظواهر طارئة، ثم إن الإنسان نفسه، جزء من هذه القاعدة، فهو منذ ساعة ميلاده إلى أوان ضعفه وشيخوخته، تلحقه في كل لحظة عوارض التغيير؛ في ملامح وجهه، ولون الجلد، والطاقة الذهنية، وهيئته العامة؛ فأنت تجد مثلًا، أن أظافره وشعر رأسه وجلد أطرافه، تنمو وتسقط، من وقت إلى آخر، دون أن تثبت على الحال الذي ولد به الإنسان في طفولته الباكرة، غير أن مراحل القبول والتغير المتعاقبة أدق من أن يلحظها أحد أثناء سيرورتها الدائبة، بل هي تتبدى، آخر المطاف، كخلاصة إجمالية، يمكن ملاحظتها، بشكل ملموس، في المحصلة الأخيرة. بيد أن هذه القيمة تنكشف بوضوح، في لحظة مفاجئة، في حين أنها كانت، طوال الوقت، في تبدُّل مستمر، لا يتوقف أبدًا.»

[١٢]

كان في دولة «تشيه» [إحدى الدويلات القديمة] رجل يتصور أشياء مفزعة، (من ذلك أنه ...) صار يخشى أن تسقط فوقه السماء، أو أن تميد به الأرض، واستولى عليه ذلك الشعور، حتى صار من الصعب عليه أن يستقر في مكان، أو أن تنام له عين أو يهنأ بطعام أو شراب، واحتار الناس في شأنه، ولم يدرِ أحد ماذا يصنع له؛ ليريحه من هذا العناء، وذهب إليه مَن تكلم معه، قائلًا: «ليست السماء سوى هواء متكاثف، فالكون كله عبارة عن بخار، ولا يكاد يخلو موضع منه، أنت نفسك إذا قمت أو جلست أو تنفَّست شهيقًا وزفيرًا، أو قمت بأي مجهود، فستجد أن الهواء حولك في كل مكان؛ أي إنك تعيش وسط هذا الكون الكبير الذي تكاثف فيه البخار، فما الذي يمكن أن يسقط فوقك، إذن (سوى الهواء)؟» فقال له المريض: «قد تكون السماء (كما تقول) مجرد بخار متكاثف، لكن أليست هناك مجرات ونجوم وأقمار يمكن أن تسقط فوق رءوسنا؟» فهدَّأ زائره من روعه قائلًا له: «ليست الأقمار والمجرات سوى بخار متجمد أيضًا، الفرق الوحيد هو أن البخار، في هذه الحال، يشع ضوءًا، (لا أكثر ولا أقل)، ولا أظن أن النور إذا وقع من علٍ،

يمكن أن يمس أحدًا بسوء.» فقال له الرجل المضطرب: «فماذا إذا مادت بي الأرض؟» فأجابه الزائر، قال: «الأرض عبارة عن كتل من صخر ورمال يلتصق بعضها ببعض، وهي ممتدة في كل اتجاه، وكل ناحية على هيئة واحدة، فما من موضع إلا كان ممتلئًا بالصخور والرمال، وها هي الناس تخطو وتمشي وتقفز وترقص طوال اليوم على الأرض، دون أدنى خطر، فكيف تخشى أن تميد بك الأرض؟» فانفرج كرب الرجل، وتهلل فرحًا، وانزاحت أثقال رزحت على قلب الزائر المستنير، الذي اغتبط أيضًا، بما وصل إليه الحال. وبلغت هذه الحكاية مسامع الشيخ «لو تزي» [أحد أتباع الفلسفة الطاوية] فضحك، قائلًا: «لكن السماء، أيضًا، تشكلت من قوس قزح وسحاب وضباب وأمطار ورياح وفصول أربعة؛ وكلها عبارة عن بخار متكاثف، مثلما تكوَّنت الأرض من جماد كالجبال والتلال والبحار والمعادن والأخشاب، فإذا كان الأمر على هذا النحو، فكيف يمكن الزعم بأن الأرض والسماء ليستا مفزعتين؟ إن الأرض والسماء، كلتيهما، عبارة عن مواد دقيقة بلا حصر، تملأ الفراغ الكوني الكبير، بل هي الكون الكبير، نفسه، ولطالما عجز الإنسان عن أن يسبر أغوار الكون بأرضه وسمائه، وأن يقف على كنهه، أو أن يستدل منه على شيء أو حتى أن يجيد فهمه ومعرفة دقيق أحواله، فإذا انتابنا الخوف من أن ينهدم الكون فوق رءوسنا، فهو هاجس متجاوز حدود المعقول، وإذا قدرنا أنه لن ينهدم، فهذا تقدير خاطئ كذلك؛ فليس هناك ما يمنع الأرض والسماء من أن تثير جزعنا، فإذا أدركنا ذلك، كان من الطبيعي أن ينتابنا شيء من القلق.» وبلغ هذا القول مسامع الحكيم ليتزو، فابتسم، قائلًا: «إن القول بأن الكون على خير ما يرام، يدل على تهافت الرأي؛ كما أن القول بأن الأرض والسماء جديرتان بإثارة الفزع، يُعد ضربًا من السذاجة المفرطة والرأي الفطير؛ فلسنا نجد وسيلة لمعرفة ما إذا كانتا على هذا النحو أو ذاك، (وهكذا)، فسواء صدقنا أنهما طيبتان أم مفزعتان، فالأمر على السواء في الحالين، وعلى ذلك؛ فالأحياء يجهلون أمر الموتى، ولا بد أن من فاضت أرواحهم لم يعودوا يدركون شيئًا عن الأحياء، كما أن الشاهد لن يدرك حال الغائب، مثلما أن الغائب لن يعرف شيئًا من أمر الشاهد، [حرفيًّا: الوقت الحالي لن يدرك الزمان الآتي، والزمن القادم سيكون مقطوع الصلة بالوقت الراهن] فما الذي يدعونا، دائمًا إلى الاكتراث لقسمة الأشياء بين ما هو طيب أو خبيث؛ بين ما هو مثير للفزع أو للأمن والطمأنينة؟»

[١٣]

كان الملك الحكيم «شون» قد سأل وزيره، قائلًا: «هل يمكن للمرء حقًّا، أن يحوز الـ «طاو» حيازته لسائر الأشياء الثمينة؟» فأجابه، قائلًا: «إذا كنت لا تكاد تملك جسدك، الذي تحيا

به، فكيف تستطيع أن تفرض سطوتك على الطاو وتضيفه إلى حيازتك؟» فسأله الملك الحكيم: «إذا كنت لا أملك جسدي، فمن يملكه إذن؟» فأجابه: «إن السماء هي التي منحت جسدك هذه الهيئة التي تبدو عليها، ولم يكن ميلادك شيئًا تحوزه يداك، بل كان منحة تفضلت عليك بها السماء عن طيب خاطر، ولا كانت حياتك مما تختزنه في خزائن ملكك، بل كانت هدية سعيدة أهدتك السماء إياها، ثم إن أولادك وأحفادك ليسوا ملك يمينك، بل هم أجيال الأرض، منحتك السماء إياهم ليتجدد وجودك؛ فلذلك كان المرء يمشي دون أن يعرف الغاية، ويسكن الديار دون أن يعرف متى ينتهي به المقام، وتتوق نفسه إلى لذة الطعام والشراب، ولا يدري متى وكيف يجد طعامه، فالسماء والأرض تتعاقبان الدوران، دائمًا أبدًا، فذلك هو طبع الأثير، ولا أدري كيف يمكن للمرء أن يملك الطاو؟»

[١٤]

كان في دولة «تشي» رجل يدعى «كو»، وكان قد بلغ من الغنى واليسار مبلغًا لا مزيد عليه، في حين كان رجل آخر من مواطني دولة «سونغ»، يُدعى «شيان» يعيش في فقر مدقع، وحدث أنه قام وارتحل إلى دولة تشي، والتقى بالآخر الغني، وسأله عن الطريقة التي يسَّرت له الحصول على كل هذه الثروة الطائلة، فأجابه بقوله: «أقول لك الحق، إنه ما كان يتيسر لي شيء من هذا إلا لأني لص بارع اللصوصية، وكنت في أول أمري قد قنعت بما حصلت عليه بعد عام واحد، ورضيت بما صار عندي، ثم إذا بي، بعد سنتين أكتشف أن ثروتي قد تضاعفت، ولم تكد تمضي ثلاث سنوات حتى كنت قد بلغت حد الترف، فصرت أتبرع بالعطايا لجيراني وأهالي الحي.» واستغرب «شيان» مما سمعه، لكنه انتشى بالفرحة العارمة، ويبدو أنه فهم معنى كلمة «اللصوصية» على نحو ما، وبطريقة أوحت إليه أن يتصرف كما يحلو له؛ فإذا به وقد انغمس في أنشطة إجرامية بالغة الخطورة، بعد أن راح يقفز فوق الجدران ويثقب الحيطان، ويدخل البيوت من غير أبوابها، طوال الوقت، ثم لم يلبث أن صار يسرق كل ما وقع تحت يديه، بل كل ما وقع تحت ناظريه، ولم ينقضِ زمن طويل حتى اكتشف أمره ووقع تحت طائلة القانون ونال جزاءه، وبالطبع فقد تمت مصادرة كل ما اجتهد في تخزينه من مسروقات، وراح يتأمل الأمر، وظن أن صاحبه «كو»، ذلك الثري المقيم بدولة «تشي» قد خدعه بما حكاه له، فلما أُتيحت له فرصة اللقاء به، فيما بعد، ابتدره باللوم على ما أوهمه به، إلا أن السيد «كو» أنحى عليه باللائمة، قائلًا: «كيف تسطو على ممتلكات الناس؟ ومن قال لك أن تسلك هذا الطريق الإجرامي؟» فحكى

له شيان كل ما وقع منه بالتفصيل، وبكل صراحة، فما كان من «كو» إلا أن قال له: «يا للأسف، يبدو أنك فهمت السرقة بمعنى شديد الخطورة حتى وصل بك الحد إلى اقتراف أبشع الجرائم، والآن، اسمح لي أن أحكي لك الموضوع، من وجهة نظري، وكما تصرفت أنا شخصيًّا، في سلوكي العام، طوال حياتي؛ إذ إني كنت قد سمعت أن الفصول الأربعة والأرض الخصبة مليئة بالخيرات، فتصورت أن الموارد التي تأتي بها الطبيعة شيئا مشاعًا، ومن هنا، نشأت فكرة السرقة عندي بهذا المعنى، وقررت أن أستولي على الخيرات التي تمنحها الفصول الأربعة لكل الناس، فالمطر يسقط ومعه الخير، وكذلك تموج البحيرات في باطنها بكل ما لذ وطاب، فقررت أن آخذ لنفسي من مائها لأرض أزرعها، فلما نما الزرع كان الحصاد وفيرًا، ثم إني بنيت الأسوار حول الأرض وشيدت الجدران، وأنشأت لنفسي البيوت والقصور، ثم وجدت الطير والوحوش سائمة في البرية، فاستوليت عليها بالقنص، وفرضت سطوتي، حتى على السلاحف والأسماك التي في جوف الماء، اعتبرتها ملكًا لي، فاستوليت عليها وتصرفت فيها بملء إرادتي، لم أدع شيئًا من خيرات الأرض إلا وضعت يدي عليه: المزارع، الأخشاب، الأسماك؛ وهي كلها من عطاء الطبيعة، فكيف لي أن أدعي ملكيتها الشخصية؟ وعلى أية حال، فإن استيلائي على هذه الثمرات التي من ناتج الطبيعة، لم يوقعني في أي مأزق، لكن كان يجب عليك أن تدرك جيدًا أن المجوهرات والذهب والأحجار الكريمة والحرير، وغير ذلك من الممتلكات الثمينة هي أشياء تخص الآخرين وجزء من أملاكهم، وليست هبة أو منحة من الطبيعة! وبالطبع، فإن استيلاءك على تلك الأشياء هو السبب في اعتبارك مجرمًا، ومِن ثَم لحقت بك العقوبة، أليس كذلك؟» أنصت «شيان» لكل هذا الكلام، ودارت رأسه ولم يفهم شيئًا، بل ترسخ لديه الظن بأن «كو» هذا، محتال داهية، لا يعدم وسيلة للضحك عليه والسخرية منه، فقام وتوجه إلى السيد الحكيم «تونقو»، عساه يستفيد شيئًا من نصائحه، وكان أن قال له الفيلسوف الحكيم: «أستطيع أن أقول لك إن كل ذرة في كيانك هي ناتج الاستيلاء والسرقة ... تأمل معي ... ألم يكن ميلادك نتيجة نوع ما من الاستلاب مما يقع بين الذكر والأنثى، ألم يتشكل جسدك كله وملامحك من جراء عملية سطو بالغة السرية والخفاء بين رجل وامرأة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما بالك بكل الأشياء التي تقع خارج جسمك ... وأظنك تقول إنها كلها نواتج سرقة كبيرة! ولا بد أنك تتفق معي في أن الأرض والسماء وكل ما بينهما مترابط، على نحو ما، فإذا بدا لك أن كل الموجودات الطبيعية يمكن أن يتم الاستحواذ عليها بصفتها ملكية شخصية، فهذا كلام غريب، وهذيان سخيف لا معنى له؛ فالمنطق الذي يقود ذلك المدعو «كو» يقوم على قاعدة بديهية مفهومة لدى الجميع؛ لذلك فلم يتعرض للتأثيم ولم يجر

عليه اتهام بالسرقة، لكن ما قمت به أنت كان فيه اعتداء على ممتلكات شخصية، ومِن ثَم استوجبت التجريم، وعمومًا فإن أي منطق يحض على السرقة، سواء أكانت لأشياء طبيعية أم لممتلكات شخصية لا يحول دون اعتبارها جميعًا عملًا من أعمال اللصوصية، مهما كانت الحجة وسواء كان المسلوب عامًّا أو خاصًّا، فكل ذلك جزء من معنى السطو والسرقة (وأعود فأقول لك ...) إن كل الأشياء، بما فيها الخاص والعام، ملك للسماء والأرض، وليس للإنسان في الأمر كله أي شيء، وما دام الأمر كذلك، وما دامت الأشياء كلها ملك للكون، ففيمَ الجدل حول ما إذا كانت تلك سرقة أو أن ذاك الرجل لص؟»

الباب الثاني

هواندي[1]

皇 帝

(الإمبراطور)

[١]

اعتلى هواندي العرش خمسة عشر عامًا، وقد تهلل بالبشر؛ إذ حظي بتأييد أهل الممالك جميعًا، فلما صار صولجان الملك بيمينه، تنعم بألوان الترف، وجعل كل همه أن يتمتع بصحة جيدة، وأخذ من كل متعة بنصيب؛ فأصاب من المشاهد أبدعها لمرأى العين، وشنف آذانه بما تطرب له الأسماع، وتنسم أذكى العبير، وتذوق ألذ الطعام؛ غير أنه، وبرغم كل ذلك تلبسته الحيرة، وشحب وجهه وتحيرت أفكاره [حرفيًّا: اضطربت حواسه الخمس، وهي كلمة تفيد معنى الحواس، أو معنى «القدرات الخمس»، حسب الاصطلاح البوذي، وهي: السعادة، الغضب، الحزن، السرور، الضجر]، وطالت مدة حكمه خمسة عشر عامًا أخرى، دون أن يبلغ ما كان يرجو من إصلاح أحوال الممالك، رغم أنه شحذ كل طاقته [حرفيًّا: بذل السمع والبصر جميعًا] وبذل كل عبقريته وحكمته، إلا أن شيئًا من المأمول لم يتحقق، فبقي الوجه شاحبًا، والملامح ذابلة، والعقل ذاهلًا متحيرًا، حتى لم يتمالك

[1] يتناول هذا الفصل، تحت عنوان «هواندي»، الشروط الأساسية التي تتحكم في تحصيل «المعرفة التامة» و«الإلمام الشامل» بالحقائق، حيث يتحد باطن المرء وظاهره معًا، في محاولة لتلقي ما يرد من عالم الوقائع على الإنسان من تجليات معرفية؛ وتحتوي نصوص هذا الباب على تسع عشرة حكاية خرافية.

إلا أن يحدث نفسه متحسرًا أسيان، وهو يقول: «لا بد أني اقترفت خطأً جسيمًا؛ لدرجة أني لم أفلح في الحفاظ على صحتي، أو حتى في تصريف شئون الممالك، بنجاح واقتدار، فبلغت الكوارث حدًّا مهولًا، سواء فيما يتعلق بي، شخصيًّا، أو في الشأن العام.» ثم إنه قرر أمرًا بينه وبين نفسه، وكان ألقى وراء ظهره بأعباء الحكم ومشاغله، وشئون البلاد وإدارتها، وغادر أروقة القصر والفُرش الوثيرة وصرف الخدم والحاشية ونزع الأجراس المعلقة، وشارات الأبهة الملكية، ورغب عن لذيذ الطعام، بل غادر القصر ونزل ليقيم في أبسط الغرف الملحقة بالأبنية غير الملكية، فهدأت نفسه وصفا ذهنه، واستقام له أمر جسده [كذا، حرفيًّا؛ باعتبار أنه اقتصد في المأكل، حتى انصاع الجسد لأمارات الصحة والعافية]، وأقام على ذلك ثلاثة أشهر، نأى فيها بنفسه عن شئون الحكم والممالك، حتى كان ذات نهار، تراءى له فيه أحد الأحلام، وإذا هو قد طاف به طائف الروح إلى مملكة «هواشيو» [بلد في الخيال]، وكانت تقع إلى الغرب من أرض «يان»، وإلى الشمال من بلد «تايجو» ... ولا تسل عن المسافة التي تفصلها عن أرض الصين، فربما قد بعدت عنها المسافات الطوال وتناءى بها المدى؛ حتى لقد تقصد عن بلوغها السفائن والبحار، والمواكب السائرة في الدروب، والمرتحلة في الفلوات والقفار، فهي بلد تكاد لا تبلغها إلا الروح التي سبحت في خيالات المنام [حرفيًّا: «خون»، أي: الروح الأثيري الذي هو جزء من النفس التي باتت تغط في نوم عميق ... حسب المعتقدات الصينية القديمة]، حيث لا يقوم على شئون الناس ملك ولا رجال حكم؛ إذ الحكم هنالك لطبائع الأشياء، والتدبير كله موكول إلى ما قد سبق به القضاء المقضي، فليس بيد أحد قضاء أي شيء، وليس للناس مطمع ولا تطلعات ولا أماني؛ والكل مُصغٍ لهوى الطبيعة، فأولئك قوم يعيشون الحياة، فلا هم يفرحون بما آتاهم في الحياة ولا يجزعون للموت، ثم إن شيوخهم لا تهرم، وبراعمهم لا تنقصف، وقد صفت نفوسهم، وتجردت من محبة الذات، وتناءت مشاربهم عن مجافاة الناس؛ فمن ثم خلت مشاعرهم من الحب والكراهية، هذا بيد أنهم حُجبوا عن أن يسايروا الناس مسايرة الذل والاستكانة، أو أن يصدوهم صد الصلف والمعاندة، فسلموا من موبقات الضر، ومغانم كل منفعة، قد خلت قلوبهم من الود والبغض، ونقت سرائرهم من الريبة والخوف؛ لا تغمرهم بحار، ولا تحرقهم النار، لا تتقطع جلودهم مهما انغرست شفرات المُدى ونصال السكين، ولا إذا ألهبتهم سياط ندت عنهم نأمة أنين، محجوبون بسطوة الأمن عن كل الآلام، في منعة من السلام عن هول الكرب وكل فزع داهم، لا تخدشهم أظفار، ولا تنشب في أجسادهم مخالب الافتراس، وهم عن هذا وذاك

مستورون في حجب السكينة؛ يصعدون في الهواء، ويقتحمون قلب الريح، كأنهم يمشون في دروب الأرض ومسالكها، يتكئون على فرش مبسوطة في خلاء السماء، كأنهم يرقدون في مراقد وثيرة ممددة، لا تحجب أبصارهم كسف السحاب ولا غيوم الضباب، ولا يطن بأسماعهم دوي الرعود، أو جلجلة الصواعق، لا تزيغ قلوبهم بفتنة الجمال، ولا تضج نفوسهم من بشاعة القبح، يمضون على الدروب فلا تعوق خطواتهم شواهق الجبال، ولا تقوم دونهم التلال؛ ذلك أنهم يروحون ويجيئون، كما تعرج الأرواح في مسالكها … ثم استيقظ الإمبراطور من الحلم وهو منشرح الصدر، فاستدعى وزراءه الثلاثة: «تيان لاو»، و«ليمو»، و«تاي شانجي»، وقال لهم: «كنت قد تفرغت للراحة والاستجمام زمنًا، تهدئةً للنفس، وترويضًا للجسد … بالحرمان من ملاذ العيش لفترة طويلة، ورحت أفكر في طريقة سديدة لتصريف شئون الممالك، وتنمية طاقتي الذهنية والروحية، لكني لم أظفر بشيء مما ابتغيت، فلما بلغ مني الإرهاق مبلغه، غفوت قليلًا فرأيت في الحلم ما قد سلف، ثم إني قد وعيت الآن أن أفضل الطرق فيما تأملت، لا يمكن أن يكون هو التوسل بالحواس والإدراكات المباشرة؛ ذلك أن أنجح الوسائل جميعًا — حسبما تبدى لي — أمر آخر، ليس بإمكاني إخباركم به.» ثم انقضت ثمانية وعشرون عامًا، استقام بعدها أمر الممالك، وصارت أحوالها إلى حال شبيه بما كانت عليه الأمور في البلد المسمى بـ «هواشيو»، غير أن الإمبراطور كان قد صار إلى الروح الملائكي [كذا، حرفيًّا، بمعنى: وافاه الأجل المحتوم]، فحزن الناس عليه، وظلوا مائتي عام يتألمون حسرة على وفاته.

[٢]

في منتصف جزيرة «خايهي» ينتصب جبل «ليقوي»، ويقيم فوق قمة الجبل رجل (من أهل الخوارق والمعجزات) أنفاسه شذا الريح، وشرابه الطل والندى، لا يطعم شيئًا مما يأكل الناس [حرفيًّا: لا يقرب شيئًا من الحبوب الخمسة] قلبه كعين ماء صافية، وجهه كوجه عذراء في خدرها (لم يُدخل بها) قد احتجبت مشاعره عن الحب وعلائق الود؛ الملائكة والقديسون واقفون لديه يأتمرون بأمره [حرفيًّا: يقفون لديه موقف الخادم من سيده] لم يتسلط بالهيبة، ولا ندت عن ملامحه سيماء الغضب، بيد أنه في غنًى عن ذلك؛ لأن التابعين رهن إشارته من تلقاء أنفسهم؛ قد تنزه عن أن ينال مواهب الإحسان من أحد أو أن يتفضل بالعطاء أو المن على أحد؛ فلا هو يُعطي ولا يُعطى إليه؛ مأكله بيده لا بيد الناس؛ لم يجمع لديه ذخائر المال، ومع ذلك فلم تعوزه حاجة ولا شانه فقر.

قد طالما تآلف الـ «ين» والـ «يانغ»، ولطالما أشرق النور في الأوقات وتناغمت الفصول وجرت الريح والمطر بمقدار معلوم، والتأمت مواقيت الحرث والنسل، فما خالفت المحاصيل سنن الحصاد، ولا نزلت بالأرض جائحة وباء، ولا اختطفت يد الموت روحًا قبل الأوان. انسدل ستر وقاية فوق كل الموجودات، فلم تنزل بالأنحاء نازلة، ولم يتعبد لأشباح الشر عابد، ولا مد لها سماطًا أو قرَّب قربانًا.

[٣]

كان ليتزو قد تعلم على يد أستاذه «لاو شانغ»، واتخذ من «بو كاو تزو» صديقًا، وأُتيح له أن ينهل على أيديهما العلم والمعرفة، فلما أتم تحصيل العلم لديهما، ركب أجنحة الريح عائدًا إلى مسقط رأسه، فلما سمع «هينش» [أحد تلاميذ ليتزو] بقدومه، لحق به وصار يتبعه أينما ذهب، ثم أقام معه حتى طالت الأيام، دون أن يعود إلى أهله، ثم عنَّ له أن يتلقى العلم على يد ليتزو، فتقدم إليه راجيًا أن يعلمه شيئًا من العلوم، وألحف في الطلب عشر مرات، دون أن يستجيب له، فوقعت الحسرة في نفسه، واستأذنه في الانصراف إلى أهله، فلم يكترث ليتزو بالرد عليه، (فقام وعاد إلى بلده) ولم يكد يستقر هينش بين أهله عدة أشهر، حتى حدثته نفسه بأن الأمر لا يمكن أن ينتهي عند هذا الحد، فسعى مرة أخرى إلى ليتزو، حيث قال له الشيخ: «فيمَ ترددك ذهابًا وإيابًا، هكذا؟» فأجابه قائلًا: «إذا سمحت لي، أود أن أقول لك بأني تلميذك وتابعك، هذا أنا «تشانغداي» [هو نفسه «هينش»، بلقب آخر] كم وددت أن تعلمني شيئًا، وذكرت لك ذلك فيما سلف، فلم تكترث لي، فأسفت أشد الأسف، وتغيرت مشاعري نحوك، لكني الآن قد تجاوزت ما قد مضى، وزال عن النفس كدرها، فجئتك ثانية.» فقال له ليتزو: «كنت قد ظننت بك الفهم الراجح والقلب الذكي، لكني اكتشفت، الآن، أنك ضحل الفهم سقيم الوعي، فاجلس حتى أقص عليك طرفًا ممَّا كان بيني وبين أستاذي، وكيف استفدت منه العلم والمعرفة؛ فقد بقيت إلى جواره ثلاث سنوات أقوم على شئونه وأقضي له حوائجه، حتى صرت منه في منزلة الأخ والصديق، ولم أكن قد تأملت في قرارة نفسي، أصول الفكر ومبادئه [حرفيًّا: لم يدُرْ بذهني، قط، التفكير في ماهية الخير والشر] ولا نطق فمي بشيء حول ما ينبغي وما لا ينبغي [حرفيًّا: لم أتكلم عن النفع والخسارة والكسب والاكتساب] وبقيت هكذا، حتى ظل أستاذي غير مكترث بي، لا يكاد ينظر نحوي حتى ترتد نظراته عني، وبعد خمس سنوات أخرى، كنت قد بدأت أتأمل بعقلي ماهية الخير والشر ولهج لساني بالكلام عمَّا هو

نافع وضار؛ ثم إذا بأستاذي وقد انفرجت أساريره، ووثقت بي آماله، وكان أن انقضت سبع سنوات كاملة، صرت بعدها أطلق لتفكيري العنان، دون أن أتوقف كثيرًا عند تلك المبادئ السائدة في قلوب الناس وأذهانهم — حول ما هو صحيح وفاسد — ثم نطق مني ناطق الفكر، فلم ألهج بالحديث عمَّا ينفع أو يضر، فهنالك صار المعلم يجلسني إلى جواره، فارتفع بذل مقامي، وصرت لديه مبجلًا عظيم القدر، وبعد تسع سنوات كنت أروح وأغدو في ساحات الفكر، كيفما شئت، وطفق لساني يجول في كل وادٍ، فما عدت أتكلم أو أفكر فيما هو نافع وضار أو صحيح وسقيم، وما عاد يخطر لي الاهتمام بذلك، بل ما عدت أكترث إذا ما كان لاو شانغ أستاذي ومعلمي، أو ما إذا كان «كاو تزو»، صديقي وصاحبي؛ فقد تساوى ما في داخل هيكل الجسد مع ما يقع خارجه، وصار الأنا والآخر صنوين، ثم أصبحت العين تفعل فعل الأذنين، وأمست الأذنان والأنف تسعى جميعًا مسعًى واحدًا، وباتت الحواس كلها [حرفيًّا: الأنف والفم]، تتكامل أدوارها.

إنه ما إن تتكاثف الخواطر حتى تذوب الأجساد ويصير نسيج كل لحم وعظم شيئًا واحدًا، حتى يفقد الجسم ثقله، ولا يعود للبدن متكأ يستند إليه، فتمشي القدمان حسب اتجاه نسائم الريح، إن شرقًا وإن غربًا، تندفع في هبوب النسيم كأوراق شجر ذابلة، فهل كنت [حين ركبت الرياح] قد حملتني أجواؤها أم أنا الذي امتطيت ظهرها؟ ثم ها أنت ذا، لم تمكث سوى وقت أقل من القليل، وقد أصابك الضجر، فلا أظن أن نسمة هواء يمكن أن ترتفع ببدنك، ولا أظن أن الأرض تحوط بالعناية أطرافك، فهل ترى يمكنك أن تشق دروب الفضاء بأقدامك أو أن تسعى في الهواء على أجنحة الرياح؟» وعندئذٍ، شعر هينش، بعد أن سمع كلام أستاذه ببالغ الخزي، فأطبق فمه ولم ينبس بشيء، من حينئذٍ.

[٤]

كان ليتزو قد سأل كوانين، قائلًا: «إن أكثر الناس خلقًا، لا يغرقون في الماء مهما غطسوا في الأعماق، ولا تحرقهم النار وإن مكثوا فيها أوقاتًا، ولا ترتعش أوصالهم وإن ساروا فوق ذرى الجبال الشاهقة، فكيف بلغوا هذه المنزلة الشريفة؟» فأجابه: «إنما يكمن السبب فيما تمتعوا به من روح الإخلاص، وليس لعبقرية خارقة أو إرادة قوية، فاجلس دونك، وأنصت لي جيدًا.

فمن المعلوم بداهة أن الأشياء ذات شكل وملامح، (لكن تأمل، معي، هل ترى برغم ما تتسم به الأشكال كافة من عنصري الشكل والملامح ...) هل ثمة فرق كبير بين شيء

وآخر؟ ما الذي يجعل الأشياء تبدو وكأنها تملك قدرًا من التمايز والاختلاف؟ وأقول لك إنها الملامح والسيماء لا أكثر. إن أصل الأشياء جميعًا، يبدأ حيث لا شكل ولا مظهر، ثم إن نهاية كل الأشياء هي تلك الحالة التي تتوقف فيها عن التغيير. إن من يفقهون هذه المسألة، وينعمون النظر فيها، يوهبون المقدرة التامة على التدبر والعمل، دون أن تقف في طريقهم أية عقبات أو موانع. إن من يحيط بتلك الأمور علمًا، سيقف عند الحد الأنسب، ثم تدور به دائرة اكتمال النمط الأبدي، النمط الذي يسير به النظام الدائب في كل شيء، فيتحرك حركة بدء الموجودات ومنتهاها، ثم تثبت له طبيعة واحدة، وتدوم له دوام الطبع المعهود، فإذا حفظ على نفسه قوته وحيويته الذاتية، والتزم بالأخلاق سلوكًا ومبادئ، رسخت لديه (تلك الطبيعة) وصارت له سندًا في اكتناه حقيقة كل شيء.

وعندما يبلغ المرء هذه الدرجة، ترتقي طبيعته مرتقًى لا مزيد عليه، وتترقى إرادته وقوة روحه في مدارج الشرف الأسمى، والبهاء الأكمل، فمن ذا يستطيع أن يستلب منه ما اختص به من شكل وملامح؟ إن سكيرًا تزل به قدماه، وهو مترجِّل من عربة، سيقع على الأرض ويرض جسده وتدمى أعضاؤه، لكنه لن يفقد روحه. وبرغم أن أطرافه وعظامه وكل أعضاء جسمه تتطابق في تكوينها مع العناصر التي تتكون منها أجساد الناس جميعًا، فإن إصابته تقتصر عليه وحده؛ فالأطراف دامية، والبدن مرضوض؛ لكن الروح تامة والطاقة وافية وصحيحة، والرجل غائب عن الوعي بكل ذلك، سواء وهو في العربة، يتمايل من الثمالة، أم وهو يترجل ليسقط على الطريق، قد فرغ قلبه من مشاعر الخوف والقلق، ومعنى الحياة والموت؛ وبالتالي، فقد تلاشى خوفه من حادث السقوط المفاجئ، فإذا كان هذا حال سكير ذاهل عن الوعي، ارتطم بالأرض ولم يفقد روحه، فما بالك بمن حاز كمال الطبع وتمام القوة الطاهرة النقية؟ قد ائتلف القديسون بالسماء، فتآلفت بهم واجتمعت بهم كيانًا واحدًا، فهل يمسسهم شيء بضر؟»

[٥]

أراد «ليو كو» أن يستعرض أمام صاحبه «بو هن ماورن» شيئًا من مهارته في فن الرماية، فجذب القوس على استطالته، وتعمد أن يضع كوبًا مليئًا بالماء على مرفقه، وهو يرمي بالسهام، واحدًا في إثر الآخر، دون انقطاع، وهنالك بدا الرامي «ليوكو» كأنه دمية تتحرك بطريقة آلية [لا حياة فيها]، فنظر إليه صاحبه، وقال له: «تبدو، وأنت ترمي عن قوسك، كأنك تستعمل يدك الآلية، دون روحك المبدعة، الخلاقة فماذا لو صعدنا معًا إلى قمة جبل،

فوطئنا حافة الجرف، وتحتنا هاوية سحيقة، فهل تستطيع، حينئذٍ، أن تنظر إلى الأغوار من تحتك، وترمي عن القوس، كما تفعل الآن؟» ثم إن «بو هي ماورن» صعد إلى أعلى قمة فوق الجبل ومشى إلى حافة الجرف حتى أشرف على الغور السحيق الذي انغرست فيه رءوس الأحجار المدببة كرأس السكين، واستدار ثم عاد خطوتين حتى صار عند الحافة مباشرة، يكاد إذا مال إلى الخلف أن يسقط فيها، وطلب إلى ليوكو أن يتقدم، حتى يصير بمحاذاته، فإذا برفيقه الرامي ينبطح أرضًا، من الهلع، وقد غمر العرق جسده كله، فقال له بو هن ماورن: «إن أكرم الناس خلقًا، وأعظمهم مواهب وخصال، يملكون القدرة على استبصار آفاق السماء والتعمق في أسرار الأرض، وقد يذهبون إلى آخر المدى، لا يردهم خوف ولا تثنيهم المشاق، ولا تتبدل سيماهم ولا أفئدتهم، فما بالك وقد تملَّك الخوف منك، وتحجرت عيناك حتى برزتا عن مقلتيهما. إن بينك وبين فهم أسرار وفنون ومهارات الرماية شوطًا بعيدًا وبونًا شاسعًا جدًّا.»

[٦]

كان النبيل الماجد «فان» [أحد النبلاء بدولة جين، إحدى الممالك القديمة] من مشاهير الأعيان، في الزمن القديم، وكان له ولد يُدعى «تسيهوا»، وقد مال بكل مشاعره إلى الفروسية والنبالة، بكل معانيهما؛ حيث الإسراع إلى نجدة الضعفاء وحفظ عهود الصداقة[٢] فعرف الجميع له هذا الفضل، وأقروا له بالسيادة والشرف، وشمله جلالة الملك، حاكم دولة جين، بحبه وتقديره؛ حتى حظي بمكانة لا تدانيها سلطة كبار رجال الدولة [حرفيًّا: سلطة أعظم مما تقع تحت يد رجال القصر والممالك الثلاث: جاو، خان، وي] حتى إن الملك كان يسلم له بسلطة التقدير الصائب، فأنعم على من كان يراهم جديرين بالتكريم، وقرَّبهم إليه، واستبعد غير الأكْفاء، بل صار الناس يفدون إلى النبيل تسيهوا، وكأنهم ذاهبون إلى القصر الملكي، وكان يطلب إلى رفاقه من الفرسان النبلاء أن يتبارزوا في ساحات التنافس وأن يتناحروا في مباريات الذكاء والفروسية، حتى لو أدى ذلك إلى شنيع السباب والتشاتم بين الفائزين والمهزومين، ورغم حدة التنافس، وما كان ينجم؛ أحيانًا، من كدمات أو

---

[٢] في نسخة مترجمة إلى الإنكليزية (إعداد: Corina Berbecar) وردت هذه العبارة، بما يفيد معنى «إن الولد تسيهوا، كان يعشق الشعوذة والألعاب السحرية الغامضة» ... وليس في النص الصيني الأصلي ما يشير إلى هذا المعنى، ولا ظلاله، ولا أشباهه!

رضوض، فلم يكن أحد منهم يحمل أي ضغائن للآخر، في نهاية الشوط، وشيئًا فشيئًا، تحولت تلك المباريات إلى (مهرجانات) ومناسبات للهو والتسلية، وكادت تصبح عادة مألوفة، في طول البلاد وعرضها.

وكان في بعض الأيام أن اثنين من أنجب تلاميذ النبيل، وهما «ها شن»، و«تسيبو»، وقد خرجا من عنده بعد ضيافة كريمة، قصدا إلى التنزه في أطراف الإقليم، ومرا بكوخ مزارع يُدعى «شان تشيو كان»، فأقاما ليلتهما، وفي آخر ساعة من الليل راحا يتحدثان عن عبقرية أستاذهما تسيهوا، ومبلغ شهرته الذائعة وقدراته السحرية الخارقة، وكيف أنه يستطيع أن يميت الحي، ويحيي الميت [كذا] ويفقر الغني ويغني الفقير (... إلى آخر تلك الخوارق) ولما كان المزارع «شان تشيو كاي»، ساكن الكوخ، لا يجد إلى النوم سبيلًا؛ بسبب الجوع والبرد، فقد راح يسترق السمع من وراء النافذة المفتوحة (وسمع كل ما دار بشأن معجزات النبيل)، وفيما بعد، فقد حمل شيئًا من الحبوب والسلال، وذهب إلى منزل النبيل تسيهوا، وكان تلاميذ الرجل وأتباعه ينتسبون إلى أسر وعائلات ذات جاهٍ وشرف، يركبون عربات مطهمة، وهم يرفلون في ثياب من حرير، وإذا مشوا فسيرهم الهوينى، في تؤدة وثقة يشمخون بأنوفهم، في عزة وسؤدد، فلما التفتوا ورأوا شان تشيو كاي، بوجهه الكالح وهيئته المزرية؛ وقد تهدلت ثيابه واتسخت أقدامه، استصغروا شأنه ورموه بالنكات اللاذعة، بل جعلوا يدفعونه بأيديهم؛ إمعانًا في إهانته والنيل منه، لكن شان تشيو كاي احتمل الأذى ولم يغضب مما صنعوه به، وكانوا قد ذهبوا في التنكيل به كل مذهب، حتى أعيتهم الحيل وضاقوا ذرعًا من العبث به، ثم إنهم سمحوا له بأن يصعد معهم إلى حافة الجرف العالي، فما إن بلغوا تلك البقعة الشاهقة حتى تفتقت أذهانهم عن حيلة ماكرة؛ إذ تحلقوا حول بعضهم بعضًا واتفقوا على أن من واتته الشجاعة على إلقاء نفسه من فوق الجرف، فسوف يستحق مكافأة مقدارها مائة مثقال من الذهب، وصاروا يتظاهرون بالتكالب على تجربة هذه المحاولة في القفز المميت، ووقع في ظن شان تشيو كاي أنهم جادون فيما ذهبوا إليه من أمر هذه المسابقة، فإذا به يسبقهم جميعًا ويلقي بنفسه من فوق هذا الارتفاع الشاهق، فطار في الهواء كعصفور محلق بجناحين، وحمله الهواء رفيقًا به، وحط فوق الأرض كما يحط الطائر بخفة ورشاقة، فلم ينحطم عنقه ولا تهشمت عظامه؛ وظن أتباع النبيل أن الأمر مجرد مصادفة طيبة، أو لعلها إحدى الخوارق والأعاجيب، فقالوا لبعضهم بعضًا، وهم بشاطئ النهر الكبير: «في باطن البحر كنز ثمين، من غطس إلى القاع صارت الغنيمة له.» ولم يلبث شان تشيو كاي أن قفز إلى الماء، وبعد

هنيهة طفا على وجه النهر وبيده الكنز، فألجمت الدهشة أفواه الجميع، وعندئذٍ، فقد سارع تيسهوا بدعوته للانضمام إلى جمع الأتباع والتلاميذ، وأنعم عليه بأحسن الطعام وفاخر الثياب، وبعد أيام، شبت النيران في خزائن النبيل الماجد، فذهب إلى شان تشيو كاي، قائلًا له: «انظر، هل تجد في نفسك الاستعداد على اقتحام النيران كي تأتي لنا بما يمكن الفوز به سليمًا من الأثواب والحرير، على أن تحوز لنفسك كل ما استنقذته يداك.» فلم يتردد الرجل لحظة واحدة، بل جرى وسط اللهب وعاد سليمًا، صحيح البدن، مكتمل البهاء؛ فلا النار آذت جلده ولا التهمت عظامه، واقتنع أصحاب الماجد النبيل بأن الرجل ذو قدرات خارقة وأنه يعرف أسرار الطاو، فاعتذروا إليه جميعًا، قائلين: «قد سخرنا بك، ولم نكن نعرف أنك راسخ في الطاوية، وحططنا من قدرك، برغم أنك قديس طاهر، كم كنا سفهاء حقًّا، ولك أن تعدَّنا من الصم والبكم الذين لا يفقهون قولًا ولا يرشدون، أو من العميان الذين غُشي على أبصارهم، لكن ائذن لنا أن نسألك عن سر خوارقك الطاوية، أين تعلمتها وكيف؟» أجابهم شان تشيو كاي، قال: «لا أعرف شيئًا من أسرار الطاو، ولا من القدرات السحرية، بل إني ما كنت أعرف، فيما بيني وبين نفسي أني كنت أقدر أساسًا، على إتيان تلك الأعاجيب التي رأيتموها، ورغم هذا، فلا بد أن أصارحكم بأمر مهم للغاية، فقد حدث أن نزل عليَّ في داري ضيفان من أصحابكم، وسمعتهما يتحاوران؛ إذ ورد في كلامهم شيء عن أنه يميت الأحياء ويحيي الأموات، ويفقر الأثرياء ويثري الفقراء، فصدقت هذا القول بكل كياني، لم يساورني فيه أدنى شك مما قد يتبادر إلى الذهن في هذه الأمور، ولم أتوانَ عن المجيء، خصوصًا أن المسافة ليست بعيدة، فلما حللت بأرضكم وقابلت النجباء من قومكم، آمنت بصدق أقوالهم وأخذت كلامهم على محمل الجد، وقلت في نفسي، إنه إذا داخلني الريب في كل ما يقال فسيحبط مسعاي، ولن أقدر على أن أنال شيئًا من العلم، بالتالي، فلم أشغل نفسي بالتفكير فيما يمكن أن يحل بجسمي أينما حل، ولا بالضر كيف يصيبني، أو بالنفع أنى يرد عليَّ، لم أعبأ بكسب أو خسارة، فتحققت نفسي بصدق النوايا وتمحضت بالإخلاص، فكان أن نفذ سلطان الطاعة في مادة الأشياء، فما من شيء إلا قد أذعن لنفس صادقة الطوية، بريئة من شوب التماري، فكان ما قد رأيتم وعلمتم. أما الآن، وقد أدركت أن القوم كانوا يسخرون مني ويهزءُون بي، فقد داخلني شيء من الظنون واعتمل في صدري الهاجس، وانقبض هيكل الحواس من الوجل، وانفتحت طاقات من الحذر والترقب، ترهف السمع، ارتيابًا، وتطيل النظر، من الوجل؛ حتى إذا تفكرت في الكيفية التي نجوت بها من الغرق والحريق، أصابني الرعب وارتج زلزالي، وطرقتني النوازل، فكيف لي بعد اليوم أن أقرب حفنة من ماء بحر أو قبسًا من نار تلظى؟»

وصار التابعون من تلاميذ الماجد النبيل، من بعدئذٍ، إذا مروا في طريقهم بشحاذ أو مسكين، أو حتى، لو كان مخلوقًا على هيئة الوحوش في البرية، سلكوا معه مسلك التبجيل والاحترام، من دون تكبر أو تحقير شأن، فكانوا يترجلون ويؤدون له التحية.

وإذ سمع «تسا يهي» [أحد تلاميذ كونفوشيوس] بهذا الأمر، فقد أسرع إلى كونفوشيوس، يقص عليه ما جرى، فقال له الشيخ: «وهل تخفى عليك حقيقة الأمر في هذا؟ (ألا فاعلم …) أن أصدق الناس إخلاصًا يستطيعون أن يمنحوا الأشياء الجامدة طاقة من الإحساس بالحياة، ويستطيعون كذلك، أن يفرضوا سطوتهم على السماء والأرض [حرفيًّا: يحركونها بأيديهم]، وأن يأمروا الأشباح أن تهرع إلى أقصى موضع في السماء أو الأرض، فتذعن لهم [حرفيًّا: تأمرهم بالذهاب سريعًا، إلى الجهات الستة، شمال، جنوب، شرق، غرب، أعلى، أسفل؛ فلا يسعها إلا الانصياع لهم] فليس القفز من ارتفاع شاهق ولا الغوص في الماء أو البقاء سليمًا وسط النار سوى بضعة نماذج لما يستطيع صاحبنا أن يفعله، وإذا كان شان تشيو كاي قد استطاع أن يمتلك كل تلك الخوارق، لمجرد أنه مال بأذن مخلصة وقلب صدوق لترهات من أكاذيب النجباء التابعين، فما ظنك لو أن كليهما اتخذ مع صاحبه المسلك الصادق، وتصرف بقلب سليم.»

[٧]

كان للملك شيوان، حاكم دولة تشو الغربية، عامل يُدعى «ليان يانغ»، وكان مكلفًا بتربية الوحش والطير، في حدائق مسورة؛ وبرغم ما تميزت به أصنافها من الشراسة، كالنمور والذئاب والنسور والجوارح [حرفيًّا: «الشماط»، من آكلة الأسماك]، إلا أنها بدت وديعة لطيفة مذعنة في هدوء وانسجام، (لنظام حياتها، تحت إشراف هذا العامل الماهر) … وقد نزا الذكر على الأنثى، وتكاثرت جموعها واختلطت ببعضها بعضًا، فلم يقع بينها عراك، ولم يخمش أجسادها مخلب الشجار، ولا كشرت لأصحابها عن أنياب الافتراس، وتفكر الملك في أن الفضل في هذا الحال يرجع إلى مهارة عامله، وأن المهارة الفنية قد تموت بموت صاحبها، فطلب إلى «ماو تشيو يوان» أن يتعلم من الأستاذ، ويرث منه ميراث فنه، فتكلم ليان يانغ، قائلًا: «لستُ إلا عاملًا بسيطًا، فكيف ألقنك أسرار العلم، وأنا أقل من أن أحوز مكانة بين الناس؟ ولولا أن يظن جلالة الملك بي الظنون، وشاع عني أني أكتم المعرفة لأغلقت فمي، لكني؛ على كل حال، سأقص عليك طرفًا من بند إطعام النمور: والقاعدة العامة في هذا، أنك إذا سايرت طباعها وأمزجتها انبسطت أساريرها، أما إذا خالفتها فقد

أحنقتها عليك، وذلك طبع جارٍ في كل وحشي مفترس، حاد المزاج، ثم إن الرضا والغضب يُستجلبان بدوافع وتستحثهما أسباب ولا ينشآن من عدم، والمعاندة أساس كل عنف وغضب، فحذارِ إذا أقدمت على إطعام النمر، أن تأتي له بفريسة حية؛ لأنك لا تأمن غضبه بعد أن يهاجمها ويفتك بها، ولا تقدم له ذبيحة مكتملة الجسد؛ لأنك لا تضمن أن يثور هائجًا، بعد أن ينقض عليها ويمزق أوصالها. وهكذا، فلا بد من أن تراقب أحواله، سواء شبع أو جاع، وأن تدرك كنه غضبه وثورته.

يختلف النمر عن الإنسان، ومع ذلك، فليس يختلف الأمر كثيرًا (في أحوال مخصوصة)؛ فالتودد إلى الجائع وغوايته يجلبان رضاه، سواء كان من النمور أم البشر، بينما إن إرغام الآكل على التهام وليمة، لا يفضي — عادة — إلا إلى السخط والتذمر، أليس كذلك؟ على أن التودد والتلطف والغواية، ليست أساليب مضمونة لاستجلاب الرضا (في كل الأحوال)؛ لأن لذة الرضا، إذا طغت، أشبهت الغضب؛ والتذمر إذا ثارت ثائرته، رتع في مراتع البهجة والسرور (فرح بما واتته الثورة من الطاقة)؛ وكلاهما يقعان في غير موضعهما الطبيعي واللائق بهما. أما وقد تنقت النفس من كوامن الإذعان والمعاندة، فقد وجَدَتْ في الوحوش والجوارح ما كانت تجده في رفاقها، فأذعنت لي وانقادت، كيفما سرت بها سارت، فهكذا ائتلف الوحشي وراء أسوار حدائقي، في هدوء ودعة كالأليف الداجن؛ فلا هو قد هرب إلى الغاب، ولا فزع إلى البرية، بينما جثت الكواسر فوق الغصون، لم تفر إلى الوديان ولا هاج بها الحنين إلى رءوس التلال، فقد بدا لك ما رأيت من الأحوال؛ بفضل ما ساد من الانسياق إلى حكم الطبائع.»

[٨]

ذهب يان هوي [تلميذ كونفوشيوس] إلى الأستاذ الأكبر، وسأله في مسألة، راح يعرضها عليه، قائلًا: «كنت أعبر نهرًا عميق الغور [حرفيًّا: هاوية مثل قعر كأس طويلة]، والقارب يمرق وصاحب القارب يجدف ببراعة، فسألته، قلت: «هل يمكن لمثلي أن يتعلم التجديف؟» فأجابني: «طبعًا، بكل سهولة؛ فمن يتقن السباحة، يسهل عليه التجديف، فالسباح يستطيعه وكذلك الغواص الذي ربما لم يسبق أن شاهد في حياته قاربًا بمجداف.» فلما سألته عن السبب في ذلك، لم يكترث للإجابة، فهل لك يا سيدي، أن تجيبني عن هذا السؤال؟ فقال له كونفوشيوس: «أبَعْد كل هذه المناقشات بيني وبينك، ودروس العلم الكثيرة والقضايا، التي تكلمنا فيها معًا، تظل عاجزًا عن بلوغ مرتبة التحقق من الأمور

بالبرهان الدامغ والحجة البليغة؟ على أية حال، فلا يسعني الآن، إلا أن أقول لك (... وبشكل عام)، إنه من السهل على من يجيد السباحة أن يمهر في التجديف؛ لأنه اعتاد الطفو وإذا كان السباحون يستطيعون التجديف بصورة أساسية، فإنما يرجع ذلك إلى أنهم اعتادوا التحرك فوق سطح الماء، فصارت الحركة الطافية عادة سائغة لهم، ونسوا أمر القاع العميق؛ فأما الغواص الذي لم يرَ في حياته قاربًا، ثم إذا به يجيد التجديف بكل سهولة؛ فلأنه اعتاد النظر إلى قاع النهر السحيق، كأنه طريق وسط تلال، وما قد يبدو للناس من خطر انقلاب القارب، سيبدو للغواص كأنه خطوة إلى الخلف في طريق جبلي صاعد، فكل مخاطر الركوب في قارب لن تثير لديه أدنى اهتمام، ومن هنا يمضي في طريقه رابط الجأش، هل ثمة ما يمنعه عن هذا؟ إن اللاعبين بقطع الطوب والحجارة يبلغون حد المهارة الفائقة [لعبة صينية قديمة يحرز فيها اللاعبون ما في يد رفاقهم من عدد القطع]، أما اللاعبون بقطع من الفضة، فينالهم قدر من القلق والإرهاق. أما من يلعبون بقطع من الذهب، فيكاد يُغشى عليهم بين تارة وأخرى، فقواعد اللعب لا تتغير، واهتمام المتنافسين لا يتبدل، في كل الأحوال، لكن الاختلاف يكمن في درجة الاهتمام بالأدوات والوسائل، فكل من صرف انتباهه لوسيلة خارجية، عند حافة حدود الجسد، سيفقد بالضرورة طاقات موهبته الداخلية ويُصاب حتمًا بالغباء والتبلد».»

[٩]

كان كونفوشيوس يتنزه عند أحد السدود النهرية [حرفيًّا: منطقة «ليو ليانغ»]، وكان الماء يهدر من ارتفاع ثلاثين «رن» [الرن: ثمانية أذرع صينية، بالمقياس القديم]، وطفا الزَّبَد على وجه النهر مسافة ثلاثين «لي»، حتى تعذَّر على التماسيح الكبيرة والسلاحف ذات الدروع والسلاحف العظيمة أن تقرب مصب الشلال الهادر، في هذه المنطقة، ثم إذا به يشاهد شابًّا يسبح في الماء، فظن كونفوشيوس أنه ضائق بحياته باحث عن حتفه، فطلب إلى تلاميذه الإسراع إلى إنقاذه، ثم إذا بالشاب يشق عباب النهر ويمرق كالسهم مائة خطوة أو يزيد، ويخرج عند حافة الماء وقد تهدل شعره ومشى يغني طربًا، وهو مأخوذ بروعة المناظر البديعة من حوله، فلحق به كونفوشيوس، وسأله: «هذا شلال ليو ليانغ، يهدر من ارتفاع ثلاثين «رن»، وقد أثار الزبد على سطح الماء ممتدًّا لمسافة ثلاثين «لي»، حتى فزعت أفراس النهر والتماسيح والسلاحف من شدة هدير الماء، ففرت مبتعدة، إلا أنك نزلت وسبحت، غير هيَّاب، فحسبت أنك مهلك نفسك، وقد ضقت ذرعًا بحياتك،

فأرسلت تلاميذي لإنقاذك، لكنك خرجت من النهر تتنزه وقد نثرت شعرك فوق كتفك، لاهيًا جذلًا، فظننت أنك عفريت من الجن، ثم لما دققت النظر، فإذا بك إنسي من البشر، فاسمح لي بالاستفسار إن كنت ذا مقدرة خارقة في السباحة أو في إجادة ضرب من فنون السحر [حرفيًّا: فنون الطاو]؟» فأجابه الفتى قائلًا: «كلا، فلست على شيء مما تظن من المقدرات الخارقة، بل قد وجدت في نفسي القابلية والاستعداد والموهبة للسباحة منذ بدء حياتي، وتطورت مقدرتي بالدأب والمثابرة، وأتمت المقادير صنعها، حتى صرت أدور في الماء مع الدوامات السابحة وأطفو مع فقاعات الهواء، وأعوم كأني قطرة من ماء جارٍ، دون أن أظن بنفسي أية قدرة سحرية، فتلك — إن أردت — هي أسرار فنون الطاو التي لديَّ، لا أكثر من هذا ولا أقل!» وعندئذٍ التفت كونفوشيوس إلى تلاميذه وقال لهم: «أتدرون معنى ما يقال من …» «البدء بتقدير الأسباب»، و«المثابرة منشأ الاعتياد»، و«الاكتمال بيد القدر؟» فأجابه «نانزي»، قائلًا: «(معناها إني إذا) نشأت بمنطقة جبلية، فستكون الجبال والتلال جزءًا مما تألف طبيعتي، أما إذا وُلدت عند شاطئ البحار والأنهار، فسوف ينشأ عندي الاعتياد والخصائص التي تنطبع بكل ما يتصل بالمياه والسباحة، وبالتالي أصير سبَّاحًا ماهرًا، دون حتى أن أتعمد شيئًا من مهارة السباحة والغطس، وتصبح الأمور وكأنها قد بلغت حد الاكتمال على يد الأقدار.»

[١٠]

كان كونفوشيوس مسافرًا، في طريقه إلى دولة «تشو»، وأشرف من بين أشجار الغابة الكثيفة على الدروب الواسعة، فإذا به أمام كهل قد احدودب ظهره، وهو في أرذل العمر، ومع ذلك، فكان يصطاد الفراشات وهي طائرة في الهواء، بكل براعة، كأنه يلتقط بأصابعه قطوفًا دانية، فاقترب الحكيم من الرجل، وقال له: «يا لمهارتك! تُرى ما السر في قدرتك البارعة على اصطياد تلك الفراشات بأجنحتها الدقيقة؟» فأجابه قائلًا: «السر في ذلك أني ظللت طوال ستة أشهر أضع كرتين من طين على رأس عمود الخيزران، وأدرب نفسي على الاحتفاظ بهما ثابتتين في مكانهما حذر السقوط، لعلي أثبت في حال اصطياد الفراشات، فلا تبدر من يدي أقل هفوة، ثم أضفت كرة ثالثة إلى رأس الخيزران وجعلت أحفظ توازنها بالتدريب المتواصل، فزادت مرات النجاح في الإمساك بالفراشات وتضاءلت مِن ثَم مرات السقوط، ثم جعلت الكرات الطينية خمسًا وأحكمت السيطرة عليها حتى بلغت القدرة على اصطياد الفراشة على بُعد المسافة، وكأنني ألتقطها بأصابعي. قد تحكمت

في حركات جسدي حتى صرت كجذع شجرة ثابت ضارب بفرعه في الهواء، ثم كنت أمد ذراعي عاليًا بقوة وثبات، كأنه غصن جاف، مديد الاستقامة شديد ضارب في المدى، وبرغم سعة الفضاء واتساع ما بين الأرض والسماء وكثرة الأشياء في كل مكان، فلم يكن يعنيني في الدنيا بأسرها، سوى القبض على جناح فراشة، لا يشغلني عن ذلك شيء آخر، ولا يشد اهتمامي أي أمر سوى هذا؛ فلم يكن لأي شيء في الدنيا أن يثنيني عن التحفز لاصطياد الفراشات، فهل تظن بعد كل هذا التركيز والإصرار أن أفشل في مهمتي؟» والتفت كونفوشيوس نحو تلاميذه وقال لهم: «إن العزم والإرادة بالإضافة إلى التركيز والتصميم يحشدون الطاقة تجاه المعجزة، ذلك هو ما يود هذا الكهل المحدودب الظهر أن يقوله.» وعندئذٍ، قال له الكهل: «يبدو على سيماك أنك من الدارسين الذين يرتدون ملابس فضفاضة ذات أكمام واسعة، فما شأنك إذن بكيفية اصطياد الفراشات، فأصلح من شأن أفكارك وعلومك، أولًا، ثم ارجع إليَّ كي أعلمك وأقص عليك ما يتوجب تدوينه في الأوراق.»

[١١]

كان أحد المعجبين بطيور النورس يقيم بالقرب من شاطئ البحر، ولم يكن يغفل في كل صباح أن يقوم، مبكرًا، ثم يذهب إلى الشاطئ فيدخل في زمرة النوارس ويمرح معها، وهي تطير فوقه وحوله ومن ورائه وأمامه، بالعشرات والمئات، ولا تكف عن الدوران حوله، كأنها تطير به ومعه، وكان أن قال له أبوه، ذات يوم: «بلغني أن الطيور تميل إليك وتداعبك وتمرح معك، وهذا شيء عُجاب، ألا يمكنك، إذن، أن تصطاد لي فرخًا منها؛ كي أداعبه وأفرح كفرحك بها؟» فلما قصد في اليوم التالي إلى الشاطئ، فوجئ بالنوارس تحلق في الأجواء العالية، مبتعدة عنه قدر الإمكان، وظلت طوال اليوم حريصة ألا تقترب منه؛ فلذلك قيل: (في الحكمة القديمة ...) إن أبرع اللغات لا تحتاج إلى ألفاظ وكلمات، وأنبل الأفعال لا تحتاج إلى دفع الأجساد وتحريك الأوصال، إن المرء لا يحتاج لكي يكون سطحيًّا سقيم الذهن، سوى أن يسد طريق بصيرته بيديه.

[١٢]

ذهب «جاو شيا نزي» [أحد نبلاء دولة «جين» في العصور القديمة] على رأس ألوف الألوف من الصيادين إلى جبال «جونشان» في رحلة صيد برية، وسارت الجموع الغفيرة تطأ الحشائش بأقدامها في جلبة وهرج، وحدث أن أفلتت شرارة من اللهب، فأضرمت

الحريق في الغابة وامتد اللهب في أرجاء شاسعة، ثم إذا بالجميع أمام رجل قد خرج فجأة، من بين شقوق الجدار ثم ارتفع في الهواء على رءوس اللهب ونزل مع الرماد، كأنه عفريت من الجن، فلما خمدت النار، مشى خارجًا في تؤدة كأنه لم يمرق عبر جدار أو يمشي على حواف النار؛ فذهل جاو شيا نزي وأمسك به وراح يتفحصه مليًّا، فإذا الوجه والشكل واللون والفم والأنف والحواس، كلها تشير إلى أنه إنسي ككل الناس، وكان ينفث الهواء من منخاريه ويحرك لسانه بالكلام ككل الناس، فسأله عن سر إقامته بين شقوق الجدار، وعن الطريقة السحرية التي تمكن بها من أن يمشي وسط النار دون أن يحترق. فقال له الرجل: «لا أدري ماذا تقصد بالجدار، ولا معنى كلمة النار!» فأجابه جاو شيا نزي، قائلًا: «الجدار هو ذلك الموضوع الذي خرجت منه منذ قليل، أما النار، فهي تلك التي كنت تمرق خلالها منذ برهة. «فقال الرجل لست أفهم شيئًا البتة.» وترامت الأخبار إلى مسامع الأمير «أونهو» [أحد مؤسسي دول «وي» في العصر القديم، تسلط بالقهر وانتزع لنفسه لقب ومكانة أمراء الدول ومكانتهم]، فذهب إلى «زيشيا» [أحد تلاميذ كونفوشيوس] وسأله عن هذا الخبر، قائلًا: «ما حكاية ذلك الرجل وما حقيقة أمره؟» فأجابه قائلًا: «كنت قد سمعت الشيخ الأكبر وهو يقول: «إن من تحقق باللين والسماحة ومطاوعة الأحوال، صارت له القدرة على الاتحاد بالأشياء الخارجية (خارج الجسد)، فليس للضر إليه سبيل، ووُهبت له المقدرة على المشي فوق الماء واختراق الجدران والولوج في جوف النار، بغير أذى».» فقال له «أونهو»: «سيدي المحترم، هلا صار لك نصيب في شيء من تلك الخوارق؟» فأجابه، قائلًا: «لا طاقة لي بالتنائي عما يشغل ذهني طوال الوقت (لا أطيق تصفية كدر النفس من الانشغال بالأفكار)، ولا أنا بمستطيع التخلي عن منطق تعقل الأمور، والتأمل العقلي الدائب في كل الأشياء، ولا أجد في جعبة أفكاري سوى ذلك المخزون الوافر من النشاط الذهني.» فما لبث أونهو أن قال له: «فهل يملك الشيخ كونفوشيوس شيئًا من تلك المقدرة السحرية؟» ورد عليه زيشيا، قائلًا: «نعم، بالطبع، فإن شيخنا يملك أن يأتي بالخوارق، إذا إراد، لكنه؛ برغم ذلك، لن يكترث بإتيان شيء منها أبدًا.» ولم يفرح أونهو في حياته بشيء قدر فرحه بهذا الرد.

[١٣]

انتقل أحد السحرة من دولة «تشي»؛ ليقيم في دويلة «جنغ»، وكان يُدعى «جيشيان»، واشتهر بين الناس بقدرته على التكهن بالنبوءات الصادقة، (خصوصًا، فيما يتعلق بـ)

الحياة والموت، والبقاء والفناء، والسعود والنحوس، ومديد العمر وعاجل المنية. وبلغت دقة تكهناته أنه كان يحسب المواقيت باليوم والدقيقة، بل اللحظة والثانية، وبمرور الأيام صار الناس في دولة جنغ ينفرون منه، وينأون بأنفسهم عنه، ليس سوى ليتزو هو وحده الذي توثقت عرى المحبة بينه وبين الساحر، وكان أن تكلم عنه كثيرًا عند صديق له يُدعى «هو شيو تسي»، وكان مما قاله له: «كنت قد ظننت بادئ الأمر أن لديك من المعجزات والخوارق ما لا سبيل إلى مقارنته في الدنيا بأسرها، لكنني وجدت في الساحر ما يفوقك ويتجاوزك بكثير جدًّا.» فقال له صاحبه: «كنا قد درسنا معًا، أسرار الطاوية سوى إننا حُجبنا عن تطبيق ما تعلمناه، ولا أدري إن كنت ما تزال تتقن مبادئ ذلك العلم الذي صار كفرج أنثى (... لا يخصب إلا بإضافة من خارجه)؛ حتى عجز عن أن يأتي بالمواليد! إن العامة والدهماء ينبهرون بما ترى من أفعال الحواة الذين يتيهون فخرًا ببعض ما يجيدون، ولما كان الناس لا يفقهون شيئًا، فهم يعظمون من شأن أولئك المدعين، فانظر إذا كان صاحبك يجيد قراءة الطالع، وأحضره معك إلى هنا؛ ليرى طالعي أيضًا.» وجاء ليتزو، في اليوم التالي، بالساحر جيشيان ضيفًا على صاحبه هو شيو تسي، (وبعد أن قرأ له الطالع، خرج إلى ليتزو وقال له: ...) «يا للأسف، سيموت صاحبك، فلم يعد له في العمر بقية، لن يمضي أكثر من عشرة أيام حتى تطلع روحه، قد رأيت نذير ذلك الموت، فالعظام البالية لا يكسوها اللحم مرة ثانية، قد رأيت ذلك رأي العين.» وذهب ليتزو إلى صاحبه بعيون دامعة وقلب حزين [حرفيًّا: بعين دامعة وأنف يسيل]، فأخبره بما أنبأه به جيشيان، فقال له: «لم يرَ الساحر سوى أثر الأرض في سحنة الجلد ذلك أن القلق قد فصل ما بين روحي وجسدي، فأحضره، ثانية؛ لنرى حظنا معه.» وجاء جيشيان في اليوم التالي إلى هو شيو تسي، فلما خرج من عنده قال لـ «ليتزو»: «بل هو رجل سعيد الحظ للغاية، وأرى أنه قد شفي من أمراضه على يدي، وكُتبت له حياة جديدة، وها قد التأم ما بين روحه وجسده بصحة وعافية، وعادت إليه حيويته من جديد.» فدخل ليتزو إلى صاحبه وأخبره بما سمع، فقال له: «لكنني لم أبين له الساعة، سوى جانب واحد من طبيعتي الوادعة الهادئة، لكن شيئًا من الجوهر لا يتفق مع المظهر، فكيف يمكن للحيوية والطاقة الطبيعية أن ينطلقا من عقالهما، ما زالت الطاقة حبيسة، معزولة عن مجالها، لكن الرجل ظن بي خيرًا؛ إذ رأى الجانب الطيب مني، فاطلب إليه المجيء مرة أخرى.» فجاء جيشيان بصحبة ليتزو في اليوم التالي، وبعد برهة (وبعد استقصاء الطالع) خرج وقال لـ «ليتزو»: «أرى صاحبك متوعكًا، لا سيما، وهو قاعد على فراشه، فلا طاقة بي

لقراءة طالعه، ليتك تبذل جهدك لتقنعه بأن يلزم الهدوء والسكينة قدر المستطاع، ثم انظر أنت بنفسك في طالع حظه.» وعاد ليتزو يقص على صاحبه ما أُخبر به، فقال له: «قد أبديت له منذ قليل، مظهرًا فارغ المعنى، لا يمكِّنه من قراءة أي طالع! وذلك لأنه اعتاد الاهتمام بمدى حيوية المزاج العام، واتزان الحالة النفسية، (فاعلم) أن بواطن الأشياء تُخفي ما لا مظهر له (فمثلًا:) حيثما تدور الحيتان في قاع البحر يكمن باطن المياه بعمق سحيق، وحيثما تسكن دوامات الموج، يغور قاع الماء غورًا بعيدًا، وحيثما تجري الأمواج بقوة، يميد القاع بعيدًا، وحيثما تفور فائرة الفيضان الهادر، يسكن باطن البحر، وإذ تتقلب تيارات الماء على سطح النهر، يستكن القاع بغير اضطراب، وحيثما تدور الدوامات على شاطئ الماء، يستقر القاع في هدوء، وإذ يهدر هدير الشلال، أو يعود إلى المصب فرع من جدول شرد عن مجراه، ينطوي في الماء أخفى كل باطن، وإذ تنبثق نافورة من قلب البحر، تتوارى في هدوء قيعان الماء، وعندما تلتئم في المجرى تيارات مياه شتى، تنحدر إلى القاع البواطن؛ فتلك تسع مكامن عميقة في هوة سحيقة بباطن الماء، لكل منها حال مختلف وشأن متفرد. فابحث عن الرجل وائتني به، مرة أخرى، ولنجرب!» والتقى جيشيان، في اليوم التالي، مع هو شيو تسي، فما كاد الساحر ينظر إلى صاحبنا هذا، حتى أخذته رعدة هائلة، واربد وجهه، وطفق يرتعش مضطربًا، ثم استدار وفر هاربًا، وجعل هو شيو تسي يصيح وراءه: «أعيدوه ... الحقوا به لئلا يفلت من أيدينا!» وجرى ليتزو في إثر الهارب، لكنه عاد بعد لحظات، وقال لـ «هو شيو تسي»: «ما وجدت له أثرًا، طار كأنه على جناح الريح، فكيف أمسك بالريح!» فقال له الرجل: «أبديت له، توًّا، ما لم يكد يبلغ بي إلى صحيح أحوالي وحقيق الجوهر، حاولت أن أقابل قوته بشيء يسير مما عندي ... بشيء جاهدت قدر الطاقة أن يكون أهون ما أستطيع ملاقاته به، ففوجئ بما كان خبيء أعماقي من باطن الأحوال، ولم يكن يدري به قبلًا، فظن أن مثلي كمثل أوراق الورد الناعم، أطوف مع الهواء في تطوافه، ثم ارتبك لما وجدني دفقة موج قرَّ قرارها، وليس من يصمد لثقلها، فلم يلبث أن هرب.»

ومن حينئذٍ، صار ليتزو يشعر بأنه لم يفد شيئًا مما تعلمه من أسرار الطاو، فعاد إلى بيته وأغلق عليه بابه، وجعل يصنع، بنفسه، الطعام لامرأته، ويطعم الداجن ويربي القطعان، ويقوم على خدمتها كأنها من بني الإنسان، ولم يقرب عملًا [أحد مبادئ الطاوية، اللاعمل ... فالطبيعة تفعل كل شيء، يمكن، فقط، للإنسان أن يعمل على منوالها]، ومع أنه بقي مع الوقت، كأنه حجر كريم مغمور، لم تصقله الأيدي ولا هذبته

لمسات الفن الجميل، إلا أنه ظل نقي المنبت، طاهر الجوهر والمظهر، بيد أنه استطاع أن يحتفظ بتفرد خصاله، منجمعًا عن الاختلاط، مثل غصن استقام عوده وانفرد مغرسه، لم ينغمس في شتات، ولا انطمر وسط ركام الكثرة العمائية، بل انفصل وحده، وتمايز عقده، وامتد امتداد خطه الفاصل؛ منفرد الشأن، فريد الجوهر، لم تمسسه طوارق الحدثان، ولا نالت منه الأيام وتقلبات السنين.

[١٤]

قام ليتزو وقصد طريق السفر إلى دولة «تشي»، لكنه ما كاد يبلغ منتصف الطريق حتى عاد أدراجه، فلقيه «بوهن ماورن»، وقال له: «ما الذي عاد بك من سفرتك، ولما تمضي سوى بعض المراحل؟» فأجابه: «عدت لأني أحسست فجأة، بشيء من الوجل.» فسأله بوهن ماورن، قائلًا: «وفيمَ الوجل؟» فأجابه: «كنت قد مضيت إلى الخان لأشتري عشر زجاجات من الخمر، فأعطوني خمسًا منها، بالمجان، دون أن أدفع شيئًا من النقود.» فدهش بوهن ماورن، وسأله متحيرًا: «أمعقول هذا؟ وحتى لو لم يكن هذا معقولًا، ففيمَ الخوف؟ ليس في الأمر، على أية حال، ما يدعو للوجل.» أجابه ليتزو، قال: «إني امرؤ يعرف نفسه جيدًا، فلست في أعماقي متسامحًا كريمًا، كما قد تظن، لكني أحافظ على مظهر جاد ومتزن، فصارت ملامحي تنطق بالمهابة، فأردت أن يكون لي بالهيبة سلطان على النفوس، استجلابًا للطاعة والاحترام، لكن الأمر جلب عليَّ المتاعب والويلات، فانظر؛ مثلًا، إلى بائع الخمر، الذي يهدف من بضاعته للكسب، كيف أنه؛ وبرغم ضآلة ما يحصل عليه من ربح، رضي بأن يتنازل عن ذلك في كرم بالغ، لأجل خاطري. فماذا إذا قوبلت بالحفاوة والاحترام عند سيد البلاد [الإمبراطور]، كيف إذا طلب إليَّ التفاني لأجل الوطن، وبذل كل طاقة من الفكر لمصلحة البلاد، وقد يجول في خاطر أي واحد من المسئولين أن يسند إليَّ مهمة إنجاز عمل ما، في أي موقع، مطالبًا إياي بتحصيل أعظم النتائج؛ فلما ساورتني هذه الأفكار والوساوس، أصابني الخوف الذي حدثتك به.» وقال له بوهن: «قد بالغت في التحوط، وتفكرت فأطلت التفكير، فعد إلى بيتك، فستجد من يرعاك ويشد أزرك.» ثم لم يمضِ وقت طويل حتى كان بوهن ماورن قاصدًا بيت ليتزو؛ للزيارة والسؤال عنه، فما كاد يصل إلى هناك، حتى وجد الأحذية الكثيرة تملأ مدخل البيت، ثم إنه دلف إلى الداخل، ووقف برهة وهو متكئ على عصاه، مستند بذقنه على يده، وبعد فترة من التأمل توجه نحو الباب، ثم مضى إلى خارج البيت، فذهب بعض الضيوف وأبلغوا ليتزو بما

حدث، فقام مسرعًا، وجرى خارجًا دون أن ينتعل حذاءه. وعند الباب، نادى على الشيخ، قائلًا: «ما دمت قد جئت لزيارتي، أفلا كنت أحضرت لي بعض الدواء؟» فأجابه بوهن قائلًا: «دعك من هذا، ألم أقل لك آنفًا، إنك ستجد من يعودونك ويشدون من أزرك، وها قد حضر من رأيت، ليس لأنك تملك أن تفرض عليهم الالتزام بزيارتك؛ لعظيم مهابة أو شدة سطوة، بل على العكس تمامًا؛ لأنك لا تستطيع أن تمنعهم من التودد إليك ورعايتك، فالأمر هنا، لا علاقة له بقوة الإيحاء في النفوس، ذلك أمر يتنافى مع الطبع والسجية التي خُلق الناس بها (وأنت كذلك).

إن الذين يصادقونك لأجل مهابتك، لن يتكلموا معك بالحجة والمنطق والدليل، بل سيقولون كلامًا منمقًا قد يؤذيك ويجلب عليك الضرر ويفسد ما بينك وبين الجميع.»

[١٥]

كان يانغ شو متجهًا صوب الجنوب، في طريقه إلى منطقة «بايدي»، في حين كان لاوتسي مسافرًا (على مبعدة منه)، تجاه الغرب قاصدًا السفر إلى دولة تشين. وكانا كلاهما منطلقين (من موقعين مختلفين) من مناطق بعيدة عن العمران، وحدث أن التقيا بالقرب من مدينة «ليانغ» [عاصمة إحدى الدويلات القديمة]، فما كان من لاوتسي إلا أن تنهد عميقًا، بحسرة، وهو يقول: «كنت أعقد عليك الآمال، وتصورت أنك يمكن أن تستفيد شيئًا من العلوم، لكني أراك غير منتفع بشيء مما درسته لك.» فغمغم يانغ شو، بصوت خفيض، ثم سكت، فلما بلغا الخان، أسرع يانغ شو بإحضار الماء إلى لاوتسي، ووضع له الكوب حتى تغرغر ثم وضع الطست فغسل له وجهه ومشط شعره، وخلع له حذاءه ووضعه خارج الباب، ثم ركع عند أستاذه، واقترب منه ليقول له: «كنت يا سيدي، قد تنهدت آسفًا، وقلت بلهجة ساخرة: «ألقيت عليك العلوم فلم تستفد شيئًا، ولا أراك يصلح لك من العلم شيء.» ويريد تلميذك أن يسألك عما تقصده بهذا القول، ولم أكن لأسألك ونحن على الطريق؛ فقد كنت في عجلة من الأمر، ولم يكن الوقت يسمح بالحديث، فترددت أن أتكلم معك حينئذٍ، فها قد وصلنا، ولك الآن، في الخطاب متسع من الوقت، فهلا أنبأتني بالمغزى وراء مقالتك، وبينت لي ما وقعت فيه من التقصير، لعلي أبلغ من أمري رشدًا؟» فقال له لاوتسي: «أراك قد أوغلت في العبث والإهمال وسلكت في غير الطريق الصحيح، وبدأ يسطع في عينيك بريق المباهاة والتعالي، حتى كادت الناس تعتزلك تمامًا، (أما قد علمت أن ...) القديس الطاهر يتصرف وكأنه ملطخ بالأوحال [كذا]، وأن صاحب الخلق الأسمى

يتواضع حتى يدرأ عن نفسه التفاخر بأي قيمة.» واضطرب يانغ شو للغاية، وأجاب قائلًا: «سأنصت جيدًا لقولك، وأعمل بما تنصحني به يا سيدي.» وقام فقصد إلى «بايدي» فلما انفتح باب الخان، ووجد صاحبه واقفًا يرحب به، بادر إلى تحيته، فانحنى أمامه وظل واقفًا حتى جلس الجميع، ثم جاءت زوجة صاحب الخان تصب له الشاي والماء الساخن وتعطيه المنشفة والمشط، بينما قام نزلاء الفندق احترامًا له، واجتهد صاحب فرن الشواء أن يدع باب الفرن مفتوحًا بعض الوقت، لعله يشيع في الأجواء شيئًا من الدفء، على سبيل التكرم على النزلاء؛ وإذ عاد يانغ شو من رحلته القصيرة إلى «بايدي»، فقد أدرك نزلاء الخان أنه ندم على ما بدر منه آنفًا، وعرف مواطن الخطأ وأصلح من شأنه فيها، فجلسوا معه، وأظهروا له البشر والترحاب، وزال ما بينهم وبينه من حجب العزلة وسوء الفهم.»

[١٦]

كان يانغ شو مارًّا في طريق سفره، بدولة سونغ، فنزل في أحد الفنادق، فوجد عند صاحب الفندق امرأتين شابتين، إحداهما جميلة؛ والأخرى دميمة، غير أن هذه الأخيرة كانت ذات مكانة رفيعة، أما المليحة، حسنة الوجه، فكانت بسيطة المنشأ، متواضعة المكانة. فلما تساءل يانغ شو عن أمر المرأتين، وتلك الفروق بينهما، أجابه الصبي العامل في الفندق، قائلًا: «كل ما أعرفه هو أن تلك الجميلة تعرف في قرارة نفسها أنها مليحة الوجه حلوة القسمات، وتتصرف على هذا الأساس، ولست أرى مبررًا لذلك؛ وكذلك الأخرى الدميمة، تقر في أعماقها بأنها ليست كالمرأة الأخرى بأنها أدنى منها كثيرًا، ولا أدري ما الذي يجعلها تفكر على هذا النحو أيضًا.» وعندئذٍ، التفت يانغ شو إلى تلاميذه قائلًا لهم: «انظروا وافهموا جيدًا، أليس من الأفضل والأجمل أن يتصرف المرء بنزاهة ونبل وشرف، ثم يمضي في طريقه بغير زهو وخيلاء، أليس هذا أكثر مدعاة لسريان الاعتراف بجميل خصاله بين الناس كافة، في كل مكان؟»

[١٧]

هناك طرق كثيرة للظفر والانتصار، وهناك طرق أكثر للهزيمة والانكسار. لكن طرق الانتصار لينة منكسرة (في ضعف وذل)، بينما أن وسائل الهزيمة فولاذية جبارة، وكلا الاتجاهين يمكن فهمه بسهولة، لكن الناس لا يحاولون ذلك أبدًا. ومن هنا، اشتهرت إحدى

المقولات القديمة التي صارت حكمة متواترة، مفادها أن: الأقوياء الجبابرة يرون الأشياء من حولهم وكأنها أضعف من أن تنال منهم؛ أما الضعفاء فيشفقون على أنفسهم خشية بطش كل من يحيطون بهم. فإذا قُدر للأشياء التي ينظر إليها الأقوياء بوصفها أعجز عن النيل منهم، ثم إذا بها تصبح فجأة، في مستوى التحدي، تولدت حينئذٍ نُذر الخطر. (هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى) إذا كانت كل الظروف والإمكانات تفوق قدرة الضعفاء على المواجهة، ثم اتضح أن مثل هذه المواجهة، لو حدثت، فلن تمثل تهديدًا خطيرًا، بأية حال، بل كانت تلك هي الوسيلة المؤكدة للظفر، والأسلوب الأمثل لقهر كل أوجه الضعف، لصار ذلك هو منهج الضعفاء لتحقيق النصر، رغم أنفهم، وأصبحوا يملكون جرأة المواجهة، وإن لم يطلبوها، وقد قال «يو تسي»: «من أراد الصلابة، فلا بد أن يحميها بالنعومة. ومن توخى القوة، فعليه أن يحفظها بالضعف. إن تراكم الوهن هو الذي يصنع الصلابة، وحشد أسباب الضعف يدفع باتجاه القوة؛ فالمطلوب مراقبة ما يحشده الناس ويراكمونه في خزائنهم، ومن هنا يسهل التعرف على اتجاه سيرهم نحو آفاق النجاح أو الفشل. إن الاعتماد على القوة لمواجهة الأدنى قوة معناه أن الخسارة آتية بكل تأكيد، حالما تتكافأ القوى أو تكاد؛ أما التوسل بأسباب اللين والمرونة؛ لمواجهة الأقوى، فهذا طريق حافل بأعظم الوعود.» وقال لاودان [اللقب الرسمي للفيلسوف لاوتسي]: «الجيش الصلب منكسر، لا محالة؛ ذلك أن لوحًا من خشب يسهل تحطيمه كلما تصلب عوده. ليس سوى الأشياء اللينة الناعمة، هي التي يكتب لها البقاء طويلًا، أما كل ما هو صلب وقاسٍ، فلا دوام له.»

[١٨]

(اعلم أنه ...) قد تتعدد وتتباين الأشكال، ويأتلف الفهم؛ أو يتعدد الفهم، وتتحد الأشكال. إن القديسين يفضلون الائتلاف في الفهم عنه في الأشكال، بينما يفضل الدهماء الاتفاق في المظهر عنه في الحكمة والعقل. نحن نحب كل ما يتفق مع شكلنا، ونميل إليه؛ في حين نبغض وننبذ من كان مختلفًا.

إن مخلوقًا يبلغ طوله سبعة تشي [أقدام، تقريبًا]، وتختلف أقدامه عن يديه، وينبت في رأسه شعر، وفي فمه الأسنان ويستطيع الاتكاء والمشي، هو ذلك الذي يقال له الإنسان. وقد لا يخلو الإنسان من نفس حيوانية، لكنه رغم ذلك سيميل إلى من يتشابهون مع شكله من البشر.

وقد تنبت للأشياء أجنحة وتنمو في رءوسها القرون، ويصير لها في الفم أسنان، وفي اليد مخالب، فترفع رأسها تطير أو تنبطح زاحفة على أربع ويقال لها الوحشي والطير، وليس بالضرورة أن يخلو جوف الوحشي من روح الإنسان، لكنه مع ذلك؛ سينأى بنفسه عن البشر؛ ما داموا على غير شاكلته.

وقد كان «باو شي» [شخصية أسطورية، يقال بأنه أنشأ عائلات الإنسان على الأرض]، و«نيو يا» [شخصية أسطورية (امرأة) خلقت البشر من طين، وسدت ثقوب السماء، وأقامت السدود، وأبادت الوحوش؛ ليعيش الناس في أمان]، و«شن نون» [شخصية أسطورية، علمت الناس الزراعة والنسيج وصنع الفخار]، و«شيا هو» [منشئ أول قبيلة قديمة، قيل إن جد الملك «يو»، مؤسس أول أسرة ملكية صينية، وهي أسرة «شيا» ٢١٠٠–١٦٠٠ق.م.] من ذوي الرءوس البشرية وأجساد الأفاعي، وقد رُكِّب عليها قرون الثيران وأنوف النمور؛ فأجسادهم على غير الشكل الآدمي، لكن نفوسهم أعظم خلقًا وإخلاصًا. وكان الملك «جيه» [آخر حكام أسرة «شيا»، كان غشومًا طاغية]، والملك «تشو» [آخر حكام أسرة «شانغ»، اشتهر بالظلم وسفك الدماء]، والملك «هوان» [حاكم دولة «لو» في العصر القديم] والملك «مو» [حاكم دولة تشو، في الزمن القديم، ومغتصب الحكم من والده بعد أن اغتاله]؛ من ذوي الشكل الآدمي الخالص؛ من سيماء وآذان وأنوف وحواس؛ بيد أن باطنهم انطوى على نفس حيواني.

إن إصرار الناس على بلوغ أسمى دلائل الحكمة، باسم ملامح مشتركة بين بني الإنسان، مجرد عبث لا طائل تحته، وطريق بغير مستقبل.

لما اشتعل أوار الحرب بين «هواندي» (الملك الأصفر)، والإمبراطور «يان دي» [هو نفسه، «شن نون» إله الزراعة والنسيج] في ضاحية «بانشيوان»، كان هواندي قد اختار بعناية طليعته من الدببة والذئاب والفهود، والببر والنمور، مستخدمًا بيارق الألوية والكتائب على هيئة النسور والعقبان والصقور والحدآن، حيث أقحم الحيوان على ساحة حرب بشرية.

ومما يؤثر عن الملك ياو [أحد الأباطرة القديسين] أنه جعل «كوي» [قائد الموسيقى] مسئولًا عن الموسيقى الملكية، فلما جُذبت الأوتار ودُقت الطبول، رددت الأجواء إيقاع النغم فرقصت السباع مع الطير، ولما صدحت المعازف بألحان «شاو» التسعة، هبطت العنقاء من عليائها واهتزت نشوةً وطربًا؛ وهنالك سحرت الموسيقى وحوش البرية في أوكارها، وقد يتساءل المرء عن السبب في اختلاف روح الحيوان عن الإنسان!

للوحش والطير أشكال وأصوات مختلفة؛ فلم يجد البشر وسيلة للاقتراب من عالمهم، لكن القديسين، وقد أحاطوا فهمًا بالعلوم، ونفذوا إلى البواطن، فقد سعت إليهم الطيور والوحوش من مكانها مذعنة لأوامرهم، فساقوها أنَّى شاءوا.

إن للدواب فهمًا غريزيًّا مثل بني البشر؛ لأنهم يسعون أيضًا، للبقاء (الغريزي)؛ وبهذا المعنى فمطالبهم ليست أدنى من مطالب بني الإنسان؛ فالذكر والأنثى يتزاوجان، تحتضن الأم صغارها، ثم إنهم ينبذون السهول ويأوون إلى الجبال، ينفرون من البرد وينجذبون إلى الدفء، يعيشون في جماعات ويمشون حسب نظام معلوم، الصغار في الأعشاش والكبار في البراري، يتنادون للمأكل والمشرب معًا، ويسبلون ستر حماية للطاعم منهم، والشارب. وقد كان الإنسي والوحشي، في الزمان البعيد، يعيشون معًا، ويدفعون الخطر عن بعضهم بعضًا، ويرتحلون في صفوف واحدة؛ فلما كان زمان حكم الأباطرة، فزع الوحشي إلى الأماكن البعيدة، حتى إذا لبث الملوك في عروشهم، اختفت الوحوش ودأبت على الفرار؛ تجنبًا لما قد يقع عليها من وجوه الأذى والاعتداء. وقد قيل إن هناك عائلة تقيم بإحدى دول الشرق، يجيد أفرادها لغة ستة من الحيوانات الداجنة [الخيل، الأبقار، النعاج، الدجاج، الكلاب، الخنازير]، ولا بد أنهم اهتموا بهذا الجانب من المعرفة، حتى حازوا فيها مقدرة فريدة.

لم يغادر القديسون أمرًا من أمور الموجودات بأسرها، إلا أحاطوا بها علمًا، ومِن ثَم عرفوا لغات كثير من المخلوقات؛ حتى كانوا ينادون على الوحوش والسباع والطير، فتأتيهم سعيًا، حتى إذا مثلت بين أيديهم دربوها وعلموها من دروب العلم الشيء الكثير، فكان القديسون يعاملونها كأنها من بني البشر. ولهذا فقد كانوا، في البدء، يطوفون بعالم الخفاء (الأشباح)، ثم ينتقلون من ذلك المجال، إلى استقصاء أحوال البشر، وأخيرًا، فقد كانوا ينادون على الوحش والطير والهوام، فلا يسعها إلا أن تصدع بأمرهم، حتى زعم القديسون أن كل كائن جرت في عروقه الدماء وتنفس بمنخاريه الهواء، فهو مخلوق يحوز روحًا وعقلًا، غير متباين المزايا والصفات، إلا قليلًا. وإذ عرفوا ذلك، فقد ذهبوا في تعليم الوحش شوطًا بعيدًا، ثم لم يبخلوا عليها بشيء من أسرارهم.

[١٩]

قيل إن أحد معلمي القرود من أهالي دولة سونغ كان يحب تربية القردة، فاشترى عددًا هائلًا منها، وتعهَّدها بالتربية، لا سيما أنه كان يعرف أحوالها ويدرك مبتغاها، مثلما

كانت هي قد بدأت تفهم من إشاراته كثيرًا، وكان الرجل مقتصدًا في الإنفاق والمأكل والمشرب، بحيث يقدر على توفير متطلبات تدريب القردة، ثم ما لبثت الأحوال أن تفاقمت سوءًا، وضاقت سبل العيش، فأراد الرجل أن يقتر على القردة قليلًا، لكنها غضبت وازورَّت عنه، فتحايل عليها بالخديعة، قائلًا: «سأطعمكم من ثمار الفاكهة ثلاثًا في الإفطار، وأربع ثمرات في العشاء، فما رأيكم؟» فضجت القردة وماجت واحتد غضبها، ثم لبث الرجل ساكتًا لحظة، وقال: «على رسلكم، لا تغضبوا، سأعطيكم أربع ثمرات في الإفطار وثلاثًا في العشاء، لأجل خاطركم، فما قولكم؟» فهدأت وطأطأت رأسها القردة راضية وبدا عليها السرور، والفرق ليس كبيرًا بين الإنسان والقردة، عندما يتعلق الأمر بتوظيف القدرات الذهنية في خدمة أغراض الخداع والغواية، فالحكماء، مثلًا، يعرفون كيف يمارسون التأثير على جمهرة من الدهماء، بنفس النمط الذي استخدمه مدرب القردة؛ إذ يستطيع المرء أن يكشف القناع عن مشاعر الناس وقلوبهم وعقولهم بكل ما فيها من خير وشر وفرح وحزن، دون أن يخسر أي شيء، سواء بالاسم أو بالفعل.

[٢٠]

كان «جي شينزي» قد تولى مهمة تدريب الديكة لمباريات المصارعة التابعة للقصر الملكي، وذلك بأمر شخصي من الملك شيوان، حاكم دولة تشو الغربية، وحدث أن الملك سأل، بنفسه، عن مدى التقدم في تدريب الديكة، وعمَّا إذا كانت جاهزة للدخول في المباريات، فأجاب جي شينزي، قائلًا: «كلا، بل ما زالت الديكة تتصايح وتبدي من العنف ما لا يفيد في شيء.» وبعد عشرة أيام سأله الملك عمَّا إذا كانت الأحوال ملائمة، فجاء الرد: «كلا، بل أرى أنها ما زالت تنفعل وتبادر برد الفعل لكل استثارة من خصمها.» وبعد عشرة أيام أخرى، جاء الملك متسائلًا عن سير أحوال التدريب، فأجابه شينزي، قال: «لا أظن أنها جاهزة الآن لمعترك المصارعة؛ فهي مشحونة بالتحفز على مداه، وهذا غير مطلوب.» وكملت عشرة أيام، وكان الملك يستفسر عن الجديد، فأجابه المدرب، قائلًا: «هي الآن تكاد تكون جاهزة، فقد جئت بالديوك المنافسة، وهي تصيح موفورة النشاط والإقدام، لكنها بدت ثابتة الجأش كأنها قدت من صخر؛ لم تعد في حاجة إلى مزيد إعداد وتدريب بعد أن توفر لديها الاستعداد الممتاز، بالدرجة التي تحول دون الغلبة عليها من قبل الديكة المنافسة التي لن تملك أمام كل هذه الثقة إلا أن تفر هاربة.» [النصر بغير قتال ... مطلب الطاوية دائمًا!]

[٢١]

ذهب الفيلسوف «هويان» للقاء الملك «كانغ» [حاكم دولة سونغ، زمن الدول المتحاربة ٤٧٥–٢٢١ق.م.] فلما مثل بين يديه، دق الملك الأرض بقدميه وصاح في وجهه بصوت جهوري، قائلًا: «لست أميل لشيء سوى «القوة»، و«الإقدام»؛ ولا أبغض شيئًا إلا (ما يقال له ...) «العدل»، و«الإنسانية»؛ فماذا أعددت (في جعبتك) من نصائح وأفكار؟» فقال له الفيلسوف: «ماذا لو قلت لجلالتك إني أعرف طريقة تجعل القوة عقيمة بغير نفع، والاندفاع عاجزًا عن أن يؤتي ثماره، فهل تود أن تعرف ما هي تلك الطريقة، أم تغضي النظر عنها؟» فأجابه الملك قائلًا: «بل قل ما عندك، وإني لمتشوق لسماعك.» فقال له محدثه: «أن تجعل قوة خصمك عقيمة وضرباته بلا أثر، فقد جلبت عليه العار والإهانة (... وهو ما لا داعي له)، بيد أن هناك طريقة أخرى أفضل كثيرًا، وتتمثل في أن تضطر خصمك إلى أن يهاب مجابهتك، برغم قوته، ويقعد عن ضربك وإن كان مقدامًا؛ لكن مثل هذا المسلك من جانبه، لا يعني انتفاء فكرة البطش والعدوان في ذهنه؛ ولهذا فقد أعددت خطة ناجعة لمثل هذا الموقف، وهي خطة كفيلة بأن تنزع فكرة التبجح والبطش من قلبه، غير أن القضاء على بواطن البطش والعدوان، لا يعني إيقاظ مشاعر الحب والإيثار في أعماقه؛ ثم إني أعددت لهذا الأمر عدته، وتأملت طريقة (سحرية) يتواصى بها الناس بعضهم بعضًا بالحب ويتعاهدون على إيثارك والولاء لمجلسك، وتلك درجة أرفع من امتلاك القوة والجرأة وأسمى من كل ما سبق [كذا] فما رأي جلالتكم في هذه الوسيلة؟» وهنا قال الملك: «ذلك هو عين المطلوب.» وواصل «هويان» كلامه، قائلًا: كان كونفوشيوس، و«مو تسي»، على هذا النمط الجليل؛ ورغم أنهما لم يملكا الأراضي والثروات، لكنهما حازا مرتبة السمو والتقديس [حرفيًّا: الإمارة] وبلغا أرفع درجات الإجلال من غير ألقاب أو مناصب ملكية رفيعة. (واعلم، يا مولاي، أنه ...) ليس على الأرض رجل أو امرأة إلا قد مد عنقه وشب على أطراف قدميه، متطلعًا إلى هؤلاء الحكماء العظام، مقتديًا بتعاليمهم، متوسلًا بذلك إلى ما قد يعود عليه بالخير ووجوه النفع، فإذا صار لجلالتك مثل حظ أولئك الحكام القديسين (وأنت، الآن، تفوز بصولجان الملك) فسوف يتطلع إليك الناس في أقطار الأرض، ويبتغون لديك صلاح أمرهم، وقضاء حوائجهم، وحينئذٍ تصير إلى مرتبة لم يتبوأها أعظم الحكام [حرفيًّا: كونفوشيوس، و«مو تسي»]. «وهنالك أطرق ملك دولة سونغ ولم يعلق بشيء، بينما أسرع الحكيم هويان خارجًا من القصر، فالتفت الملك إلى رجاله قائلًا لهم: تكلم الرجل فأجاد وصوب فسدد؛ [حرفيًّا: تكلم الضيف كلمة، كانت قوة الحجة سديدة البرهان]، اشهدوا أني اقتنعت بما قال.»

الباب الثالث

تشو مو وانغ

周 穆 王

(الملك تشو مو)[1]

[١]

كان في زمن الملك تشو مو [يعني: الملك «مو» سليل أسرة «تشو»؛ فلقب الأسرة الملكية يسبق اسم الملك]، أن جاء أحد السحرة من أقصى غرب الممالك، فنزل ضيفًا على القصر الملكي، وكان قد اشتهر ببراعته في السحر؛ إذ كان ينزل في قاع النهر ويجلس وسط النار

---

[1] يتناول الباب الثالث، بصورة أساسية، موضوعين أساسيين: (أ) المجالات الفلسفية والفكرية الأربعة، وهي: «الشكل» (بمعنى، الجسم المادي للأشياء) و«التغير» (بمعنى، ما يطرأ أو ما يلحق بالأشكال المختلفة من تغير وتحول) و«الحلم» (بمعنى، المجال الذي ينشط فيه «الاتصال الروحي بعناصر خارجية») و«الشعور» (بمعنى، الاتصال المادي الملموس بعناصر خارج الجسم) والمغزى الأساسي في هذا الجزء يذهب إلى أن كل الأشياء ترتكز على أساس مادي، يضطلع بدور مهم في تحديد أسباب التغيرات التي تلحق بالتصورات النفسية والروحية، ونلمح في هذا الجزء، أيضًا، ظلالًا لتأملات، بسيطة وعرضية، ذات طابع مادي. (ب) التأكيد على معنى «اللافعل» (أو، كما اجتهد في تسميته بـ «الانخزال») أي الاعتداد بالنمط الطبيعي والفطري في الحياة والعمل، ومراعاة القواعد التي من صنع الطبيعة، وهي فكرة أساسية في التأملات الطاوية. يشتمل الباب على إحدى عشرة حكاية خرافية، في أماكن متفرقة من فصوله.

وقد ورد هذا الباب في إحدى الترجمات إلى الإنكليزية تحت عنوان «الأحلام»، ربما بسبب كثرة إشاراته التي تحمل دلالات تتصل، على نحو أو آخر، بفكرة تأمل العالم عبر منظور خرافي، لكن العنوان الأصلي، في النسخة القديمة المكتوبة بالصينية الكلاسيكية يرد كما أثبتناه في صدر هذا الباب.

(دون أن يحترق)، ويخترق أسوار الحديد والحجارة ويحيل الجبال الشواهق والتلال السامقة سهولًا تجري وسطها الأنهار ويجعل من المدن الآهلة بالسكان قرًى وضياعًا خالية من العمران؛ ويصعد في الهواء دون أن يسقط، وينفذ في الجدار الصلب بغير عوائق، قد أجاد من الحيل والقدرات الخارقة ما لا حصر له؛ فلم تقتصر عبقريته على التأثير في المادي الملموس (ذي كل جسم متعين ظاهر للحواس)، بل تمكن من النفاذ إلى باطن الوجود وأعمل فيه ألوانًا من التبديل، وصار الملك يتقرب إليه كأنه يسترضي إله السماء، وقام على رعايته والاحتفاء به، كأنه أحد ملوك الزمان، حتى إنه تخلى له عن أعظم قصوره الملكية؛ ليقيم فيه ضيفًا كريمًا، وقدم له أطايب الطعام [حرفيًّا: قدم له الثيران والضأن والخنازير]، وجاء له بأجمل الراقصات ليرفِّهن عنه، إلا أن الساحر لم يعجبه شيء من هذا كله، وعد القصر منزلًا حقير المنظر بغيض البناء، وازدرى الطعام وأشاح بوجهه عن الراقصات، متباعدًا عنهن بزعم أنهن دميمات الوجه منتنات الرائحة، فنقله الملك تشومو إلى مبنًى آخر، متين الجدران بهي الألوان، عظيم التشييد، متطاول الأركان، لا يجد النازل فيه عيبًا من أي وجه، وقد أنفق عليه الكثير حتى كادت الموارد تفنى. وبلغ القصر من بديع التشييد وعظيم الارتفاع أن صار يُسمى ب «جون تيان تاي» [المنصة السماوية]، وتخير من بنات «جنغ»، و«ويه» [دويلتان متاخمتان، اشتهرت إناثهما بالجمال] أجمل الجميلات، وقد نضحت أجسادهن بالعطور وتلألأت جباههن ببريق الألماس، من أعناقهن تدلى الحلي، وقد تأودت أعطافهن وهن يخطرن في ثياب من حرير، وتوردت خدودهن بحمرة حلوة وتكحلت أجفانهن بالإثمد، وتزين بأساور من ذهب، وفاح المسك حولهن بأذكى عبير؛ بينما عزفت الموسيقى أنغام: «تشنغ يون»، و«ليو ين»، و«جيو يون»، و«تشن لو» [أشهر وأعذب الألحان، قديمًا]، وبذل جلالته غاية الجهد لإمتاع الساحر النازل في ضيافته، وجعل يهدي إليه أجمل الثياب وأثمن العطايا، ويقدم له أشهى الطعام والشراب، دون أن يجد الساحر في كل ذلك ما يبهجه ويرضي نفسه، ولم يكن سكناه في القصر الجديد إلا اضطرارًا، ثم لم يمضِ وقت طويل حتى تقدم الساحر إلى الملك «مو»، مستأذنًا إياه في الذهاب إلى رحلة ترويحية، وعرض على جلالته مرافقته، فما كان من الملك إلا أن لبى الدعوة وذهب مع الساحر الذي حلق عاليًا في الفضاء والملك متشبث بأهداب ثيابه، فلما بلغا أقصى مدًى، وهما طائران وراء السحاب، توقفا ثم تقدما على مهل؛ ليدخلا قصر الساحر، فإذا جدرانه مطعمة بالياقوت، وثياب أهله من الألماس واليشب النادر. وكان موضع البناء فوق قمم السحاب، وقد انتصبت أعمدته وحيطانه راسخة في أجواز الفضاء، وليس لها قاعدة معروفة، أو كأن طبقات من السحاب بعضها

فوق بعض، تدعم أساس البناء الفخم فوق الهواء. والأشياء كلها، على نمط لم يخطر في بال إنسان، فلا عين رأت ولا أذن سمعت ولا أنف تشمم ولا فم ذاق مذاقًا مما يألف الناس في الدنيا. وشاهد الملك مواقع النعيم في جنات السماء، فتبدت أمام عينيه «تشين دو» [قصبة الصفاء]، و«تسي وي»، و«جون تيان»، و«قوان لي» [مواقع أسطورية لما تصوره القدماء جنات النعيم] وحدق الملك في مناظر الأرض، فإذا قصره المشيد بمقصوراته وأعمدته وأفنيته، يكاد لا يساوي شيئًا مما يراه في أعالي السماء، بل إنه بدا ككومة من القش أو الخرائب المندثرة، وشعر جلالته كأن الأيام قد طالت به في معراجه السماوي، وأن مقامه امتد لسنوات كثيرة، حتى نسي أمر بلاده. وجاء الساحر وطلب إلى الملك أن يتهيأ ليذهبا معًا في رحلة يطوفان فيها بمشاهد علوية، فلما انطلقا وتطلع الملك إلى أعلى، لم يرَ أثرًا للشمس أو القمر، ثم نظر تجاه الأرض من تحته، فلم يشاهد جبالًا ولا أنهارًا، فلما انبثقت أشعة من نور، زاغ بصر الملك وتحيرت مقلتاه، وإذا الأصوات في أذنيه صفير متصل، فاستولى عليه الخوف [حرفيًّا: تملك الخوف من أحشائه وقلبه] واضطربت نفسه للغاية، وتشوشت أفكاره، وتكدرت روحه؛ فطلب إلى الساحر أن يعود به من حيث جاء، فدفعه بيديه، فهوى من أعالي الفضاء، فلما أفاق من غشيته، وجد نفسه في مقعده وفي مكانه، والأشياء من حوله، كما هي والخدم وأفراد الحاشية يأتمرون بأمره؛ فتطلع أمامه، فإذا الخمر في الكأس لم ترُقْ بعد، للشراب؛ والطعام في الأطباق لم يبرد أو يجف؛ فالتفت الملك إلى الناس من حوله، متسائلًا عما حدث له، وإلى أين ذهب، ومن أين عاد، فقالوا له: «وجدناك قد غفوت قليلًا، وأنت جالس مكانك، منذ هنيهة.» فما إن سمع ذلك حتى زاد ارتباكه واشتد جزعه، وظل عليل النفس والبدن ثلاثة أشهر، استرد بعدها عافيته، ثم إنه ذهب إلى الساحر، وسأله عما حدث له بالضبط، فأجابه قائلًا: «كل ما هناك أننا ذهبنا معًا، في رحلة روحية، تأملنا فيها بأذهاننا بعض الأشياء، وما كان ممكنًا للأجساد أن تنتقل من مكانها (واسمح لي، بالمناسبة، أن أسأل جلالتك ...) هل تجد فرقًا بين قصرك والقصر الإمبراطوري (الذي رأيته في السماء)، وهل يوجد أي فارق بين حدائقك وحدائق القصور العلوية؟ [... أحسب يا مولاي، أنه ليس ثمة فرق!] وإني أراك تألف ما يتبدل من الأمور، فإذا مست يد التغيير شيئًا من الأشياء حولك، أصابك الاضطراب (إذن، فاعلم أن ...) التغيير لا نهاية له، والأحوال لا تثبت على قالب واحد أبدًا؛ فكل شيء يمضي إما سريعًا أو بطيئًا، وليس للسرعة أو البطء قاعدة ثابتة، بل هناك تقديرات متفاوتة.»

أنصت الملك مو إلى هذه الكلمات وهو منبسط الأسارير، منشرح الصدر؛ وصار من بعد ذلك زاهدًا في الترف واللهو مع المحظيات ونساء القصر، بل قد صرف النظر عن

عزة الملك وجبروت السطوة الملكية، وقام يتجول سائحًا في أقصى الأرجاء، وقد أمر بإعداد مركبة تجرها ثمانية أفراس [كذا]: في أدنى اليمين فرسان، هما أشهر خيوله خببًا، وقد أسماهما: «هواجي»؛ وفي أدنى اليسار آخران من أجود الخيل، هما: «ليوار»؛ وفي أقصى اليمين جوادان آخران، أسماهما «تشيجي»، وفي أقصى اليسار فرسان يسميان: «بايي» ثم جلس الملك في المقعد الأوسط، وإلى يمينه قائد المركبة. وكانت تتبعهم عربة (يجرها ثمانية خيول ...) في أدنى اليمين فرسان، هما: «تشيو هوانغ»؛ وإلى أدنى اليسار جوادان، هما: «يولون»؛ أما في أقصى اليمين، فكان يجرها فرسان يسميان: «شانزي»، وإلى أقصى الشمال جوادان آخران، هما: «تاولي». وقد جلس في مقعد القيادة «سانباي»، وإلى جواره مساعده «بنشيو». وانطلق الركب فاجتاز الأميال، حتى بلغ أرض «جيوسو»، واستقبل الأهالي الملك ورجاله بأعظم تحية، وقربوا له الكئوس، مترعة بـ دماء الإوز [كذا] فشرب الملك حتى ارتوى، ثم إنهم غسلوا أقدام الملك ورفاقه بحليب البقر (على سبيل الإجلال والتعظيم) وواصل الملك رحلته حتى استقر به المقام في وادي جبل «كون لون»، جنوب نهر «تشيشوي»، فما إن أهلَّ صباح اليوم التالي، حتى قام جلالته وأتباعه، فتسلقوا الجبل، وعند أعلى قمة أخذ الجميع يتطلعون، من هذا الارتفاع الشاهق، إلى قصر الملك، وعمدوا إلى الأحجار المتناثرة، فأقاموا منها كومة كبيرة، تذكارًا لمجيئهم، وعلامة يستدلون بها على ما بلغوه في هذه الرحلة، ثم نزلوا ضيوفًا على «شيوانمو» [الملكة الأم الأسطورية، ربة السطوة والنفوذ، ذات الصيحة العادلة، والشعر الفاحم المسترسل، بثغرها ذي الأسنان كفم النمر وذيلها القصير كذيل الفهد]، وملئُوا أكفهم بالماء من بحيرة «ياو» [بحيرة الجان] فشربوا وارتووا، وترنمت الملكة بأعذب الألحان، وغنت للملك أغنية أم تهدهد وليدها في المهد، وراح جلالته يردد النغم في صوت هادئ، فلما رأى الشمس قد مالت للمغيب، وكان قد أعياه طول السفر والترحال، تنهد قائلًا: «لم أنهل من الأخلاق الكريمة المنهل الحق، ولم آخذ منها بنصيب وافر؛ كم تلهيت وأفضت في المجون، ولا أظن أن سيخلفني إلا السائرون على درب أخطائي.» وكان أن تطهَّر الملك مو، حتى عاد كالملائكة، وحظي بعمر مديد، وعاش حتى تجاوز المائة، ولما رحل رحيل الموت، عرف الناس أنه قد عرج في الأعالي إلى جنة السماوات.

[٢]

ذهب «لاوتشنزى» [أحد نبلاء دولة سونغ، في العصر القديم] إلى «آينون» [أحد كبار الفلاسفة] ليتلقى أسرار العلوم (الطاوية) [الغيبيات] على يديه، لكنه بقي ثلاث سنوات

دون أن يكترث له، فلم يتعلم أثناء هذه المدة أي شيء مما أراد، فتقدم الطالب إلى الأستاذ راجيًا منه أن يبين له أوجه النقص أو الأخطاء التي ربما يكون قد وقع فيها فحالت بينه وبين أن يتعلم على يديه، ثم إنه أعرب عن يأسه ورغبته في العودة إلى بلاده، لكن الأستاذ تبسط ودعاه إلى الجلوس معه والحديث إليه، وحده، دون باقي التلاميذ، قائلًا له: «كان أستاذنا لاوتسين قد قرر، مرة، فيما مضى الذهاب في رحلة بعيدة، فبينا هو يستعد للسفر، التفت نحوي، وقال: «(اعلم) أن كل ذي شهيق وزفير، وكل من ارتسم فوق جوهره قناع ظاهر، فهو محض زيف ووهم خيالي، إن ما بين السماء والأرض، وما بين الين واليانغ، هو ما يقال له الحياة والموت. إن فناء بعض أجزاء الوجود وتطور أحوال الوقائع وتغيرها تبعًا لحركة الأشياء الظاهرة، هو ما يسمى التغير، ويُطلق عليه أيضًا العماء المجهول. إن غموض أسرار الوجود الطبيعي وعميق معمياته وقدراته وطاقته، كل ذلك، يتحدى محاولة استقصاء التفاصيل والوقائع وسبر الأغوار. إن تغيرات ظواهر الأشياء بادية لكل عين والقوى الكامنة في باطنها لا تستعصي عن الكشف، وكلها لا تلبث أن تزول بمجرد أن تتبدَّى ملامحها، (واعلم) أنه لن ينال فرصة دراسة السحر عندي، إلا من لاحظ أن الموت والحياة لا يختلفان في شيء عن تلك التقلبات والتغيرات السحرية التي تبدو للناس في حال الغموض والأسرار بكل خفائها ودقيق بواطنها، ونحن جميعًا، أنا وأنت جزء من ذلك الخفاء الغامض المنطمس في الخيال … نحن مجرد خيال، فما الداعي لدراسة أوهام وخيالات؟» ثم إن لاو تشنزي عاد إلى بلدته، وأخذ يتأمل، بعمق، فيما تلقاه من كلمات «آينون»، وإذا به قد نفذ إلى فهم بواطن أسرار الوجود والفناء، بل إنه استطاع أن يتحكم في دورة وتغيرات الفصول الأربعة، حتى إنه بلغ القدرة على أن يذيب الثلوج بحرارة الشمس في الشتاء، وأن ينزل الجليد في الصيف، وأن يجبر الطائر على السير زحفًا فوق الأرض، وأن يجعل الزواحف تطير إلى أعلى الأجواء، لكنه لم يحاول أن يبرز أو يكشف عن مقدرته الفريدة للناس، أو أن ينقل أسرارها إلى الدارسين، فمِن ثَم انقطعت علومه عن التواصل (وفي ذلك يقول لاوتسي:) إن المتمكنين من أسرار القوى السحرية الخارقة، لا تلبث طاقاتهم (اقرأ: طاويتهم) أن تؤتي ثمارها، بشكل ظاهر، فوق الأرض؛ وبرغم مما استوثق في باطنهم من القوى والطاقات الدفينة، فليس في ظاهرهم ما ينم عن اختلافهم في شيء عن الناس العاديين. وربما يكون ما سمعناه عن الملوك الأقدمين وقداسة الأباطرة، محض كلمات جوفاء، لا تحمل دليلًا على منتهى البراعة والعبقرية، كما قد يقال، بل ربما كان، فيما تنجزه قوة الإرادة والإقدام، بضعة من غموض السحر وخوارق المعجزات … (أنا شخصيًّا، لا أعرف السر وراء ذلك) فهل يعرف أحد السبب الحقيقي؟»

[٣]

للمستيقظ من نومه ثمانية أحوال، وللحالم في نومه ست إشارات تنبئ عن المكنون؛ فهلم نذكر الأحوال الثمانية: فأولها، (أن يجد المرء نفسه مقبلًا على ...) إتمام ما كان قد بدأ الاشتغال به من الأعمال؛ وثانيها، الشروع في نشاط جديد؛ وثالثها، إحراز النجاح في خاتمة جهد عظيم؛ ورابعها، النكوص عن جادة التوفيق؛ وخامسها، ارتسام علامات الحزن على المحيا؛ وسادسها، تهلل الملامح فرحًا وسرورًا؛ وسابعها، الاستمتاع ببهجة الحياة؛ وثامنها، الهلاك موتًا. (واعلم) أن تلك الأحوال تلخص ما يتبدى على الملامح الظاهرة من انفعال اللحظة التي تستقبل فيها النفس وارد عالم اليقظة عليها.

ثم ماذا عن أنباء الأحلام الستة؟ (تعالَ إذن، أقصها عليك ...) فأولها، حلم يغشى النائم في الأحوال المعتادة؛ وثانيها، حلم يراه النائم إثر شعور شديد بالخوف؛ وثالثها، حلم يتراءى للحالم بعد إجهاد ذهني عنيف وتفكير عميق؛ ورابعها، حلم يستكمله النائم بعد إفاقة عابرة؛ وخامسها، حلم إثر مشاعر مفعمة بالبهجة؛ وسادسها، حلم يحوم على الراقد وهو في إسار الرعب والقلق. فهذه الأحوال الستة تنشأ عن اتصال عالم الروح بمجال الإحساس الواقعي.

إن الجهل بما ينشأ عن اضطراب الأحاسيس والوجدان، يثير البلبلة والغموض، لا سيما إذا عرض أمر يستوجب الفهم والتعليل. (والعكس صحيح، أيضًا) إذا ما توافر الوعي بكيفية حدوث التغيرات الوجدانية، فعندئذٍ يزول كل غموض وإبهام.

(اعلم) أنه ما من علة تصيب البدن، أو عافية تفيض عليه — وما من ضعف ينال منه أو قوة تشيع في أوصاله — إلا كان لها جميعًا صلة بما يلحق الكون [حرفيًّا: السماء والأرض] من تغيرات، كما أنها تتأثر بالموجودات القائمة في الواقع؛ ولذلك كان من غلبت على طبيعته خصائص الـ «ين»، يحلم بأنه غائص بقدميه في أوحال الفيضان الجارف، وقد استولى عليه الفزع الشديد؛ أما من كان خاضعًا لتأثير الـ «يانغ»، فهو يحلم بأنه يصطلي باللهب، بينما يقتحم كومة عظيمة من النار؛ فإذا كانت طبيعة المرء تشتمل على درجتين متكافئتين من الـ «ين» والـ «يانغ»، معًا، فربما رأى في الحلم أنه يتصارع مع أنداد، فهو إما قاتل أو مقتول.

من تناول من الطعام كفايته، فهو يحلم بأنه يتكرم على الناس بالعطاء أو يتقدم لهم بهدايا ثمينة؛ أما من خلت معدته، فهو يحلم بأنه يستولي على أشياء الآخرين، وكان من أنهكه المرض يحلم بأنه يرتفع إلى السماء؛ أما من أصابه كمد أو حزن دفين؛ بسبب مرض عضال، فيحلم بالغرق وسط الماء.

من نام متوسدًا كومة ملابس، يحلم بالثعابين والحيات؛ ومن رأى الطيور وهي تحمل الريش في مناقيرها، فإنه يحلم بالطيران. ومن الناس من يرى في حلمه نارًا هائلة، إذا كان قد أقام قبيل النوم في أجواء باردة ملبدة بالغيوم؛ ويحلم بالطعام من أوشك أن تفتك به الأمراض والآلام؛ وكثيرًا ما تمتلئ أحلام مدمني الشراب بالأحزان والهموم؛ كما يحلم المغنون والراقصون بالبكاء والدموع. (وبناء على ذلك فقد ...) قال ليتزو: «إن الأحلام تنتج عن تلك اللقاءات (الصادمة) بين الروح وموجودات الواقع الخارجي؛ مثلما تنشأ الأحداث عن احتكاك الناس بشئون العالم (الموضوعي)، وهكذا تأتي أحلام الليل وهي تجادل أفكار النهار؛ وعلى هذا النحو، تتكيف الأرواح والأبدان، وفق طبيعة وظروف الاتصال بينهما.

إن أصحاب النفوس الهادئة والقلوب الخالية من الهموم، لا تطرق رأسهم بلبلة الأفكار ولا تزورهم في الليل الأحلام.

إن من أُشربت رءوسهم اليقظة والانتباه، لا يحتاجون إلى الثرثرة (فلا مجال للأحلام في ساحة الانتباه التام) واليقظة الواعية؛ تلك نتيجة حتمية تنشأ عن أحوال لها ضروراتها.

قد كان المتحققون بالطاو قديمًا، يقومون من فراشهم، وقد انتبهوا إلى كل شيء، إلا ذواتهم (... قد استغرقهم الطاو، فنسوا أنفسهم) وإذا ناموا لا يحلمون (هكذا، قيل) فهل يليق أن ننفي صحة هذا القول، بذريعة أنه مجرد كذب ولغو فارغ؟»

[٤]

في أقصى الجنوب الغربي، بلد لا تُعرف حدوده، ولا تتعين مواضع تخومه، يُقال له: «مملكة مانغ» ففي هذا الموطن، لا يأتلف الـ «ين»، والـ «يانغ»؛ لذلك لا يتميز الصيف عن الشتاء [حرفيًّا: لا تتميز البرودة عن الدفء] ولا يعرف ليل من نهار؛ لأنه لا تشرق هناك الشمس ولا يطلع القمر، ولا يرتدي الناس أردية، ولا يطعمون الطعام، ويطول بهم الرقاد (ثم إنهم) ينامون مرة كل خمسة عشر يومًا؛ ويرون في الأحلام الوقائع الحقيقية، وفي اليقظة الزيف والخيال؛ ووسط البحار الأربعة (الحدود من الجهات الأربع) تقع المملكة الوسطى، ويقال لها «تشون يانغ» [ذلك هو معنى اسم «الصين» حرفيًّا ... «المركز الأوسط»] وتتجاوز حدودها النهر الأصفر شمالًا وجنوبًا، كما تتجاوز جبال «تايشان» شرقًا إلى غرب، بما يبلغ عشرة آلاف «لي»، وفي هذه البلاد يتآلف الـ «ين» مع الـ «يانغ» فتتميز الأوقات حيث تنقسم السنة إلى فصلين: شتاء وصيف، وينشأ حد واضح بين ظلمة الليل

وضوء النهار، فيصير لليوم صباح ومساء، وينتشر بين الناس الذكي والعاقل، والجاهل والبليد، ويتكاثر كل شيء، فيتزايد الناس، وتتعدد طرائق العيش، ويقوم في المملكة قصر للملك وديوان للحكم والوزراء، يبسطون شرائع القانون فوق الجميع، وينشرون راية الأعراف والتقاليد، لصون العلاقات وحماية أواصر القربى بين الناس، حتى يعتاد الجميع طرائق في الفهم والعمل، على درجة هائلة من التنوع وفي نماذج متعددة (تتناسب مع تنوع الأمزجة)، بيد أن نظامًا يسود، فيلتزم الكل مواقيت معلومة في النوم واليقظة، وتصير جملة الوقائع التي يشهدها الناس حال اليقظة هي حقائق الوعي؛ وما يرونه في الأحلام هذاءات ليلٍ تراءت في المخيلة.

وفي أقصى زاوية الشمال الشرقي، بلد يُسمى «فولو»، تشتد فيه حرارة الجو للغاية، وتتركز أشعة الشمس والقمر هناك، على بقعة ضئيلة، وتنبت الأرض رديء الزرع والشجر، ويأكل الناس جذور الأعشاب وأوراقها؛ حيث يجهلون إنضاج اللحم على النار، وقد غلظت طباعهم، حتى استأسد القوي فيهم على الضعيف، فلا غلبة هناك إلا بالقوة الغاشمة، دون مراعاة للعدل والحق والفضائل، وهم جميعًا أيقاظ لا يهجعون، إلا قليلًا، ويمشون؛ إذا مشوا، هرولًا ونادرًا ما يخلدون إلى الراحة.

[٥]

كان الماجد «يين» — أحد سكان دولة تشو — ذا مال وأعمال وتجارة، وقد اتخذ لذلك عمالًا وأُجراء واصلوا الليل بالنهار في القيام بما أسنده إليهم، ولم يكن يمنحهم وقتًا للراحة، حتى إن أحد العجائز منهم كاد يُقضى عليه من كثرة الإنهاك، وبرغم ذلك، فقد كان الماجد لا يفتأ يطالبه بالمزيد من الجهد، فظل الرجل يئن طوال نهاره من وطأة العمل، حتى إذا جاء الليل وقع مغشيًّا عليه ثم ثقل النعاس في عينيه فنام مُجهَدًا، وعندئذٍ فقد كانت روحه تهيم في كل وادٍ، من ذلك مثلًا أنه كان يحلم في كل ليلة بأنه قد صار ملكًا، يتولى شئون البلاد تارة، ويقيم الولائم والمآدب في القصر الملكي تارة أخرى، حتى بلغ من اللهو والترف مبلغًا لا مزيد عليه، سواء بين الناس أو الملوك، ثم إذا به يستيقظ ويعود إلى العمل المضني، في خدمة سيده النبيل الماجد، صاحب الثروة والجاه، سامعًا مطيعًا في كل ما يأمره به. وكان الناس يواسونه في محنته عطفًا عليه لما كان يعانيه من شظف العيش والمشقة، وكان يقول لهم: «قد يعيش الإنسان مائة عام، يستهلك الليل نصفها بينما يستغرق النهار نصفها الآخر، وإذا كنت أعاني مرارة الكدح طوال النهار، فإني في الليل أستمتع ببهاء الملك متعة لا مثيل لها؛ وبالتالي، فلا يحزنني شيء.»

كان الماجد «يين» [تنطق كما في: «التليين»] منصرفًا، بكل طاقته، إلى إدارة أعماله وتجارته وشئونه المالية، وهي المسائل التي استولت على اهتمامه كله، حتى أصابه هو الآخر الإنهاك المفرط، فصار يخلد إلى النوم سريعًا، كأنما غشي عليه، كلما حل المساء، وفي الأحلام، يتهيأ له أنه أجير يقوم بأشق الأعمال، يكدح ليلًا ونهارًا، من دون راحة، والعمل مضنٍ بلا نهاية. وكم من مرة تعرض للسب والإهانة، بل الضرب والإيذاء، حتى تقطعت أنفاسه وهو يئن متوجعًا فيظل هكذا حتى يفيق من حلمه في الصباح، وضاق الماجد يين بما تراءى له في الأحلام وتكدرت نفسه للغاية، فقصد إلى صديق له، يطلب إليه المشورة، فقال له صاحبه: «لك من المكانة الكريمة والموقع العالي الشريف ما يضمن لك الجلال والرفعة؛ هذا بالإضافة إلى ثروتك الطائلة التي ترفع هامتك فوق أعناق الناس جميعًا، فإذا كنت تحلم في الليل بأنك عامل أجير (فهذا أمر طبيعي، يحفظ التوازن بين ...) رفاهية النهار ومعاناة الليل، وهو منطق التضاد المعهود بين كفتي الميزان (لكي تنعم بالنهار، فلا بد أن تجرب شيئًا من الشقاء في الليل، أثناء نومك ... على الأقل) أما إذا كنت تريد ليقظة نهارك وأحلام ليلك أن يشهدا لونًا واحدًا من السعادة التي لا مثيل لها، فهذا أمر يصعب تحقيقه (... أين يا ترى يمكن أن يتحقق لإنسان مثل هذا المطلب)؟» وبِناءً على كلام الصديق، فقد تأمل «يين» الموقف جيدًا، وأراح عماله من وطأة العمل المتواصل؛ بأن وضع للخدمة ميقاتًا معلومًا، وهنالك فقد تبددت هواجسه المضيئة وشواغل قلبه؛ وانزاحت أثقال الشقاء من تجارب النهار القاسية عند الأجير الكهل، وتراجع وخز الأحلام الكئيبة التي أثقلت أجفان أحلام الماجد «يين» في وقت واحد.

[٦]

كان أحد مواطني دولة «جنغ» في طريقه ليقطع الأشجار في البرية، عندما صادف أحد الغزلان، ويبدو أن الغزال ذعر لمرأى قاطع الأشجار، فأخذ يتلفت حوله متحيرًا، وعندما هم الرجل بالإمساك به فر هاربًا، فتبعه الرجل وطارده وقتله، وأراد أن يخفي الخبر عن الناس، فأسرع بدفن الغزال في أحد الجداول الجافة، وغطَّى جثته بأوراق الشجر، وارتاح جدًّا لهذه الفكرة، وصَفَت نفسه للغاية، وطوى الموضوع كله في صدره، وبعد فترة كان قد نسي موقع إخفاء جيفة الغزال، فظن أن الأمر كله كان مجرد كابوس ثقيل انتابه ذات ليلة، وطوال الطريق راح يدير الأفكار في رأسه، وهو يحدث نفسه بصوت مسموع، ولم يفطن إلى الرجل الماشي خلفه، الذي كان يتنصت عليه وسمع كل ما ناجى به نفسه، ثم إن

المتلصص استطاع أن يهتدي إلى مدفن الغزال، فنبش التراب واستخرجه وأخذه إلى بيته، وقال لامرأته: «كان أحد قاطعي الأخشاب بالغابة قد رأى في حلمه وهو نائم أنه اصطاد أحد الغزلان، لكنه بعد أن أجهز عليه أخفاه في موضع سري، ثم نسي الموضوع، واستطعت الوصول إلى الغزال المدفون وأحضرته معي، أفتكون هذه الواقعة قد حدثت في الحلم، كما تخيل الرجل الحالم؟» أجابته امرأته، قالت: «أتكون قد حلمت أنت بقاطع الأخشاب وهو يصطاد الغزال ويخفيه؟ أمعقول أن يكون هناك حقًّا، قاطع أخشاب أخفى غزالًا مقتولًا؟! أحسب أنك إذا أحضرت الغزال معك، فستتيقن أن الحلم انقلب حقيقة، أليس كذلك؟» فقال لها زوجها: «عمومًا، فما دام الغزال قد صار بحوزتي، فلماذا أتعب رأسي حول ما إذا كان الرجل هو صاحب الحلم أم أنا؟» عاد قاطع الأخشاب إلى بيته متحسرًا على فقد غزاله، ونام كمدًا، فتراءى له في الحلم، الموضع الذي أُخفى فيه الغزال، بل رأى أيضًا الرجل المتلصص الذي استولى عليه، فما إن طلع النهار حتى تتبع آثار الحلم واهتدى إلى الرجل سارق الجيفة المخبوءة، فتنازعا كلاهما واحتدم بينهما الخلاف، ورفعا الأمر إلى القضاء ليفصل في النزاع، فقال القاضي للرجل: «مع أنك كنت قد اصطدت الغزال، فعلًا، إلا أنك ظننت أنه مجرد حلم، ثم لما اهتديت إلى مكانه كما تراءى لك في المنام، تيقنت أنه الواقع، وبالنسبة لخصمك، فقد اهتدى حقًّا إلى مكان إخفاء الغزال، ثم جئت أنت ونازعته فيه زاعمًا أنه شيء خاص بك، لكن زوجتك تقول إنه لم يلتقِ بك ولا عثر على الأيل إلا في الحلم، وهذا كله معناه أن أحدًا منكما، لم يصطد غزالًا. أما وقد تنازعتما على جثة غزال ملقاة أمامنا، نراها رأي العين، فإني أحكم بأن تقتسماها سويًّا.» وبلغ هذا الأمر مسامع جلالة الملك حاكم دولة «جنغ»، فقال: «عجبًا، وكأني بالقاضي قد تراءت له تلك القسمة في أحلامه.» ثم إن الملك أحال الأمر إلى الوزير لينظر فيه، فقال وزيره: «لا أستطيع القطع بما إذا كان مثل هذا الحكم قد صدر في الحلم أم اليقظة، فهذا أمر لا يمكن تبيان وجه الحقيقة فيه إلا على يد اثنين فقط من بين الناس جميعًا، هما: جلالة الإمبراطور، وكونفوشيوس؛ وبما أن كليهما قد ماتا وشبعا موتًا، منذ زمن طويل، فلست أرى أحدًا من الناس يقدر على الوصول إلى نتيجة حاسمة تميز الحلم من الحقيقة، وهكذا، فلسنا نملك في الظرف الحالي إلا أن نقوم بتأييد حكم القضاء.»

[٧]

كان في مدينة «يانغ لي» الواقعة بدولة «سونغ» رجل يُدعى «هوانزي»، ومشكلة هذا الرجل أنه أصيب بضعف الذاكرة، وهو بعد في منتصف العمر؛ كان ينسى كل الأحداث

والوقائع: ينسى في المساء ما فعله في الصباح؛ وعندما يأتي صباح يوم جديد، يكون قد نسي ما جنت يداه في المساء السابق. ثم كان وهو ماشٍ على الطريق ينسى بغيته من المشي، فإذا عاد إلى منزله نسي أن يقعد لإتمام ما قد هم به من عمل، حتى إنه ما عاد يعرف أي الأمور انقضى وتم أداؤه، وأي المشاغل تبقى قيد الانتظار، بل إنه نسي ما فات في الماضي وما يتعلق بالمستقبل. وتشوش ذهنه للغاية؛ فلا عاد يعرف الفائت من اللاحق، وشعر أهل بيته بفداحة المأساة، وأصابهم الكرب، فطلبوا له كهنة القرابين والمنجمين دون فائدة، ثم استقدموا أمهر السحرة لتلاوة التعاويذ عليها تأتي بنتيجة، لكن حالته لم تتحسن قط، وأخيرًا، فقد لجئُوا إلى الطبيب عساه يداويه ويزيل عنه الداء الوبيل لكن المحاولة لم تثمر شيئًا.

وقيل إن أحد شيوخ الكونفوشية، من أهالي دولة «لو» [تُنطق كما في «السلوم»] أرسل إليهم زاعمًا أنه يقدر على شفاء مريض النسيان، ويعيد إليه حيوية ذاكرته. والحق أن زوجة «هوانزي» وأولاده لم يبخلوا بشيء في سبيل علاجه، حتى لقد باعوا ما يملكون من ثروة وأراضٍ؛ طلبًا للدواء والوصفات العلاجية (الشعبية)، وكان أن قال شيخ الكونفوشية: «إن مثل هذا الداء لا يحتاج إلى المنجمين وخبراء الطوالع الفلكية، كما أن العلاج بالسحر لن ينجح في إبراء العليل، بل إن أجود التركيبات الدوائية لن تأتي بنتيجة حاسمة. فدعوني أجرب، وسأحاول أن أتكلم معه وأنفذ إلى ضميره، وأبدل له أفكاره، وأحول مجرى تأملاته الذهنية؛ فبهذا وحده، يتحقق له الشفاء التام.»

ثم إن الشيخ الحكيم نزع عن الرجل ملابسه الثقيلة؛ وذلك على نحو مقصود، بهدف تعريض جسده لتيار الهواء البارد، وبالتالي يضطره إلى طلب الدفء، ومنع عنه الغذاء حتى أصابه الجوع، فصار يتلهف إلى الطعام ويلح في طلبه؛ وأجبره على الجلوس طويلًا في حجرة مظلمة، حتى إذا ضاقت نفسه بالظلام الحالك اشتاق إلى النور وسعى في طلبه. وراح الشيخ الكونفوشي يقول لأهل الرجل في ثقة ورضا: «ما أسهل أن يبرأ صاحبكم من علته، ذلك — بالنسبة لي — أمر هين جدًّا، لكنني أطلب بل أرجو منكم شيئًا واحدًا، ألا وهو التكتم الشديد على طريقة العلاج، وعدم إذاعة أي شيء مما يتصل بأساليبي العلاجية على الناس، فهي أشياء ورثتها عن أجدادي ولا يمكنني الإفصاح عنها؛ ولأني سأستمر الآن في بعض تلك الطرق العلاجية، فليتكم تتركونني بمفردي مع المريض، وتفصلون بيننا وبين كل تلك العيون والآذان المحيطة بي، فسوف أقيم معه مدة أسبوع.» وصدع الأهل بالأمر، وهم لا يعرفون الوسيلة التي سيلجأ إليها في علاجه لمريضهم، ولحسن الحظ،

فقد تم له الشفاء العاجل من مرضه الذي لازمه طويلًا. فلما استرد «هوانزي» صحته وقوة ذاكرته، انتابه غضب شديد، وانهال على امرأته باللوم والتأنيب، وهاج في البيت صارخًا، وبطش بأولاده، ثم تناول السكين وجرى وراء الشيخ الحكيم يريد الفتك به، ولم يهدأ إلا بعد أن أحاط به الناس وقيدوا يديه ورجليه، وسألوه: ما الخطب؟ فقال لهم: «كنت وأنا معدوم الذاكرة، أعيش في فراغ تام [كذا] لا أعرف ما الأرض ولا السماء؛ ولا كان يشغلني أن أعرف إن كان هناك أرض أو سماء، لكني الآن، وبعد أن وعيت كل شيء وعاودتني الأفكار [السوداوية] أصبح الفهم عبئًا قاسيًا، وهموم الماضي صارت ثقيلة الوطأة، فإذا بي أمام ذكرى سنوات من المكسب والخسارة، والحياة والموت، والحزن والفرح، والخير والشر؛ فتشابكت كل هذه الجوانب واختلطت فوضى الأشياء في رأسي، ولا أدري إن كنت في مستقبل الأيام سأجرب مرارة ذلك الخبال مرة أخرى، أم لا. إن أكثر ما أخشاه هو أن يرتبك ذهني أمام الخير والشر، والوجود والفناء، والأحزان والأفراح، والفوز والخسران؛ فيما يرد عليَّ من موارد الأيام القادمة، آه؛ ليتني أعود، ولو للحظة قصيرة، إلى الزمن الذي كنت فيه كثير النسيان!» ولما بلغ أمر هذه الحكاية مسامع «تسيكون» [تلميذ كونفوشيوس] استغرب جدًّا، وقص على كونفوشيوس الخبر، فقال له الحكيم الأكبر: «هذا أمر يغمض عليك استيعابه.» ثم التفت ناحية «يان هوي» [تلميذه] وأمره بتدوين تلك الواقعة.

[٨]

كان للسيد «بان»، المقيم بدولة تشين، ولد اشتهر بالنبوغ والذكاء، وظلت عبقريته مضرب الأمثال، وهو في مقتبل العمر وشرخ الشباب، حتى إذا بلغ أواسط سني حياته، خبا توقد ذهنه واختل عقله، وصار يأتي بتخليطات مضطربة؛ فكان إذا انطلق بجواره صوت المطربين، تهيأ له أنهم يبكون، وبدت الألوان البيضاء، لعينيه، كأنها سوداء، وإذا فاح العبير، ظنه رائحة منتنة، وكان يتناول الحلوى ويخالها مرة المذاق، وكثيرًا ما كان يقترف الأخطاء ويظن أنه يحسن صنعًا. وقد تشوش وعيه، فما عاد يدرك كنه الأرض أو السماء أو الشتاء والصيف أو النار والماء، أو الاتجاهات ومسارات الأشياء. وهنالك تكلم السيد «يانغ» مع والد الشاب المعتوه، قائلًا: «هناك كثيرون ممن يملكون القدرات السحرية من أهالي دولة «لو»، ولعلك واجد بينهم من يشفي ولدك، فاذهب إليهم وجرب طرائقهم.» فقام والد المريض وقصد إلى، حيث أشار إليه الرجل، باحثًا عن العلاج الحاسم للداء،

فبينا هو على الطريق، مارًّا بدولة «تشن»، إذ صادف لاوتان [لاوتسي، بلقب آخر]، فتكلما معًا، وتطرق الرجل في حديثه إلى مرض ولده، فقال لاوتان للأب الحزين: «وما يدريك أن ابنك مخبول؟ (ألأنه لا يفرق بين الخطأ والصواب!) انظر إلى الناس الآن، إنهم أيضًا لا يفرقون بين الخطأ والصواب، ولا هم يبصرون أوجه النفع والاكتساب، ويتناءون عن الضر والخسارة، والمبتلون بتلك الآفة هم الجم الغفير من الناس، وأقول لك الحق، لم يعد الآن أحد يملك وعيًا أو دراية [حرفيًّا: الكل فاقد الوعي] ومع ذلك، فلن تجد بينهم من يستطيع أن يصلح شأن جماعة من الناس، ولن تستطيع جماعة من أولئك المخبولين أن تصلح شأن مدينة حمقاء، ولن تقدر مدينة حمقاء أن تعيد مملكة إلى صوابها، ولن تملك مملكة من المجانين أن تداوي العالم من شرور عقله، وإذا فقد العالم كله عقله، فمن ذا يستطيع أن يزيل عنه مس الجنون، ويهديه إلى الرشاد؟ وإذا افترضنا أن البشرية قد ورثت عن أجدادها ميراث الهذيان والجنون والتخليط، من ذلك النوع الذي أصاب ابنك في عقله، فلا بد أنك أيضًا مصاب بشيء من ذلك الداء. إن الفرح والألم، والصواب والخطأ، والعطر والدخان [كذا]، كلها لا سلطان لأحد عليها. تلك أمور لا تنصلح أو تفسد بالإرادة. ثم إن كلامي، هذا، الذي أقوله لك لا يسلم من الخبال وعوارض الهذيان، ولا أظن أن القوم من أهالي دولة لو، إلا شر المجانين على الأرض كافة، فأنى لهم أن يحلُّوا عقدة الذاهلين وأنى لهم بعلاج العقول المضطربة (بينما عقولهم أبشع اضطرابًا)، هيا قم واحمل مخلاتك وعد بأسرع طريق إلى بيتك.»

[٩]

كان أحد أهالي مملكة يان، ممن قضوا سني النشأة الأولى على أرض الوطن، قد هاجر إلى دولة تشو، حيث استقر به العيش حتى الشيخوخة، ثم أراد الرجل، وهو في هذه السن، أن يعود إلى مسقط رأسه، فقام وشرع في السفر، فبينا هو على الطريق، بعد أن دخل حدود دولة جين، بدا لمرافقيه في السفر أن يمازحوه، فأشار أحدهم إلى سور المدينة قائلًا للشيخ: «تلك هي عاصمة دولة يان.» فراح الشيخ يتطلع، من بعيد، إلى المدينة في شجن وإجلال، ثم أشار المرافق ثانية، نحو معبد القرابين قائلًا: «وذلك هو المعبد الكبير.» فتأوه الشيخ في خشوع، ثم أشار الساخر إلى بعض المنازل قائلًا: «وتلك هي دار أجدادك، في تلك الناحية.» وهنالك، انهمرت دموع الكهل وانتحب بصوت مسموع، وأخيرًا فقد أشار العابث نحو مقبرة على الطريق، قائلًا للشيخ المخدوع: «وتلك هي مقبرة أجدادك.» فعظم

بكاء الرجل للغاية، وعندئذٍ سكت المرافق قليلًا، ثم ضحك عاليًا وهو يقول للمنتحب: «إنما كنت أمازحك، وليست هذه دولة يان، بل هي مملكة جين.» فخجل الشيخ؛ إذ انطلت عليه المزحة، فلما نزل أرض يان وعاين سور المدينة ومعبدها الكبير ومقابر أجداده، كانت مشاعر الحزن والتأثر قد تراجعت كثيرًا عن ذي قبل.

الباب الرابع

جونغ ني

仲 尼

(رأس الحكمة)[1]

[١]

لزم كونفوشيوس الإقامة في بيته، فترة من الزمن، فمر به تلميذه «تسيكون»؛ ليعينه على قضاء حاجاته، لكن المعلم الأكبر بدا كاسف البال متجهم الوجه. فلما رآه تسيكون على هذه الحال، تردد في أن يحادثه، وخرج سريعًا وأخبر زميله «يان هوي» بما رأى، فأسرع هذا إلى قيثارته، فتناولها وبدأ العزف، فلما تناهى الصوت إلى كونفوشيوس نادى على يان هوي، فخف إليه فسأله، قائلًا: «ما لي أراك مبتهجًا، وحدك دون الجميع؟» فرد يان هوي

[1] يكاد يتشابه محتوى هذا الباب مع النص الوارد في باب «هواندي» (الإمبراطور الأصفر)، فالفكرة العامة في كليهما تدور حول نقطة أساسية، هي «معرفة الطاو»؛ وإذا كان مضمون باب هواندي يتناول الشروط والوسائل التي يمكن بموجبها الوصول إلى الدرجة التي تعين على فهم دقائق الطاو، من خلال التأمل النفسي والذهني العميق، فإن الباب الرابع يركز على الكيفية التي يتم بها التمكن من الإحاطة بالمزيد من جوانبه المعرفية. على أن أي محاولة لاستقصاء جوانب الطاو، تستلزم التخلي عن الوسائل الشعورية والحسية التي تعوق الوصول إلى «معرفة غير محدودة» تستقصي روح الطاو وتستجلي دفين معانيه.

ويشتمل هذا الباب على ثلاث عشرة حكاية خرافية، كما يرد المتن، أساسًا، تحت عنوان «جوني»، (وهو لقب كونفوشيوس) أو عنوان «ذروة الحكمة»، وهذا الأخير هو العنوان الذي اخترته للنسخة العربية من الكتاب.

على سؤال أستاذه، بأن سأله بدوره: «ولماذا أراك، يا سيدي، منفردًا دون الجميع، بكل ملامح الحزن البادية على ملامحك؟» فأجابه كونفوشيوس، بقوله: «أجبني أنت أولًا، بما عندك.» فقال له: «كنت قد وعيت ما علمتني إياه، فيما مضى؛ إذ قلت لي: «لن يحزن قلب رضي بقدر السماء وفرح بما آتاه.» فلذلك اجتهدت في أن أجرب مشاعر السعادة.» وهنالك زاد تجهم وجه كونفوشيوس، وران عليه الصمت، ثم قال: «أقلت أنا مثل هذا الكلام؟ أراك قد أخطأت فهم قولي الذي، ربما، صدر عني فيما سلف من الزمان، وإن كان لي أن أتحدث بشيء أزيل به سوء الفهم، هذه اللحظة، فإني أقول لك إنك فهمت المعنى على اعتبار ما يتوجب على المرء من تجنب الوقوع في دائرة الحزن «رضاء بما قسمت له السماء.» لكنك نسيت أن «الفرح بما قسمت لك الأقدار، والرضا بأمر السماء» ينطوي على أحزان تنوء بها الصدور، ذلك ما أود أن تلتفت إليه. وإذ تأخذ نفسك بالتهذيب وعقلك بالحزم والتدبر، ويتساوى لديك رغد الحياة مع شظف العيش، وتفهم معنى البقاء والفناء، وترى المقادير والتحولات تسلك طريقها بغير إرادة منك، ويتنقى قلبك من كدر التقلبات؛ يتبدى لك المعنى الذي أشرت إليه من «التنائي عن الأحزان؛ لما سبق من الرضا بأحكام القدر.»

قد كنت، فيما مضى أرتب الأبواب والفصول من نصوص «كتاب الشعر القديم»، وكم حققت ونقَّحت وهذبت من نصوص «كتاب التاريخ»، وراجعت وضبطت قواعد الأعراف وقواعد الموسيقى؛ بهدف اتخاذها، جميعًا، معايير لـ «ضبط أحوال الممالك» فتبقى ميراثًا متجددًا للأجيال، دون الاقتصار على ما أستفيده منها في تهذيب النفس، وتنمية كمالات الخلق، أو حتى، الاكتفاء بما يصلح شأن دولة لو [مسقط رأس كونفوشيوس]، ومع ذلك، فها هي ذي بلادي قد تسرب إليها الفساد، وانهدمت أركان الأخلاق بين ملوكها ووزرائها، وتلاشت ثوابت الرحمة والعدل، وتضاءلت مساحة الود والإنسانية بين أهلها. إن تصورات المجتمع المثالي يتعذر تحقيقها في بلد واحد، وفي زمان أعيش فيه ومعي تلاميذي الكثيرون، فكيف إذن نتوجه بها إلى الدنيا بأسرها وإلى أجيال قادمة وزمان لم يأتِ بعد؟ بل كيف نتوقع الأخذ بها ووضعها موضع التطبيق؟ أتأمل وأفهم لماذا لم تستطع كل الكتب التي حققتها: «كتاب الشعر القديم»، «كتاب التاريخ»، «النظم الاجتماعية»، «قواعد الفن والموسيقى»، أن تضبط شئون العالم وتفرض النظام؛ لكنني أجد نفسي عاجزًا في الوقت نفسه عن فهم الكيفية التي يمكن بها القيام بإصلاح جذري؛ فذلك هو ما قصدت إليه عندما تحدثت عن الهموم والأحزان التي تنطوي عليها عبارة «الرضا بأقدار السماء» [حرفيًّا: الفرح بما سيرته الأقدار] وبرغم هذا كله، فما زلت أحفظ الجوهر الأعمق، ما زلت

أتشبث بالوعي الأصيل للحقائق؛ لذلك أقول بأن ما نفهمه الآن من معنى «الرضا بأقدار السماء» يختلف عما كان يقصد إليه القدماء من تلك المقولة.

إن التنائي عن الفرح والمعرفة هو عين الفرح وقلب المعرفة، وعلى ذلك، فلا مجال للفرح أو الرضا أو المعرفة أو الحزن، بالدرجة التي ينتفي معها الفعل ويزول كل عمل. فهل ثمة موجب لإغفال ذكر الكتب والمبادئ الكبرى «كتاب الشعر القديم»، و«كتاب التاريخ»، والنظم الأخلاقية، وقواعد الموسيقى؟ وما الداعي إلى تعديلها؟ وهل لذلك فائدة؟»

لما سمع يان هوي هذه المناقشة المطولة، توجه إلى أستاذه قائلًا بكل احترام: «وأنا الآن قد وعيت، أيضًا، مغزى مقولة «الفرح بأقدار السماء».» وخرج من عند أستاذه ليقص ما حدث على مسامع تسيكون الذي لم يفقه شيئًا مما دار، فلما رجع إلى بيته جلس يتأمل بعمق، تلك الأفكار وراح يُعمل النظر والتدبر؛ حتى تجافى عنه النوم وزهدت نفسه الطعام وأصابه الهزال. وفيما بعد، فقد حضر إليه يان هوي؛ ليشرح له ما غمض عليه من المعنى، وعاد يان هوي إلى حلقة الدرس عند كونفوشيوس، وصار يعزف على الأوتار ويلقي الأشعار ويشدو بمقاطع من كتاب الشعر القديم وكتاب التاريخ، وبقي على ذلك، حتى بلغ من العمر أرذله.

[٢]

سافر أحد كبار رجال دولة تشن إلى مملكة جين، والتقى هناك، بصفته الشخصية غير الرسمية، مع السيد «شو سون» [وهو أحد أهالي دولة لو] فابتدره هذا قائلًا: «من حسن حظنا أن يقيم في بلدنا رجل من القديسين.» فقال القادم من دولة تشن: «لا بد أنه كونفوشيوس، أليس كذلك؟» فقال له السيد شو سون: «وكيف عرفت أنه قديس؟» فأجابه، قائلًا: «كنت أسمع تلميذه يان هوي، وهو يقول: يستطيع أستاذنا كونفوشيوس أن يعتمد في الإدراك على حواسه الجسمية دون إعمال طاقته الذهنية، ونحن عندنا في بلادنا رجل من القديسين كذلك.» فلما سأله محدثه عمن يكون أجابه الزائر قائلًا: «إنه تلميذ لاوتان [لاوتسي] الذي يُدعى «كنغ سانزي»، وقد أحاط علمًا بأسرار الطاوية على يد لاوتسي، حتى صار قادرًا على أن يرى بأذنيه ويسمع بعينيه.» فاندهش رجل دولة لو، وأرسل أحد ثقاته يدعوه إلى ضيافة كريمة، فقبل الرجل الدعوة، وحضر في الموعد، واستقبله مضيفه بكل حفاوة وتواضع، وسأله أن يعلمه مما عنده، فقال له: «لا تصدقنَّ ما يشاع عني من الأقاويل المبالغ فيها، ولئن كنت أستطيع أن أرى بعيني وأسمع بأذني؛

فهذا لا يعني أني بدلت وظيفتيهما.» فقال له محدثه: «لكن ما تقوله يثير مزيدًا من الدهشة، فكيف صارت لك تلك المقدرة الخارقة؟ [حرفيًّا: الفن الطاوي] ليتك تجيبني عن كل ما سألتك، فأنا مصغٍ إليك.» فقال كنغ سانزي: «قد اتفقت حواسي كلها مع عقلي، واستجاب عقلي لداعي العنفوان وقوة الروح، ودأبت روحي على التلاقي مع ذلك الملاء الكوني المهول، وهي درجة لا يبلغها امرؤ إلا إذا تدافعت إليه كل همسة، ولو ضئيلة في فراغ الكون الكبير، من أقرب المسافات إلى أقصاها، حتى إذا لامست هدب الإحساس، اتصلت بمجال الوعي بكل أطرافه، فلا أدري حينئذٍ إن كانت واردات أشياء العالم الخارجي تفيض على طاقات الذهن، أو مدركات الحس هي التي تطل على الدنيا باستقصاء حال الوجود. فكل ما يعتريني، وقتئذٍ هو ما أجده من شعور طبيعي بالأشياء يواتيني على غير إرادة مني.» كان مسئول دول لو ينصت إليه بكل شغف، وكان أن نقل ما دار بينه وبين كنغ سانزي، وما رآه بعينيه إلى كونفوشيوس، فما كان من المعلم الأكبر إلا أن ضحك طويلًا، دون أن يعلق بشيء.

[٣]

التقى «تاي تساي» [أحد كبار المسئولين بدولة سونغ، في العصر القديم] بكونفوشيوس، فسأله قائلًا: «قل لي يا كونفوشيوس، أأنت فيلسوف قديس حقًّا؟» فأجابه كونفوشيوس قائلًا: «لا يجسر لساني أن يقول بأني قديس، لكني أقول لك بأن كونفوشيوس على قدر لا بأس به من المعرفة.» وراح الرجل يسأله ثانية: «وهل الملوك الثلاثة قديسون أيضًا؟» فأجابه: «قد برع ثلاثتهم في انتخاب أقدر الناس وأكفأهم وأوسعهم حيلة وشجاعة (للقيام بمهام السلطة) لكني لا أعرف إن كانوا (بموجب هذا التصرف) قديسين أم لا؟» ثم سأله مرة أخرى قائلًا: «وهل الملوك الخمسة قديسون؟» فأجابه الحكيم قائلًا: «قد اشتهروا بانتخاب أعظم الرجال خلقًا واقتدارًا، لكني لا أعرف إن كانوا قديسين أم لا؟» وسأله السائل قائلًا: «وهل الأباطرة الثلاثة قديسون؟» فقال له المعلم العظيم: «قد اشتهر ثلاثتهم باختيار أنسب الناس وأكثرهم إخلاصًا، لكني لا أعرف إن كانوا قديسين أم لا.» ودهش تاي تساي للغاية، وقال لـ «كونفوشيوس»: «فمن القديس إذن؟» فتغير وجه الحكيم الأكبر وصمت قليلًا، ثم قال لمحدثه: «في الجهات الغربية قديس ينصلح به شأن البلاد (فلا تضطرب الأحوال حتى من دون محاولة لفرض النظام) ولديه القدرة على أن يشيع الثقة في قلوب الناس، دون أن ينطق بكلمة، وقد سار الناس على نهج الفضيلة والاستقامة،

دون أن يعظهم بشيء من ذلك، فتلك درجة عظيمة من الحكمة والجلال، لا يملك الناس إزاءها حدًّا مكينًا للتعبير عن امتداحهم ورضاهم عن ذلك الحاكم الذي لا أبالغ إذا قلت إنه هو القديس بحد ذاته وأكمل صفاته؛ لكنني لا أعرف في قرارة نفسي إن كان ذلك هو القديس حقًّا أم لا!» واستغرق الرجل القادم من دولة سونغ في نوبة من التأمل والصمت، ولعله كان يقول في قرارة نفسه: «لا أظن إلا أنك تمكر بي يا كونفوشيوس!»

[٤]

ذهب «زيشيا» إلى أستاذه كونفوشيوس، وسأله قائلًا: «ما رأيك في تلميذك يان هوي؟» فأجابه بقوله: «أراه أشد حبًّا للفضائل (بدرجة تفوقني كثيرًا)!» فسأله زيشيا ثانية: «فما رأيك في تسيكون؟» فأجابه قائلًا: «أرى أن فصاحة دوانموسي [لقب تسيكون] أبرع مما لديَّ، أنا نفسي، من أسرارها.» ثم سأله السائل: «فما رأيك في زيلو، إذن؟» فأجابه قائلًا: «إن جونيو [لقب زيلو] قد بلغ من الشجاعة مبلغًا لم أصل إليه بعد.» فانطلق محدثه يواصل أسئلته، قائلًا: «فما رأيك في زيجانغ؟» فأجابه الحكيم بقوله: «إن مرتبة جوان سونشي [لقب زيجانغ] من الوقار والمهابة أعظم مما استطعت أن أبلغه.» وهنالك قام زيشيا واقفًا يريد الانصراف، وقال لـ «كونفوشيوس» في أدب جم: «فما دام هؤلاء قد حازوا الصفات الشريفة، فلماذا يقومون على خدمتك ويأتمرون بأمرك، ويعدونك أستاذهم الجليل؟» أجابه المعلم الحكيم قائلًا: «فهلا جلست أشرح لك الأمر بكل وضوح؛ (ألا فاعلم أنه ...) إذا كان يان هوي محبًّا للفضائل، فهو قليل الصبر؛ وإذا كان دوانموسي فصيحًا، إلا أنه قليل الهدوء كثير الضجر؛ وصحيح أن جونيو على قدر من الشجاعة لكنه المقدام الذي لا يجيد المداراة والتراجع والإيثار؛ ولا شك أن جوان سونشي رجل جليل القدر، متزن، رشيد الرأي، لكنه قليل الود والبشاشة. وإذا اجتمع الأربعة ووضعوا مزاياهم جميعًا على صعيد واحد، وأرادوا أن يستبدلوها بما عندي لرغبت عن ذلك؛ فإنما يأتي القوم إليَّ، عن طيب خاطر؛ تبجيلًا واحترامًا، ويستمعون إليَّ ويتخذونني أستاذًا ومعلمًا، بكل حب وإخلاص.»

[٥]

لما أنهى ليتزو دراسته على يد «هو شيو تسي لين»، تعرَّف إلى «بوهن ماورن» واتخذه صاحبًا، ثم إنه اختار مسكنه بأحد المناطق الواقعة جنوب ضاحية المدينة، ومع الأيام كثر

مريدوه وتلاميذه، وصار عددهم يتزايد بلا حصر، ورغم الأعداد المهولة من الدارسين، إلا أن ليتزو لم يبخل عليهم بشيء من علوم وأسرار فنون الطاو، بل كان يحثهم على المناقشة والجدل ساعة بعد أخرى، حتى ذاع صيته (... في القريب والبعيد).

وقد ظل ليتزو و«نانكو» متجاورين في المسكن (لصق الجدار) مدة عشرين عامًا، دون أن يتبادلا الزيارة، وكلما التقيا على الطريق، تجاهل كل منهما الآخر، حتى ظن التلاميذ أن بينهما عداوة وبغضاء.

وتقدم إلى ليتزو أحد التلاميذ (من أهالي دولة تشو) ليقول له: «قل لي يا سيدي، ما سر العداوة القديمة بينك وبين جارك نانكو؟» فأجاب ليتزو، قائلًا: «إني أراه رجلًا قوي البنية؛ لكنه سقيم الذهن، شديد الغباوة، قد سُدت أذناه عن السمع، وأغلقت عيناه عن النظر، وفمه عن حلو المنطق، وقلبه عن التأمل، وملامحه عن الانفعال. فما الذي يدعوني إلى مصافاته، ومع ذلك، فسوف أحاول. وسأصحبك معي في زيارتي إليه.» وانتخب ليتزو أربعين فردًا من تلاميذه؛ ليكونوا في صحبته وهو في زيارة جاره نانكو، فلما ذهبوا إليه، وجدوا أنفسهم أمام رجل كتمثال من صلصال، لا سبيل إلى التقرب إليه ومصادقته، ثم إنه التفت وتطلع إلى ليتزو، وبدا كما لو كان عقله وروحه في وادٍ، وجسده في وادٍ آخر. ولم تمضِ سوى لحظة، حتى كان نانكو يشير ناحية أحد تلاميذ ليتزو ممن يجلسون في آخر الصفوف، وراح يتحدث إليه وقد انبسطت أطرافه وتدفقت كلماته ونشطت حركته، وزاد تألقه؛ كأنه متسابق في إحدى المساجلات الفاصلة، فاندهش التلاميذ، وعقدت الدهشة ألسنتهم، لكنهم عادوا إلى المسكن، وملامحهم مغلفة بألوان من الهواجس وعلامات من التعجب، فقال لهم ليتزو: «إن من تحقق بجوهر الباطن وأدرك حقائق النفس، يستغني عن حديث الفم. إن من تمكن من أبطن بواطن الفهم لن يحتاج إلى قول، وعندما يصبح انتفاء اللغة لسانًا ناطقًا مبينًا؛ فذلك أيضًا نوع من اللغة، وعندما يصير التعامي عن المعرفة، هو نفسه معرفة بكل ما في عالم الظواهر، فذلك أيضًا ضرب من المعرفة، إن الصمت انتفاء كلام، وخلاء المعرفة انتفاء معرفة؛ غير أن (مثل هذا الصمت والتعامي عن المعرفة هما؛ بحد ذاتهما) ... جوهر الكلام وقلب المعرفة.

وإذن فعندما لا يكون هناك ما لا يقال، ولا يكون هناك ما لا يعرف، تصبح اللغة هي ما لا يقال، وتصبح المعرفة هي ما لا يعرف. ذلك هو ما يجعل الأمور معقولة على نحو منطقي؛ ففيمَ دهشتكم واستغرابكم؟»

[٦]

ذهب ليتزو ليتلقى العلم على يد السيد «لاوشان» فبقي يدرس عنده ثلاث سنوات، وفي ختامها بقي حريصًا على ألَّا يحفظ، في قلبه، شيئًا من النماذج الجامدة لما هو صحيح وباطل، وحجب لسانه عن الخوض فيما هو ضار أو نافع؛ بينما كان أستاذه لاوشان يجلس قريبًا منه، ويرمقه بنظرات فاحصة، فلما انقضت خمس سنوات، كان الدارس قد نقَّى باطنه عن التفكير فيما هو صواب وخطأ، وظل لسانه معتصمًا عن الحديث فيما هو ضار ونافع [في قواعد الآداب الكونفوشية ... يعني] وهنالك تهلل وجه المعلم لاوشان فرحًا؛ ولما مرت سبع سنوات، كان يطلق العنان لأفكاره، فلا يزغ قلبه، ويخوض في كل قول، فلا يفرط لسانه، مما حدا بالأستاذ أن يتكرم عليه بالجلوس إلى جواره، فلما كان العام التاسع، بلغ إلى حال كانت فيها شطحات الخاطر وهفوات اللسان (حتى في أقصى حدودها المتطرفة ...) تنبو عن ذكر ما لم يكن ينبغي له أن يتطرق إليه. وصار جسمه وعقله جزءًا تامًّا من الكون (من الطبيعة الكبرى، التي لا مجال فيها للخطأ والصواب أو النفع والضر) فصارت عينه كالأذن تصيخ السمع، وباتت أذناه، كالأنف والأنف كالفم. وأصبحت كلها كحاسة واحدة، لا فرق بين واحدة منها، وقد ائتلف قلبه وعقله، وامتزجت أعضاؤه وتناغمت عظام بدنه؛ حتى لم يعد للجسد وطأة أو ثقل، ولا للقدمين موطئ، ولا للقلب تقلب أفكار، ولا للغة خفاء معنى وإشارات ضمنية. فكان مقامه بتلك الحال، حتى أحاط بكل شيء فهمًا وعلمًا.

[٧]

كان ليتزو، في وقت مبكر من حياته، يحب التجوال والتنزه، فسأله هو شيو تسي، قائلًا: «أراك تحب الترحال يا يوكو [لقب ليتزو] فقل لي ما الذي يعجبك في هذه الهواية؟» فأجابه بقوله:

> «أجمل شيء في الرحلة والسفر هو أن المرء يتمتع بمشاهدة أشياء جديدة باستمرار. ربما كان الآخرون لا يفوزون بهذه المتعة مثلي، فهناك من يذهبون للترحال، ويكادون لا يهتمون بملاحظة الأشياء من حولهم، أما بالنسبة لي، فأنا شديد الحرص على الملاحظة والوقوف على تطورات الأشياء وتغيراتها عبر أحوال مختلفة، تلك هي الرحلة الممتعة، في نظري، ولا أظن أن هناك من يستطيع

ملاحظة الفرق بين صنفين من الرحلات.» وعندئذٍ قال له هو شيو تسي: «اسمع يا يوكو، إن ما تقوله عن الرحلات يتفق مع تجارب الآخرين وآرائهم، فلماذا تزعم أنك مختلف عنهم؟ وأرى أن كل الأشياء يمكن أن تستبين، وأن تبدي مظاهر تغيراتها وتطوراتها المتعاقبة. إن الاكتفاء بمشاهدة الجديد يعوقك عن ملاحظة مسعاك الذاتي نحو التبديل والتجديد المتواصل؛ فأنت تسعى جاهدًا في رحلة مشاهدة خارجية، دون أن تكلف نفسك عناء القيام برحلة إلى أعماق نفسك. إن الاقتصار على رحلة المتعة بالملاحظة الخارجية سيقصر غرضها على السعي إلى رؤية اكتمال صفات الأشياء، أما رحلة الأعماق الذاتية، فستتيح للإنسان أن يرى الذات عالمًا مكتملًا بنفسه. وإذ تبدو الذات عالمًا مكتملًا، فستكون الرحلة في هذا العالم الذاتي واصلة إلى الحدود المثلى، وهو ما لن تجده في رحلتك الخارجية التي تسعى فيها لرؤية عين الصفات التامة وحدود مشاهد الروعة الكاملة.»

ومن حينئذٍ، قعد ليتزو عن التجوال، متنزهًا في سياحات خارجية؛ متصورًا أنه لا يدرك أدنى قدر من المعرفة المطلوبة للقيام بالرحلة الخلوية، وهنالك قال له هو شيو تسي: «إن الاحتجاب عن الترحال الخارجي (والاقتصار على الرحلة الذاتية الداخلية ...) يعد سعيًا محمومًا للتجوال في عوالم الباطن المثالية، ولن يشقى أولئك الغارقون في حدود عالمهم المثالي بالبحث عن أهداف للتجوال ولن يتساءلوا إلى أين يشدون رحالهم، ولن يتفكروا فيما يودون مشاهدته؛ لأنهم — ساعتئذٍ — سيكونون قد طافوا بكل الأرجاء، ورأوا في أعماقهم كل المشاهد؛ فذلك هو ما أقصده تمامًا بلفظة «الرحلة»، ذلك هو ما أعنيه من تلك الكلمة؛ فلهذا أقول بأن تلك هي الرحلة التي تبلغ أروع الآفاق.»

[٨]

تكلم لونشو [أحد مواطني دولة سونغ، في الزمن القديم] إلى أونشي [أحد أمهر الأطباء، قديمًا] فقال له: «أعرف أنك على درجة رفيعة من فنون الطب والعلاج، فهلا عالجتني؟» فقال له أونشي: «(على الرحب والسعة، فأنا تحت أمرك)، لكن عليك أن توضح لي أعراض المرض.» فقال لونشو: «أشعر بأني إذا مدحني قومي (أهل بلدتي) لم أجد في نفسي أي شعور بالفخر والسعادة، وإذا ذمني الناس، لم أطأطئ رأسي خجلًا وأسفًا؛ كما أني لا

أفرح إذا أصبت غنيمة، ولا أحزن إذا منيت بالخسران. وأنظر إلى الحياة نظرتي إلى الموت، وأرى الغنى مساويًا للفقر، وأتطلع إلى كثرة الناس وازدحامهم في الطرقات كأني أتطلع إلى قطيع من خنازير، وأعامل نفسي بما أعامل به الآخرين [حرفيًّا: أنظر إلى نفسي كما لو كنت أنظر إلى الناس (كذا)] أقيم في بيتي كأني أنزل بخان، وتبدو لي بلدي، التي هي مسقط رأسي، كبلد همجي في أقصى الأرض، استأثر به المغفلون من دون الناس جميعًا.

وبرغم كل تلك الأمراض التي ابتليت بها، فلا المكافأة المعتبرة تثير شهيتي، ولا العقاب الصارم يخيفني؛ ولا ازدهار الحال أو كسادها يبدل أحوالي، ولا الحزن أو الفرح يزلزل مشاعري؛ ولذلك فلست أستطيع خدمة سيدي (جلالة الملك) على الوجه الأكمل، ولا أنا بقادر على أن أصادق الناس، كما أني ما عدت سيد بيتي [حرفيًّا: لا سيطرة لي على امرأتي ولا أولادي] ولا سطوة لي فوق أتباعي [حرفيًّا: عبيدي] فأي مرض هذا الذي أصبت به؟ وبأي دواء أشفى منه؟» فطلب أونشي من محدثه أن يقوم واقفًا بمواجهته، على أن يولي ظهره للضوء. وراح الطبيب يتأمل صدره وبعد هنيهة، قال له: «قد انكشفت لي منطقة الصدر بكل وضوح، ورأيت قلبك هادئًا، كأنه قلب قديس، وقد تبين لي وجود ستة مواطن متصلة الجريان، إلا مكانًا واحدًا؛ لأنك تعد تلك المزايا المقدسة أعراض مرض عضال، فقد سُد هذا الموضع، وحده دون الجميع، على أية حال، فمثل هذه الأعراض تتحدى قدراتي الطبية المتواضعة، ولست أجد لك فيما أعلم علاجًا لهذا الداء.»

[٩]

إن ما يبقى سرمدًا، دون عائذ يعوذ به، فذلك هو القانون الطبيعي [حرفيًّا: السماوي]، وما يبقى بقاء حياة، في ظروف محددة، ولا يزول بزوال الحياة، فتلك هي طبائع البشر؛ أما ما تخطه يد المقادير، حسب ظروف محددة، ثم تأتي أحوال أخرى تزول فيها آثار ما وضعته يد الأقدار، فذلك هو سوء الحظ. أما ما أقام بكنف الفناء وكتب عليه ألا يوجد على ظهر الحياة أبدًا، فذلك هو قانون الطبيعة في أزل المقدرة (الوجود والفناء بيد الوجود الطبيعي)، أما ما كتب عليه الموت حسب أحوال معلومة، فيزول زوالًا، حتى قبل أن تزول الحياة نفسها؛ فذلك، أيضًا، هو العرف الجاري والشرائع السارية بين الناس. إن ما تخطه يد الوجود، برغم ما قد جرى عليه من سابق العدم والفناء، فذلك هو الحظ والمصادفة السعيدة؛ فمِن ثَم كان الحادث العرضي — الذي جاء بغير سند، ليصبح (برغم ذلك ...) موكولًا بحفظ الأسانيد — هو القانون الطبيعي. وكان العدم (الموت) الذي مرجعه إلى

قانون الطبيعة هو الطبع المعهود بين الناس؛ ثم إن الموت الذي قدرته الظروف المحددة والمعلومة، هو أيضًا، طبع جارٍ في دنيا البشر، وكان الموت الذي نزل به حكم الطبائع شريعة دائمة ومعهودة بين الناس، في كل زمان.

[١٠]

كان كل ما فعله «يانغ شو»، عندما علم بوفاة «جيليانغ» (وبرغم ما كان يربطه به من علاقات ودية) فقد وقف بباب بيته ورفع صوته بالغناء؛ في حين أنه لما تناهى إليه خبر وفاة «سويهو» أسرع إلى الجنازة وحمل جثمانه على كتفه، والدموع تطفر من عينيه. إن موت واحد من عامة الناس، أو حتى حياته، لن يثير لدى الآخرين سوى الغناء أو البكاء، بغير سبب مفهوم، في غالب الأحيان.

[١١]

من أوشك على فقدان بصره، احتدت لديه طاقته البصرية (في أول أعراض الإصابة بالضعف)، حتى تبدت له أدق الأشياء بوضوح شديد؛ ومن أوشك أن تُصم أذناه، رهف سمعه حتى كاد أن يسمع رفة جناح البعوض؛ ومن قرُب أن يفقد حاسة التذوق، ازدادت حساسيته، بادئ الأمر، لما يتناوله من طعام وشراب، حتى كاد أن يجيد التمييز بين طعم الماء من نهرين تفرَّعا من مجرًى واحد [حرفيًّا: كاد أن يميز بين طعم الماء الذي من نهر «تسيشوي»، ونهر «شنغ شوي»]؛ ومن أوشك أن يفقد حاسة الشم، اشتدت حساسية أنفه، أول الأمر، للروائح الكريهة؛ ومن أوشك جسده أن يصاب بالشلل، عظمت لديه، بادئ ذي بدء، مرونة الجسم ولياقة البدن؛ ومن كاد أن يفقد اتزانه النفسي والعقلي، لمعت عبقريته، في مستهل أعراض الفقد، حتى كاد أن يكون خبيرًا بالمنطق السديد والحكم الصائب؛ لذلك فلا تنقلب الأمور إلى ضدها إلا إذا بلغت حدًّا معلومًا [كذا].

[١٢]

كان من حظ مدينة «بو تسي» [بمملكة تشنغ، إحدى الدويلات القديمة] أن تكون مجمع الفضلاء، بينما اختصت مدينة «تونلي» بأكبر حشد من النجباء والعباقرة، من أصحاب الحرف والمهارات المختلفة. وكان من بين جماعة مدينة بوتسي رجل يدعى «بوفنزي»،

وتصادف؛ أثناء مروره بمدينة «تونلي» أن التقى بـ «دنشي» [أحد المتصوفة]، فالتفت هذا إلى أتباعه ضاحكًا، وقال لهم: «هلا رأيتم عندما أتخذ من هذا القادم موضوعًا للسخرية!» فقال له الحاضرون: «لا بأس، لكن قل لنا، ماذا ستفعل به؟ وكيف تسخر منه؟»

وكان أن تقدم دنشي من بوفنزي، وابتدره قائلًا: «أتعرف مغزى أن يقوم المرء بتهذيب نفسه، وأن يتعلم مبادئ الفضائل على يد معلم؟ إن من يتلقون أصول الفضائل على يد المدرسين؛ لعدم استطاعتهم تهذيب أنفسهم يشبهون الخنازير والكلاب؛ والمعلوم أن تربية الأشياء النافعة جزء من قدرة الإنسان. ألا ترى أن الفضل في توفير الطعام لأناس من أمثالكم، بالإضافة إلى المسكن والملبس والراحة، يرجع إلى مجهود جبار يقوم به بضعة ممَّن يتولون مقاليد الحكم في البلاد ... أريد منك أن تقول، بصراحة، ما الفرق بين أناس مثلكم، بصغيركم وكبيركم، تتكدسون في غرف ضيقة كمحابس الخنازير، وتقتاتون بقايا ما ينثر على موائدكم، مما تصنعه المطابخ، أسأل: ما الفرق بينكم وبين الخنازير؟» تغاضى بوفنزي عن تلك الأقوال الساخرة المستفزة، ولم يعر قائلها أدنى اهتمام، غير أن أتباعه تقدموا، على غير ترتيب أو نظام للرد على دنشي قائلين: «حضرة السيد المحترم، ألم تسمع، من قبل، أن أكثر أهالي «تشيلو» [اسم مركب لبلدين، هما: «تشيدي»، و«لودي»] قد حازوا درجة عالية من الذكاء والعبقرية وتوقد الذهن؟ إن منهم من قد مهر في هندسة التشييد والبناء، ومنهم من برع في التعدين والصناعات الجلدية، ومنهم الفنانون والموسيقيون والخطاطون والرسامون والرياضيون والعسكريون وقادة الجيوش والمعارك، ومنهم من قد تفقَّه في طقوس العبادات وشئون المعابد؛ فلكل مجال خبراؤه والمتخصصون فيه، وقد توافر منهم العدد الهائل، لكن المشكلة هي أنه لا يوجد من الإداريين الكبار من يقف على قدم المساواة مع هؤلاء، ومن هنا يغيب التنسيق والضبط والتنظيم بين كل أولئك العباقرة، هذا في الوقت الذي ينقص كبار المسئولين الحاليين الدراية وأساليب التنسيق والتنظيم بين الخبراء وذوي المواهب، وهكذا ينشأ موقف غريب يجد فيه الأكْفاء والموهوبون أنفسهم قد امتلكوا المعرفة والدراية؛ لكنهم حرموا عناصر القوة. ثم إذا بهم قد وقعوا تحت سيطرة ونفوذ أصحاب تلك القوة، وعلى أية حال، فإن من تقول عنهم إنهم «يتولون مقاليد الحكم في البلاد» ليسوا إلا بضعة من الأكْفاء الذين يستلهمون منا الآراء ويعملون وفق توجيهاتنا، فهم طوع أيدينا، وبأمرنا يأتمرون؛ ففيمَ افتخارك، وبمَ تباهي إذن؟» ولم يجد دنشي ما يرد به على محدثه، والتفت ينظر إلى أتباع بوفنزي، وقد احتبس الكلام في حلقه، فاستدار ومشى بعيدًا لا يلوي على شيء.

[١٣]

كان «كونيبو» [أحد الشيوخ الحكماء، في العصر القديم] مشهورًا بالجلد والقوة بين الدويلات، وهو الأمر الذي دعا «تانشي كون» [أحد المشهود لهم بالحكمة إبان حكم أسرة تشو الغربية] إلى أن يحكي طرفًا من سيرة هذا الشيخ للملك شيوان — حاكم دولة تشي — فأرسل إليه الملك بالدعوة للمثول بين يديه، وأعد له الهدايا. فلما أقبل عليه، رآه ضعيف البنية هزيل الجسد، واستغرب الملك وراح يسأله في دهشة: «فكيف ما يقال، إذن، عن قدراتك الخارقة؟» فأجابه، قال: «نعم، عندي من القوة ما يمكنني من تمزيق ساقي حشرة الجندب، ومن تقطيع جناح الزيز الطائر [الذي يُضرب به المثل في الهشاشة والضعف، كأنه بعض من نسيج العنكبوت].» فغضب الملك، وتلون وجهه، وقال: «إذا كنت أنا، شخصيًّا، أملك من القوة ما أستطيع به تقطيع أوصال الكركدن، بجلده السميك [حرفيًّا: سلخ جلد أنثى الكركدن] بالإضافة إلى جر تسع ثيران من ذيولها، ومع ذلك، فلا أظن بنفسي تمام القوة، ففيمَ الزعم بأنك موفور الطاقة خارق المقدرة عظيم القوة، في طول البلاد وعرضها، بينما كل ما تستطيعه هو قطع سيقان الحشرات الضئيلة، واختراق أجنحة البعوض وما أشبه؟» فتنهَّد الشيخ وتنحَّى عن المجلس، قائلًا: «اسمح لي، يا مولاي، ما دمت قد تطرقت بنا إلى هذا الحديث، أن أتكلم مع جلالتك وأقص عليك حكايتي بكل صراحة ووضوح؛ فقد كان أستاذي الشيخ «شانشيو» ذا قوة جبارة لا مثيل لها، حقًّا، على وجه الأرض، وهو ما لم يكن يعرفه عنه أهله وأقرباؤه؛ وذلك لأنه لم يحدث قط أن استعرض أمامهم قوته الخارقة، فلما أبديت رغبة في أن أكون تلميذه المطيع وتابعه الأمين، التفت نحوي، وقال لي: «على من أراد الإخلاص والالتزام بآداب الطريق (المنهج الفكري)، أن يبصر ما لا يراه الآخرون، ويلاحظ ما لا يكترث له الناس، وإذا كان له أن ينال ما لم يحصل عليه الجميع، فليكن الدأب مسعاه فيما لا يسعى فيه الناس، (واعلم) أن من أراد أن تشتد لديه حدة البصر، فسوف يلزمه أن يدرب نفسه على ملاحظة أعواد القش فوق العربات، ومن أراد أن يدرب حاسة السمع، فسوف يتوجب عليه أن ينصت كثيرًا لدقات الأجراس، وعندما تتولد في نفسه الثقة بأنه أجاد شيئًا، فسيسهل عليه، في الواقع، أن يجد المهارة طوع يديه؛ وإذ يتمرس في الإجادة (... إذ يتفوق ويتقدم، في طريق الاتقان، حتى يملك اقتدارًا قريبًا من طبائع الأشياء، فلا تلزمه الحاجة إلى إبراز ملكاته وطاقاته الجبارة) تنحصر إجادته في حدود ما يصنع، فتحتجب مهارته عن أعين الناس وراء ستار من الغموض، ولا ينتشر صيته في الآفاق، بل يبقى الحديث عنه محدودًا وسط

أهله وأقربائه.» ولئن قد ذاعت شهرتي بين البلاد، فلأني خالفت ما عاهدت عليه معلمي، حتى تبدت للناس ملامح مما برزت فيه مهارتي. وعمومًا، فلم تأتني الشهرة بموجب القوة الغاشمة، بل بما أبديت من استخدام متوازن ومعتدل لطاقاتي، وهو ما يختلف كثيرًا عن الحصول على الشهرة بسبب مظاهر القوة المفرطة، فشتان ما بين الأمرين.»

[١٤]

كان «جونشان قون تسيمو» أحد نبلاء دولة «وي» قد صرف كل همه إلى التعرف إلى ذوي الحكمة والنجابة، ولم يشغله ذلك عن متابعة شئون عمله (الرسمي)، وقد عرف عنه احترامه وتقديره البالغ (للفيلسوف الأكبر) «كونسون لونغ» [أحد أشهر الفلاسفة، في زمن الدول المتحاربة] وهو الأمر الذي أثار سخرية واستهزاء «لوجن تسيو» وتلاميذه، فما كان من النبيل إلا أن قال له: «لماذا تسخرون من إعجابي وتقديري للفيلسوف الحكيم «كونسون لونغ»؟» فأجابه الرجل، قائلًا: «لم يكن لـ «كونسون لونغ» معلم يرشد سلوكه، ويطبع شخصيته بطابع أصيل، ولم يكن له صديق دراسة يتعاهده بالنصح، ولا كانت آراؤه (ذات الكلمات الرنانة) أو مجادلاته تنم عن منطق أو تتمخض عن برهان، ولم يحدث أن قام بتأسيس مدرسة أو اتجاه فكري على قواعد معلومة، فليس عنده سوى ترديد للخرافات والنوادر الغريبة، يحاول بها أن يضلل الناس بمقارعات كلامية قوية اللسان ضعيفة البرهان، ولا يجد له نصيرًا في ذلك سوى «هانتان»، الذي انضم إلى زمرته، ونشط في مشايعته.» وهنالك تغير وجه قون تسيمو، وهو يقول لمحدثه: «ما لك قد تحاملت عليه هكذا؟ فماذا لو أنصفت الرجل بشيء!» فقال له تسيمو: «كم ضحكت منه وهو يخدع «كونشون» [حفيد كونفوشيوس] بمثل هذه العبارات، من قبيل: «أمهر الرماة من إذا تعاقب لديه الرمي، سدد أواخر السهام في أعقاب سابقاتها، في كل رمية سهم، وفي عقب كل سهم رمية أخرى؛ حتى تلتحم السهام خطًّا واحدًا مسدَّدًا في قلب الهدف، فكل سهم لا يصيب القلب، لكنه لا يحيد عن الهدف، حتى يأتي السهم الأخير، فيلتحم بما سبقه من خط السهام المتصل، وهو بعد، بين القوس والوتر، كأنه صف مستقيم على طول استقامته.» وهو الكلام الذي ما كاد يسمعه كونشوان، حتى أُخذ بروعته وافتُتن بكناياته، وقد قال كونسون لونغ (وهو يواصل كلمته التي ذكرتها آنفًا): «ليس ذلك أعظم ما يُبرز براعة الرامي، فهذه حكاية (قناص) آخر يدعى «هونشاو» وهو تلميذ الرامي الأشهر «فنغ منغ» كان قد سخط على امرأته، لأمر ما، فحمي غضبه عليها، فأراد أن

يوقع في خلدها الخشية منه، فجذب قوسه الملكي (مجرد نسبة للكناية على جودة السهم) ووضع السهم [حرفيًّا: السهم المصنوع في بلدة «تشيوي»، حيث ذاعت الشهرة بجودة السهام] وصوب تجاه عينيها ورمى (فمر السهم أمام بؤبؤ العين، قبل أن ترمش، ثم ...) سقط على الأرض دون أن يثير ذرة غبار واحدة.» فتأمل هذا الكلام؛ أذلك مما يمكن أن يقوله رجل أصاب قدرًا من الحكمة والرشاد؟» فقال له قون تسيمو: «(أما قد علمت أن ...) كلام الحكماء ثقيل على فهم الأغبياء؛ إن غاية القول من أن السهم قد سقط قبل أن يهتز رمش العين، هو أن سرعة السهم قد وصلت تمام النهاية قبيل بؤبؤ العين، فما لبث أن وقع على الأرض، وهذا أمر معقول، فهل لديك اعتراض على ذلك التفسير؟» فأجابه لوجن تسيو، قائلًا: «أما كان يجدر بك، وأنت من زمرة كونسون لونغ أن تداري أخطاءه ونقائصه؟ وعمومًا، فسأسوق لك المزيد من الأمثلة التي تدل على شطحاته وخبالاته؛ فقد حدث أنه خدع ملك دولة وي، قائلًا لجلالته: «إن ناتج الفكر ليس تعبيرًا عما ينطوي عليه ذهن الإنسان؛ فالاسم شيء والموضوع المادي الذي يشير إليه الاسم شيء آخر تمامًا [... من مقولات المدرسة الاسمية، وهي إحدى الاتجاهات الفلسفية القديمة، غير الكونفوشية، والطاوية، والقانونية ... إلخ] الأشياء تقبل القسمة إلى ما لا نهاية ... ظلال الأشياء المتحركة لا تتحرك ... إن شعرة من رأس الإنسان يمكن أن تجر ما مثقاله ألف «جيون» [جيون: وحدة موازين قديمة، تساوي خمسة عشر كيلوغرامًا] ... (ينبغي رؤية الفرق في العلاقة بين الجزئي والتام، بين شكل الشيء ولونه، وعلى هذا، فـ...) الحصان الأبيض ليس حصانًا (... ليس هو المفهوم التام للحصان) ... العجل الذي لا تُعرف له أم، لم يولد لأم. وغير هذا كثير من تلك المقولات، التي تتبع هذا النمط في نفي التسميات الشائعة.» وعندئذٍ رد عليه قون تسيمو، قائلًا: «أرى أنك يعسر عليك فهم تلك المقولات المنطقية، وتظن أنها مزاعم خاطئة، لكن الخطأ يكمن في طريقة فهمك؛ و(مثلًا) فعندما لا يكون هناك أي تفكير تأملي، يقتنع المرء بما يرتسم في تصوراته؛ وإذ تنتفي الإشارة من الأشياء تبرز في كيانها المادي واضحة ملموسة[٢] وعندما ينقسم الشيء إلى آخر جزيء، تظل هناك احتمالات أخرى قائمة للتجزئة. ولما كان الظل في صيرورة التغير، فقد امتنع عليه التحرك والانتقال، وما كان يمكن لشعرة الرأس أن تجر المثاقيل إلا بتوزيع الجهد بقدر من التوازن؛ أما بالنسبة للحصان الأبيض الذي ليس بحصان؛ فالأمر، هنا، متعلق بالفرق

[٢] الفكرة، هنا، تذكرنا بقول محيي الدين بن عربي: «إذا زالت الأسماء برز المسمى.»

بين التسمية والهيئة. أما مقولة أن العجل الذي لم تُعرف له أم، لم يولد لأم؛ (فصياغتها تقوم على فكرة أن ...) العجل لم تكن له أم معروفة، وإلا بطلت التسمية بهذه الطريقة.» وعندئذٍ، علق لوجن تسيو، على كلامه، قائلًا: «هو ذا أنت تعد تلك التخاريف التي ينطق بها كونسون لونغ أفكارًا منطقية ومعقولة، وأظن أنه حتى لو أخرج هذا الكلام من استه، فسوف تحتفي به وتعتبره موضوعًا ذا شأن.» وصمت قون تسيمو بعض الوقت، ثم قام مستأذنًا في الانصراف، وهو يقول له: «موعدنا في قادم الأيام؛ لنواصل البحث والمناظرة.»

[١٥]

لما أتم الملك «ياو» [أحد الملوك القديسين] خمسين عامًا من الإصلاحات أثناء حكمه، تساءل عما إذا كانت سياساته قد أثمرت النتائج المرجوة أم لا، ولم يكن يدري إذا كان أهل الممالك مؤيدين ومساندين له في حكمه أم أن لهم رأيًا آخر، وراح يسأل الوزراء ورجال القصر من حوله، فلم يعطوه جوابًا شافيًا، ثم عرج على رجال الإدارة الحكومية (ممن هم خارج القصر) فكانوا كإخوانهم داخله، ولم يزيدوه إلا حيرة؛ فقصد جلالته إلى النبلاء وذوي الحكمة من بين الناس، فلم يقنع منهم برأي صريح، فما كان من الملك «ياو»، إلا أن تنكر في زي العوام، ونزل ومشى في الطرقات، فتناهت إلى أذنيه أغنية كان الناس يهدهدون بها أطفالهم، تقول كلماتها:

«زرعت الحقول، وأطعمت الناس،
وكنت أوثق عهدًا وأكرم خلقًا،
دعك من جدل ومن حكمة،
واسلك سبيل صاحب الجلالة.»

وامتلأ قلب الملك بهجة، وراح يسأل الأطفال: «ممن تعلمتم هذه الأغنية؟» فأجابوه، قائلين: «هو أستاذنا الفاضل الذي علمناها.» فأسرع الملك للقاء الأستاذ المشار إليه، وسأله ما الخبر؟ فقال لجلالته: «هذه أغنية نهدهد بها الأطفال، كلماتها من التراث القديم.» وعاد الملك إلى القصر، واستدعى إليه «شون»، وتنازل له عن العرش؛ ليواصل السياسات الإصلاحية، ولم يعتذر شون عن قبول مقعد الحكم، فتقلد العرش، وجلس مجلس الملك.»

[١٦]

قال «قوان يين»: «إذا تنقَّى المرء عن التصلُّب والعناد والميل، تكشفت له حقائق الأشياء [حرفيًّا: الأشياء في حالتها الموضوعية] من يسلك، في عمله مسلك مسيل الماء، انسابت له الراحة وتوطد لديه السكون كصفحة مرآة، رقيقة المعدن، صافية المشهد، تنقت من كدر الأثقال [حرفيًّا: تعكس المشاهد دون أن تمتلئ بمحتواها] فهي تحجب أشياء العالم، موصدة دون الصوت والصدى؛ لذلك فقد قيل إن الطاو يتبع نهج الأشياء كافة، بينما الأشياء تعانده وتضاده، لكنه أبدًا، يسير وفق هواها. إن من تحقق بالطاو فقد استغنى عن أذن تسمع وعين ترى وقوة بطش وحكمة قلب.

بيد أنه إذا ما بدا للسالك طريق الطاو، أن يتوسل بالسمع والنظر والشكل والهيئة والحكمة، فسيكون قد جانب الصواب؛ فالطاو لائح للرائي، تارة من أمامه؛ ثم إذا هو، تارة أخرى، مدبر على غير ما يتوقع الخاطر. وهو إذ يطلق عنان طاقاته يفيض على الكون أرضًا وسما؛ وإذ يتوارى عن الظهور، يحتجب وراء كثيف أستار الغموض. (ورغم هذا ...) فلا القاصد قصد الطاو بمستطيع أن ينأى (بقدر معلوم)، ولا المتكاسل دونه بقادر على أن يقترب اقتراب بلوغ الغاية، فلا يناله إلا مالك زمام نفسه وهو مقيم مقام السكون، ولا يفوز به إلا من وطد العزم على بلوغ أشرف الغايات.

قد حاز كمالات القدرة والمعرفة، من أبصر الحجة فتنقى عن ضلال الغواية، واستغنى بتمام الاستطاعة عن الولوج إلى مجال الفعل الظاهر.

اصرف عنك الحكمة، ولن يرد عليك وارد التمني والغواية؛ انزع عنك مقدرتك، ولن تكون بحاجة إلى التوسُّل بالعمل والأسباب.

إن أكوامًا من حجارة، وتلالًا من رمال، لن تتوسل بدروب العمل والجهد، ولن تصطنع الصنائع؛ لكنها، برغم ذلك؛ ستحتفظ بوجودها وبقائها (المنطقي والمعقول).»

الباب الخامس

تانغ أون

汤 问

(أسئلة الإمبراطور)[1]

[١]

كان الإمبراطور «تانغ» [حاكم دولة «يين»] قد وجَّه أسئلته إلى «شياكي»، قائلًا: «أكانت كل هذه الموجودات[2] قائمة في العصور القديمة؟» فأجابه الرجل، قائلًا: «فماذا تظن لو

[1] يتميز هذا الباب بوفرة محتواه من الحكايات الخرافية، وتزيد في جملتها عن عشرين حكاية قديمة، وهي تتصف بعدد من السمات، أبرزها ما يلي: (أ) إن بعضًا من هذه الحكايات تم تدوينه بأسلوب توثيقي؛ لأنه جزء أصيل وتراث هائل في الأساطير والحكايات الخرافية. (ب) البعض الآخر من هذه الحكايات، من وضع المؤلف، لكنها تبدو، في صياغاتها وأهدافها، نسيجًا واحدًا مع الحكايات الأصلية، دون تكلف. (ج) الأهم من هذا كله، أن هناك هدفًا عامًّا ينتظم مسرد هذه الحكايات جميعًا، وهو تبيان معنى الطاو، بكل ما ينطوي عليه من غموض.

[2] «الموجودات» مصطلح طاوي، اجتهدت في ترجمته، بهذه الطريقة، بدلًا من عبارة: «العشرة آلاف شيء» تلك التي تكررت في كثير من الترجمات العربية، أو حتى في عدد من الترجمات الفرنسية والإنكليزية، وهي نقل حرفي جامد للكلمة الصينية التي تعني: «كل ما هو قائم في الوجود الطبيعي» أو «العالم» أو «الدنيا» أو «الأشياء كلها»؛ ولما كانت الصينية القديمة غير معنية بإعطاء معانٍ واضحة ومحددة، فقد تركت تلك العبارة «العشرة آلاف شيء» تفعل فعلها مع ذهنية مولعة بالغموض، ولا أظن أن الترجمة الحرفية، هنا، يمكن أن تزيد الأمر إلا حيرة وارتباكًا، وعلى أية حال، فنحن لا نترجم كلمة الشعب بـ «المائة لقب»؛ ولا ننقل لفظ «الماهر» بـ «المتقن مائة عمل»، مع أنها تنحو المنحى نفسه.

لم تكن الأشياء موجودة منذ الأزل، أكنت تجدها اليوم؟ وما ظنك بمن يأتي بعدنا، في المستقبل، أترضى لهم بأن يتساءلوا عن وجود الأشياء في زماننا بشيء من الشك؟» فعاد الإمبراطور يسأله: «فهل يمكننا، إذن، أن نحدد زمن نشأة كل تلك الموجودات؟» فأجابه شياكي، قائلًا: «لا نجد في الزمن القديم تحديدًا قاطعًا لزمن نشأة الموجودات، فكيف ندري إذا كان شيء ما، قد وجد أولًا، ثم تلاه وجود شيء آخر أو العكس؛ فتلك مسألة لا سبيل إلى كشف وجه اليقين فيها، كما أنه لا سبيل إلى استيضاح ما كان خارج الأشياء، وما كان قائمًا قبلها.» وسأله الإمبراطور، قائلًا: «فهل لأطراف الاتجاهات نهايات؟» فأجابه شياكي، قائلًا: «هذا شيء لا علم لي به.» فعاد الإمبراطور يسأله هذا السؤال نفسه متشددًا في طلب الإجابة، فما كان من محدثه إلى أن رد عليه بقوله: «ليس لأقطار الفضاء الكوني نهاية، وليس للأشياء الكائنة أية حدود قصوى، ثم إن هذه أمور بالغة التعقيد والإبهام، فأنى لي بمعرفتها؟ ومع ذلك، (فأنا أستطيع أن أقول لك إنه ...) لن يكون خارج الفضاء اللانهائي حدود أخرى لا نهائية، ولا وسط الأزل آزال أخرى. فليس هناك حد لا نهائي يستبطن «حدودًا لا نهائية»، ولا حدود قصوى تشتمل على حدود أخرى مفتوحة بغير نهاية. وكل ما أعرفه هو أنه ليس هناك حد أقصى بغير نهاية، ذلك أني لم يصل إلى علمي بعد أن للكون حدًّا أقصى يمكن أن تكون له نهاية معلومة.» وسأله الإمبراطور تانغ قائلًا: «أهناك ثمة وجود لشيء وراء البحار الأربعة؟» فرد عليه شياكي، قائلًا: «يوجد مكان قريب الشبه بإقليم «تشي».» وسأله الإمبراطور، قال: «وكيف تثبت وجود هذا المكان؟» فأجابه: «أثبت ذلك بأن أمضي شرقًا حتى أبلغ «طايين» حيث أجد الناس قريبي الشبه بأهالي تشي، وبالسؤال عن الأحوال شرقي إقليم «يين»، يتضح أن الفارق بين الأحوال هناك وبين ما هو قائم في إقليم يين نفسه، قريب بعض الشيء؛ ثم إذا مضيت غربًا نحو إقليم «بينجو»، وجدت أهالي الإقليم قريبي الشبه بأهالي منطقة تشي، وبالسؤال عن الحال غربي هذا الموقع، أجد أن الأمور لا تختلف كثيرًا عما هو موجود في إقليم «بينجو».

وهكذا، أحيط علمًا بأمور البحار الأربعة [تعبير يكنَّى به عن الممالك الصينية، قديمًا] حيث الأحوال متقاربة، وليس ثمة اختلاف كبير، وعلى ذلك فالكون الأكبر والأصغر يتداخلان ويشتمل أحدهما على الآخر، دون حدود قصوى، أو لا نهايات مفتوحة. فهذا كون يضم الأرض والسماء بغير حدود، فكيف لي أن أعرف إذا ما كانت هناك أرض وسماء أخرى أكبر وأضخم خارج أقطار الأرض والسماء المنظورتين؟ وأجيب قائلًا بأن هذا أمر لا سبيل إلى معرفته أيضًا، بيد أن الأرض والسماء، كلتاهما تدخلان ضمن مسمى «الأشياء المادية»، وما دامتا كذلك؛ فلا بد أنهما تشتملان على أوجه نقص كثيرة،

(ولذلك فقد صدق ما قيل في الأزمنة القديمة من أن ...) الإلهة «نيوا» [إلهة الخلق] قد صنعت خمسة أحجار ملونة، فرتقت بها ثلمة في قبة السماء؛ ثم قطعت أطراف دابة البحر (اسمها: الآو)، وصنعت منها أعمدة أربعة لأركان الأرض، وحدث أن تصارع «قون كونغ» [إله الماء والبحاء] مع «جوانشيو» [إله النار] على كرسي العرش، فبينما هما يتعاركان، حمي غضب «قون كونغ» فأطاح بجبل «بوجو» [جبل أسطوري]، فانهدم أحد الأعمدة الأربعة التي تستند إليها عمد السماء، وتمزق أحد أهم الروابط بينها وبين الأرض، فمِن ثَم صارت قبة السماء تميل قليلًا، جهة الشمال الغربي، وتحددت للكواكب والنجوم والأوقات مواقع في تلك الجهة، ومادت الأرض في الجنوب الشرقي؛ فلذلك صارت البحار والأنهار والبحيرات والخلجان تجري إلى المصب في ذلك الاتجاه.»

[٢]

وواصل الإمبراطور تانغ أسئلته قائلًا: «هل ثمة فرق بين ما هو كبير وصغير من أحجام الأشياء؟ وهل هناك فرق بين الطويل والقصير، والمختلف والمتشابه، من الموجودات جميعًا؟» فأجابه شياكي، قائلًا: تقع إلى الشرق من بحر «بوهاي» منطقة هائلة المساحة [حرفيًّا: تمتد مسافة مئات الآلاف من الأميال] ومحيط لا مثيل له في الدنيا بأسرها، لضخامته. وقد كان، في أول أمره، وادٍ سحيق، لا يُدرك عمقه؛ حتى قيل له «وادي قويشو» (أي: مجمع مصارف الأنهار)، وهو مصب سيول تهطل مدرارًا من السماوات الثمانية والطبقات التسع [كذا] بالإضافة إلى أنهر من السماء تفيض بمياهها فوق تلك البقعة. ورغم هذا، فالمياه في ذلك الوادي العميق (قويشو) ليست غامرة ولا غائرة؛ وفوق المحيط الكبير خمسة جبال: الأول منها هو جبل «دايو»، والثاني جبل «يوان تشياو»، والثالث جبل «فانهو»، والرابع جبل «إينجو»، والخامس جبل «بنغلاي». وتشغل هذه الجبال الضخمة ثلاثين ألف لي من الأراضي، ويبلغ عرض قممها تسعة آلاف لي، وبين كل جبل وآخر فاصل من الأرض مقداره سبعين ألف لي، وتنتصب كلها إلى جوار بعضها بعضًا في شموخ، وعلى قممها مقاصير مزينة بالذهب، تحوم فوقها، وتسكن في أطرافها الطيور والوحش، وكلها بيضاء اللون، بياضها لا يخالطه شوب، وقد تسامقت في جنباتها الأشجار بألوانها كأنها جوهر كريم، وثقلت أغصانها بأطيب الثمر، فمن أكل منها، أو تنسم فوح عطرها، لبث في الخلد لا يموت ولا يدركه المشيب، وسكانها مقيمون فيها أبدًا، وهم بشر أقرب، في خلقتهم، إلى الملائكة؛ في كل ساعة من الليل والنهار، يدأبون على التواصل الودي بينهم، لا

يقعد منهم أحد عن ذلك. وقد بلغوا من الكثرة حدًّا يفوقون به الحصر، ثم إن قاع الوادي، أسفل الجبال، لا يتصل بقاع البحر، بل يتحرك أسفل الجبل تبعًا لحركة الموج زيادةً ونقصانًا، يتأرجح بين مد وجزر، فلم يحدث قط أن استقر في حال من السكون؛ حتى ضجت الملائكة والحور والقديسون جميعًا، وبثوا شكواهم إلى السماء، فترفقت بهم، وقد كادت تتحول الجبال عن مواقعها إلى أقصى الغرب، وتتهدم صوامع القديسين ومنازل الملائكة الأبرار، ويصير الكل بلا مأوًى. فتنزل الأمر السماوي على «يوجيان» [أحد الآلهة الأسطورية، له رأس إنسان وجسم طائر، في أذنيه قرطان من ثعابين سود، ويدوس بقدميه ثعبانين أحمرين] بأن يقود خمس عشرة سلحفاة عظيمة، تسير معه في مسيرة برءوس منتصبة، فتحمل الجبال الخمسة على جباهه، فتقر الأطواد الخمسة في مكانها، وظلت السلاحف تتناوب العمل، فيما بينها ثلاث مرات، كل مرة مقدارها ستون ألف سنة؛ فهنالك رست الجبال في مراسيها لم تتقلقل ولم تتزحزح عن موضعها، بيد أنه كان رجل عملاق مهول الخلقة يقيم بأرض «لونبو» [هذه الأخيرة بلدة أسطورية، أما العملاق فهو كائن خرافي، طوله ثلاثون جانغ، أي ما يساوي نحو مائة متر أو يزيد، ويعمر زهاء ثمانية عشر ألف سنة] فما كاد يخطو عدة خطوات حتى بلغ قمة الجبال الخمس، ثم وضع الشص في خيط الصنارة وألقى بها من علٍ، فعلق الشص بالسلاحف الست، فسحبها واحدة وراء الأخرى، وحملها العملاق على كتفه عائدًا إلى قومه، ثم إنه أوقد نارًا فأحرق السلاحف وأخذ ظهورها الصخرية؛ ليصنع منها طاولة الكهانة والتنجيم، وحدث أن جبل «دايو» وتلال «يوان تشياو» تزحزحت من مكانها وانحدرت تجاه أقصى الشمال [الشمال القطبي] حتى غاصت في البحر، ولم يجد القديسون ساكني الجبال مأوًى لهم ولا الحور والملائكة، بقعة يقيمون فيها، فهاموا على وجوههم في البرية، وكانوا وقتئذٍ كثرة مهولة لا يحصيها عد، وكان أن حمي غضب الملك السماوي، فأنزل لعنته على لونبو العملاق، وقدر عليه أن يتناقص طوله رويدًا، فتضاءل حجمه للغاية، وصار أهل البلد الذين يقيمون معه، أضأل قامة وأقل ضخامة، فلما جاء زمن (الأباطرة الأسطوريين ...) «فوش»، و«شن نونع»، كان الناس في بلدة لونبو قد صغرت أبدانهم، وإن كانت أطوالهم قد ظلت تتجاوز القصبات العشر [القصبة «جانغ»، تساوي نحو ثلاثة الأمتار ونصف المتر] وكان ثمة بلد آخر للأقزام، على بُعد أربعمائة ألف «لي» من الإقليم الأوسط، ويسمى أرض «جياو ياو» [بلد أسطوري] لم يزد طول الفرد فيه عن تشي وخمسة تسون [«تشي»، ذراع صيني، يساوي ثلث المتر؛ «تسون» ثلث ذراع، أي زهاء عُشر المتر] (وقد قيل إن ...) في مكان

بعيد جهة شمال الشرق، يوجد قزم، يقال له «جنغ» [قزم أسطوري] طوله يبلغ تسعة تسون. وقيل إن شجرة تُسمى «يان لينغ» تنبت جنوب منطقة «شينغ تشو»، تزهر طيلة خمسمائة عام، وتذبل خمسمائة أخرى، فذاك تقدير ربيعها وخريفها، وكانت تنبت في العصر القديم شجرة التوت الصيني [حرفيًّا: شجرة «داتشون»] ومقدار ما تعمره من ربيع يبلغ ثمانية آلاف عام، ومدة ما يحول عليها من خريف مثلها. (وذكر في الأعاجيب أن ...) نوعًا من التسوس يوجد في التربة التي تفشى فيها العطن ولحاء الشجر الذي نخره السوس؛ فهو ينشط في الصباح الباكر، ويصير إلى الخمول في المساء، ويقال بأن حشرة طائرة اسمها «منغ نا» تظهر فيما بين الربيع والصيف، وخصوصًا وقت هطول المطر، فإذا طلعت الشمس اختفت تمامًا.

(ومما يُذكر أيضًا، أنه ...) فيما وراء البلاد الشمالية يوجد بحر حائل المياه، تبدو صفحته سوداء اللون، واسم الموضع «بحيرة السماء»، يعيش فيها نوع من الأسماك الضخمة التي يبلغ عرض أجسادها عدة آلاف من الأميال، بينما يبلغ طولها ما يتناسب مع امتداد عرضها، وتُسمى «سمكة كون»، ويعيش في المنطقة نفسها طائر يقال له «الرخ» يبلغ ما بين طرفي جناحَيه، إذا فردهما مقدار سحابة في السماء، وفي طول جسمه ضخامة تتناظر وعرض جناحيه؛ فكيف كان يمكن الاهتداء إلى معرفة هذه الخوارق وسط مجتمعات البشر؟ (وفي الإجابة نقول ...) إن تلك الأشياء قد رآها دايو بعينيه، وقام «بويي» [أشهر الرعاة الأسطوريين] بتعيين أسمائها، بينما توفر «إيجيان» [شخصية أسطورية اشتهرت بغزارة العلوم والمعارف] على تدوين آثارها.

(ومن بين ما يُذكر من الخوارق أيضًا أن ...) هناك حشرة تتكاثر بجوار النهر، تسمى «جياو مين»، وهي حشرة طائرة تحتشد في جماعات تطير أسرابًا، ثم تحط على أهداب الذباب، وتظل هكذا تطير أسرابًا مشتتة ثم تجتمع على أطراف عيون الذباب دون أن يشعر بوجودها، بل إن أشد الناس بصرًا [حرفيًّا: حتى أولئك الذين أوتوا حدة بصر تفوق ما لدى «ليجو» أو «تسيو»] فلن يلحظوا أي ملامح لوجودها ولو دققوا النظر تحت ضوء النهار، ثم إن أسمع الناس للهمس [حرفيًّا: من أوتي حدة سمع شديدة، مثل: «جيو»، و«شيكوان» [شخصيات أسطورية].] لن يسمعوا لها حسًّا وإن أصاخوا السمع وسط سكون الليل.

ليس سوى ابن السماء (الإمبراطور)، و«رونغ تشنزي» [لقب من ألقاب لاوتسي] هما وحدهما اللذان يملكان (... بقوة البصيرة القلبية، بعد أن صاما ثلاثة أشهر، وأقاما بكهوف الجبال حتى خمود شهوة النفس وذبول الجسم ...) أن يشاهدا ما تضاءل من

الهوام وكأنه تل من تلال جبل «سونشان»، وأن يسمعا بقوة إنصات متدارك رفة جناح الدويبة، كأنها هدير الطبول أو هزيم الرعد في عنان السماء. ويُحكى أنه يوجد في دولتي «أو»، و«تشو» نوع من الأشجار يطلق عليه «يو» (الليمون الهندي) وهو نوع من الفواكه دائمة الخضرة طوال فصول السنة [حرفيًّا: دائمة الخضرة شتاءً وصيفًا] ثمرته حمراء اللون وطعمه قابض، والثمرة بقشرتها الخارجية وعصارتها الداخلية تشفي من مرض «نيتشي» (التهاب القصبة الهوائية)، الأمر الذي حدا بالناس، في منطقة «تشيجو» أن يعظموا قدره وفائدته (في المجال الطبي)، هذا بالرغم من أن هذا النبات نفسه إذا زُرع في الضفة الشمالية لنهر «هواي» أنتج ثمرًا (... شبيهًا بـ) البرتقال الحامض.

(ومن أعجب العجائب أن ...) الببغاء لا يمكنه الطيران إلى الجهة الأخرى من نهر «جي»، وإذا قُدِّر للغُرير [وهو حيوان ثديي أشبه بالفئران] أن يعبر نهر «وين»، فموتًا يموت. فتلك كلها جملة أحوال ناشئة عن تباين طبيعة الأرض والمناخ.

وبرغم تعدد وتباين الهيئات والأحوال التي توجد عليها الأشياء كافة، إلا أن الطباع تحتفظ بقدر دائم من الثبات والأصالة؛ فلا ينشأ بينها أي نوع من الاستبدال أو التبديل؛ فلكل شيء وجود متكامل، واستيفاء فطري لكل جوانب تفرده الطبيعي. فما الوسيلة لمعرفة الفرق بين ما هو أصغر وأكبر؟ وما السبيل إلى التعرف على أيها أطول أو أقصر؟ بل ما الطريقة المثلى التي تعيننا على تبيان جوانب الاتفاق ونقاط الاختلاف فيما بينها؟ (ذلك هو السؤال.)

[٣]

«طايهان» و«أوانغو» جبلان عظيمان، امتدا على بقعة من الأرض محيطها سبعمائة «لي»، وقد بلغ ارتفاعهما عشرة آلاف «رن» [مقياس قديم يساوي مترين وثلث المتر، تقريبًا] وموقعهما منحصر بين جنوب إقليم «جي» وشمال «هويانغ»، وفي المنطقة الشمالية من الجبلين، كان يقيم رجل من العامة، في التسعين من عمره، واسمه «يوكونغ» [الاسم يعني، حرفيًّا: الشيخ الأحمق] واتفق أن مسكنه كان يقع بمواجهة سفح المنطقة الجبلية مباشرة، وقد شق عليه المرور بالجبل عبر الدروب الشمالية، فاضطر إلى المسير من خلال الطرق المتشعبة والمتعرجة، (وإذ لاقى من أمره عسرًا، فقد ...) نادى في قومه بأن يجتمعوا إليه، فلما جاءوه قال لهم: هلموا نضم جهودنا معًا؛ لنزيل عثرة الطريق، ونروِّض أعناق الجبال حتى تصير سهلًا منبسطًا وطريقًا ممهدًا؛ ييسر علينا الوصول مباشرة إلى جنوب

«يوجو» [مقاطعة «هنان»، في الوقت الحالي] ونهر «خان» بضفتيه، فأشيروا عليَّ فيما ترون من أمركم. فتشاور القوم وطال بينهم الجدل حول هذه الفكرة [حرفيًّا: لبثوا يتحاجون بسبعة أفواه، وثمانية ألسن] وألقى كل منهم بدلوه، واتفقت كلمتهم في النهاية، حول هذا التدبير؛ غير أن زوجة يوكونغ أبدت شيئًا من التردد؛ إذ قالت: «لست أراكم على شيء من القوة المطلوبة لإزالة (تلال ضئيلة، مثل تلال ...) «كويفو»، فكيف بكم وقد عزمتم على هدم طودين هائلين مثل «طايهان» و«أوانغو»؟ ثم ما بالكم تتغافلون عمَّا سيصادفنا من عراقيل بعد أن نجد أكوامًا من الرمال والحجارة قد تكدست حولنا، دون أن نقوم بتمهيدها، فأين نذهب بها، وإلى أين ننقلها؟» واشتبكت أفواه الجميع في جدل محموم، وقالوا: «لا بأس، فأكوام التراب والحجارة نلقي بها عند ضفتي نهر «بوهاي» ونكدسها شمال منطقة «إينتو».» وعلى ذلك، فقد أشرف يوكونغ، بنفسه، على ما قام به ولده وحفيده من حمل الأحجار والتراب على ظهورهم وأكتافهم، بما في ذلك أعمال التكسير والحفر، ثم كانوا ينقلون الهيل في الصناديق إلى شاطئ البحر. وكان ابن جارتهم (الأرملة) «جين تشن»، الذي لم يكن قد بلغ الحلم [حرفيًّا: لم ينبت في فمه ضرس العقل] عازمًا على المشاركة في العمل، وراح يتقافز هنا وهناك وهو يمد يد المساعدة للعمال، وعلى مدار العام، دارت الفصول وانقلب الصيف شتاءً والشتاء صيفًا، فكان الشغَّالون يدعون ما بأيديهم من عمل، بعض الوقت، فيما بين انتقال الفصول، يخلدون فيه إلى الراحة. وكان أن تطلع إليهم الكهل المقيم بجهة «خوان» ساخرًا ومشفقًا مما يتعبون فيه أنفسهم، وحاول أن يثني يوكونغ عن عزمه، قائلًا له: «يا للشقاء الذي كتب عليك، ويالك من أحمق، أما علمت أن كل ما عندك من وقت وجهد لن يكفي، حتى، لاقتلاع أشجار الجبل من جذورها! فما بالك بالأحجار الضخمة وأكوام الحصى والتراب المتناثرة في كل مكان؟» تنهَّد يوكونغ، وهو يرد عليه، قائلًا: «يا لعقلك المتحجر، وفطنتك الميتة [كذا] وقلبك الأصم. أنت حتى لم تكد تبلغ ما لدى ابن الأرملة من فهم وإرادة (فاعلم أني ...) لو فرغ مني الجهد، وانقضى بي العمر، فسيأتي ولدي من بعدي؛ ليواصل الجهد. وسيكون لولدي حفيد من بعده، يكمل العمل؛ ومن بعد الحفيد ولد آخر، وبعد الولد حفيد؛ لتتواصل مسيرة الأجيال بغير نهاية، فيكثر أولادي وأحفادي كثرة هائلة، بينما الجبل لا يتكاثر، أفليس هناك أمل إذن في أن ينحطم الجبل تحت عزم السواعد وسطوة المثابرة والإرادة؟» ولم يحر الكهل جوابًا. ولما سمع الإله «تساوشن» [حرفيًّا: الإله القابض على رأس الأفعى، وصورته تمثل رأس نمر فوق جسم إنسان] بقصة يوكونغ الذي اعتزم هدم الجبل ونقل ركامه إلى شاطئ النهر، خاف أن يظل الجميع (الرجل وأولاده وأحفاده ...) يعملون هكذا بلا نهاية،

فأبلغ الأمر إلى ملك السماء الذي شاهد وعرف ما انطوت عليه جوانح يوكونغ من تصميم وإخلاص، فأسبغ عليه معونته، وأمده باثنين من أبناء الإله «كواي» [إله القوة والفتوة] هبطا إلى الأرض وحملا الجبلين على أكتافهما، فوضعا أحدهما جهة الشمال الشرقي؛ والآخر جنوب إقليم يونغ (وما أبعد ما بين الجهتين) فمنذ ذلك الحين، صار الطريق سهلًا وممهدًا دون عوائق، بين جنوبي «جيجو» والضفة الجنوبية لنهر «خان».

[٤]

لم يكن «كوافو» [شخصية أسطورية] يعرف كيف يقدر طاقته وقوته على نحو مضبوط، وقد خطر له مرةً أن يحاول اللحاق بظلال الشمس، فبقي يتبعها أينما حلت، حتى آوت الشمس إلى كهفها [حرفيًّا: إلى مبيتها في أرض «يوكو»] وكان أن بلغ به العطش مداه، فهرع إلى النهر الأصفر ثم إلى نهر «وي»، وصار يعب من مياههما دون أن يرتوي، فأراد السفر إلى بحيرات الشمال؛ علها تروي غلته، غير أنه مات على الطريق، وباتت جيفته مطروحة في العراء وإلى جوارها عكازه الذي كان يمشي به، وحدث أن انسربت الدماء والشحم المتهرئ وما تحلل من الجثمان إلى جوف العكاز، فأحالته إلى غصن رطب، وصار الغصن شجرة دراق، وكانت الشجرة كثيفة الأوراق سابغة الظلال، حيث نثرت الظل فوق آلاف آلاف الأميال.

[٥]

قال دايو: «لم يسطع في الأنحاء كافة [حرفيًّا: في الاتجاهات الأربعة وفي كل مكان] إلا ضوء الشمس والقمر، ولم يتلألأ في صفحة السماء سوى النجوم، (ثم إن ...) أجزاء الفصول انقسمت إلى ربيع وصيف وخريف وشتاء، ووُضعت مواقيت المشتري لحساب الأعمار والسنين، وقد أسبغت الآلهة فضلها فوق الجميع، بمختلف الخصائص والسمات والهيئات، ولكلٍّ نصيب من الفضل، (... ومن الناس من يموت في باكر العمر ومنهم من يعيش السنين الطوال) فهناك حكمة لا يعلمها إلا الفاهمون من القديسين.»

وقد قال شياكي: «ومع ذلك، فهناك ما يتبدى قبل بدء الآلهة، وما تختلقه يد التغيير والإبداع دون ما يبدعه الـ «ين» والـ «يانغ» [طاقات الإبداع] وما تتشقق عنه أكمام النور من دون شمس ولا قمر، وما يعاجله الموت بغير نكبة داهمة، وما يطول به البقاء بغير مدد من عنفوان العمر وبهجة الأيام، وما يشبع بغير طعام [حرفيًّا: بغير الحبوب

الخمسة: الأرز، القمح، الذرة ... إلخ] وما ينعم بالدفء بغير كساء، وما يرحل ويبحر بغير قارب ولا قافلة؛ فتلك كلها أنماط من الطبيعة، تغمض أحوالها عن فهم القديسين الحكماء.»

[٦]

كان «يو» (الملك) حريصًا على إصلاح الترع والمصارف ومراقبة أحوال الأراضي (فبينما هو مستغرق في عمله هذا ...) شرد عن الطريق، فضل السبيل، فوطئ أرض بلد أخرى غير بلاده، وسار بحذاء بحر «بيهاي» من ناحيته الشمالية دون أن يعرف مقدار المسافة إلى منطقة «تشيجو» (وكانت الدولة التي دخل أرضها ...) تُسمى دولة «تشونبي»، لكنه لم يكن يعرف إلى أين تمتد أطرافها، ولا آخر مدى حدودها، بيد أنها كانت أرض جفاف لا يسقط فيها مطر ولا يتكاثف في أجوائها الندى، فكأنها بلقع خالٍ لا تعشش فيه الطيور ولا تأوي إليه دواب البرية ولا ينبت فيه عشب أو شجر ولا تسبح في مياهه الأسماك. ليس سوى السهوب الواسعة تحيط بأطرافه الأربعة، ووراءها سلاسل جبال وتلال متصلة كعقد نظيم، وفي وسطها يقع جبل كبير يُسمى جبل «هولين»، يبدو من بعيد، على هيئة إناء فخاري طويل العنق، ضئيل الفوهة وفي قمة الطود كهف يشبه حلقة مستديرة، يقال له «كهف تسي شوي»، وبداخله تنبع عين ماء فوارة، هي عين «شن فن» [بئر الآلهة] فماؤها لطيف الرواء، ذكي الرائحة، له عَرْف أعطر من الزهر السحلبي والديش الفواح، وقد ساغ للشراب، فهو أصفى من خمر مذاب، والعين تسيل في أربعة جداول تنحدر من أعلى السفح فتصب ماءها في جوف الوادي، ثم تجري في تعاريج الأخاديد فوق أرض ذلك البلد، فتملأ كل بقعة ويصل مداها إلى كل الأركان. والبلد طيب الأرض معتدل المناخ، لا يجتاحه وباء ولا تنزل بأرضه الآفات، والناس في رباط من الود والتسامح، لا تفرقهم إحن ولا مشاحنات، انطوت أسرارهم على المصافاة، وانطبعت نفوسهم على كريم السجايا؛ فهم وادعون بغير حمق ولا ضغائن أو تحاسد، كبيرهم وصغيرهم في فناء واحد لا تعرف عامتهم من خاصتهم، يجوبون ساحات الفرح واللهو يدًا بيد، لا فرق في ذلك بين ذكر وأنثى، ولا حاجة بهم إلى وسيط زواج ولا حفل عرس، وبيوتهم على شطآن الماء تتبع مسيل الخلجان أينما سالت، وهم لا يزرعون أرضًا ولا يحصدون زرعًا، وقد اعتدل المناخ، وصلحت الأراضي والأتلام (لكنهم، رغم ذلك ...) لا يحتاجون إلى شيء منها؛ فهم لا يغزلون ولا ينسجون ولا يرتدون ثيابًا، وتمتد بهم سنو الحياة حتى المائة، فلم

يحدث أن توفي أحدهم من شيخوخة آفلة أو مرض عضال، وقد تناسلوا فعظمت كثرتهم، وصار منهم العدد الوافر فوق الحصر، فشملتهم السعادة وطاف بهم طائف السرور، والحياة رغد وعيش هانئ؛ فليس بينهم شيخ فانٍ ولا بائس مكروب. والقوم محبون للموسيقى والغناء، يتناوبون الغناء والعزف جماعات مترادفة، لا يسأمون طول الطرب وكثرة المعازف والغناء. فإذا أصابهم الجوع أو التعب، قصدوا إلى البئر الإلهي فشربوا حتى ارتووا، ثم صفت روحهم صفاء البدء الأول، ولربما انكبوا على الشراب فنهلوا منهل ظامئ لا يرتوي، فظلوا هنالك حتى ثملوا من عذوبة النبع الجاري، فبقوا في الثمالة لا يفيقون إلا بعد خمسة عشر يومًا، ومنهم من يغتسل بماء العين الربانية، فيعود البدن منه رطبًا رائق الجلد لامع البشرة، وأحاط به أريج فائح العطر، لا يزول عنه إلا بعد عشرة أيام. وطاف الملك بدولة «تشونبي» من ناحيتها الشمالية، مدة ثلاث سنوات، دون أن يفكر في العودة إلى بلاده، لكنه حتى بعد أن رجع إلى الوطن، راح يفكر في ذلك البلد الذي شاهده في ترحاله، وقد ملك عليه إحساسه بالعجب والدهشة والانبهار؛ لدرجة أنه انشغل بهذا التفكير طوال الوقت، متغافلًا عن الطعام والشراب، بل حتى عن الاستمتاع بلذة أوقاته مع محظيات القصر، واحتاج الأمر عدة أشهر حتى عاد إلى حالته الأولى (التي كان عليها قبل ذهابه في ترحاله البعيد) وكان «كوانشون» [أحد أهم الخبراء السياسيين في مطلع زمن الدول المتحاربة] قد نصح للملك «خوان»، حاكم دولة تشي، بالتنزه في منطقة «لياوكو»، وسنحت له الفرصة أن يذهب برفقة مولاه إلى دولة تشونبي في الشمال، على سبيل النزهة والترفيه، فما كادت تأذن لهما ساعة السفر حتى ابتدرهما «شيمنغ» بالاعتراض على تلك الرحلة السياحية قائلًا (لجلالة الملك): «أيريد الملك أن يرحل عن دولة تشي، بما رحبت به من عز وبهاء ووفرة في السكان والمشاهد الطبيعية الساحرة لجبالها وأنهارها، وما تزخر به من خيرات هائلة، وما أقيم في سرادقاتها الملكية من مراسم ملكية جليلة، وما تطرزت به منسوجاتها وأثوابها من لمسات الجمال والإبداع، وما امتلأت به ردهات قصورها من فتيات ومحظيات حسان، هذا بالاضافة إلى ما عمرت به قلوب المخلصين لجلالتك من عرفان وتبجيل. ألا يكفيك، يا سيدي، أن ترفع صوتك بالأمر الملكي فتصدع آلاف مؤلفة من جنودك خاضعة مخلصة في الطاعة، وبإشارة (بسيطة) من يدك تأتيك صفوف النبلاء والأمراء راضخة لأوامرك. فما الذي تراه داعيًا للانبهار بذلك البلد البعيد الذي تترك لأجله، أرض بلادك وآلهتها، لا لشيء إلا لتحث الخطى وتقود الخطو إلى أرض الحمقى وموطن البلادة والجهل والتخلف؟ ولا أرى سوى إنها فكرة سقيمة صدرت عن كوانشون، فلماذا تراها جلالتك جديرة بالإصغاء والتأمل؟» فلما تفكر الملك

هوان في الرأي الذي طرحه عليه شيمينغ، اقتنع به وتخلى عن فكرة الرحلة إلى خارج الوطن، وكان أن أبلغ مقالة شيمينغ إلى كوانشون، فما كاد هذا الأخير يعرف بها، حتى رد قائلًا: «لا أظن أن ذهن شيمينغ يمكن أن يتفتق عن مثل هذا الرأي (هذا أولًا، وثانيًا ...) فربما كنت غير ملم بأحوال ذلك البلد البعيد، ولست أستطيع الزعم بأني على دراية تامة بأحواله، لكن بشيء قليل من المقارنة، نجد أنفسنا أمام سؤال مهم جدًّا وهو ... ما الذي يدعونا، حقًّا، للتشبث ببلد كثير السكان، ما الذي يشدنا بالحنين إلى بلد مزدحم بالموارد؟ انظر يا مولاي وتأمل، هل ترى فيما قاله شيمينغ شيئًا جديرًا بالاهتمام؟»

[٧]

يحلق الجنوبيون شعورهم ويعرون أجسادهم؛ في حين يرتدي الشماليون أغطية للرأس ومعاطف من الفراء، أما سكان مناطق السهول الوسطى فيلبسون القبعات والتنورات. وتتوافر الموارد في بلاد الأقاليم التسعة [حرفيًّا: «جيو جو» (الأقاليم التسعة) ... الصين الكبرى، يعني] ويعمل الناس في شتى الحرف؛ فمنهم من يزرع الأرض، ومنهم من يعمل بالتجارة، أو يستصلح الأراضي، وهناك من يحترف الصيد. تلك أمور قد تشكلت بمرور الوقت، وبحكم تأثير الطبيعة (الكامن) في كل شيء، وترسخت كجزء فطري وطبيعي في حياة الناس على نحو ما يشاهد من ارتداء الفراء والجلود في الشتاء والملابس القطنية في الصيف، أو في عبور البحر بالقارب، واجتياز دروب البر في عربة ذات عجلات.

إلى الشرق من دولة يوي تقع دويلة «جامو»، حيث يقوم الناس هناك بالتهام البكور من مواليدهم، ذكورًا كانوا أم إناثًا؛ وذلك لاعتقادهم أن مثل هذا التصرف يفيد في إنجاب مواليد جدد أكثر صحة وقوة؛ وإذا مات لديهم الجد (للأب) حملوا الجدة وطرحوها في خلاء القفار البعيدة قائلين: «لا ينبغي أن يقيم بين الأحياء زوجات الشياطين [أشباح الموتى ... الذين ماتوا]» وإلى الجنوب من دولة تشو يقع إقليم «يان رن» حيث (يتبع الناس عادة غريبة، وهي أنه ...) إذا مات الوالدان أو أحدهما، قطعوا أوصاله ونزعوا اللحم عن العظام، ثم دفنوا الهيكل العظمي، باعتبار أن مثل هذا الصنيع دليل على البر والرحمة بالآباء والأمهات، وإلى الغرب من دولة تشين تقع دويلة «إيتشو»، حيث يقوم الأهالي هناك بحرق جثمان آبائهم المتوفين تحت كومة من الحطب، فإذا اندلعت ألسنة النيران وارتفعت في الأجواء، زعموا أن أرواح ذويهم قد انتقلت، على أطراف ألسنة اللهب إلى السماء؛ ليسكنوا هناك ملائكة أبرارًا، وسلوكهم هذا يؤكد البر بالوالدين (في زعمهم) فكل

هذه النماذج المذكورة (من المواقف الغريبة) من التقاليد الاجتماعية (الرسمية) والعادات الشعبية، لا تثير (لدى معتنقيها) أي قدر من الدهشة أو الاستغراب.

[٨]

كان كونفوشيوس مسافرًا جهة الشرق، فبينا هو على الطريق إذ رأى صبيين يتجادلان، فسألهما عما يتنازعان فيه، فقال أحدهما: «كنت أقول لصاحبي إن الشمس ساعة الشروق أقرب مسافة إلى رءوس الناس مما هي عليه ساعة الظهيرة.» في حين زعم الصبي الآخر لـ «كونفوشيوس» أنه يرى أن الشمس لدى الشروق أبعد مما هي عليه عندما تكون في كبد السماء منتصف النهار، وهنالك قال الصبي الأول: «لكن الشمس ساعة الشروق تبدو هائلة كقبة كبيرة أو كغطاء عربة؛ فإذا جاء وقت الظهيرة تضاءلت حتى صارت كطبق مستدير، أفلا يعني ذلك أنها عندما تبعد تبدو أصغر؟» فرد عليه الصبي الثاني قائلًا: «لكنها عند طلوعها يكون الجو معتدلًا، رطب النسمات، أما في منتصف النهار فتكون حارقة حتى لكأن المرء غارق في أفران النار [حرفيًّا: لكأن المرء غارق في قدر حساء فائر من شدة الغليان] وإذن، أليس هذا دليل على أن حرارة الشمس تشتد وهي قريبة من رءوسنا، بينما إذا بعدت المسافة صارت حرارتها أقل حدة فانتعش النسيم وطابت الأجواء أول النهار؟» ولم يكن لدى كونفوشيوس ما يقطع به في هذه المسألة، فما كان من الولدين إلا أن تطلَّعا إليه ضاحكين، وهما يقولان له: «(لئن كنت أنت نفسك متحيرًا هكذا ...) فكيف زعموا أنك واسع العلم غزير المعرفة؟»

[٩]

التوازن هو أسمى حقيقة في الدنيا كلها، فكل الموجودات، بأشكالها المختلفة، تخضع لهذه الحقيقة. بل إن شعرة رفيعة يمكنها أن تصمد لأثقال مدلاة، إذا ما توازنت قدرتها مع الشيء المعلق، وباختلال التوازن تنقطع الشعرة؛ ذلك لأن قوتها لم تعد تتكافأ مع مجهود الثقل المحمول؛ وإذ يتحقق الاتزان، ينعدم الانقطاع الذي كان محتملًا. ومن الناس من لا يصدقون هذا القول، وإن كان البعض — وهذا طبيعي جدًّا — يفهمون ما تنطوي عليه هذه الحقيقة (على أساس) من منطق معقول، وقد قيل إن «جانهي» [أحد أشهر الصيادين في التاريخ القديم] لم يستخدم في صنع صنارة صيد سوى خيط حريري (طبيعي، استخرجه من شرنقة) وشص صيد عبارة عن إبرة معوجة، وعصا رفيعة من

خشب الإرثد، ثم وضع في الشص حبة أرز طعمًا للسمك، وقد تمكن من اصطياد كمية هائلة منه [حرفيًّا: حمولة عربة كبيرة] وسط تيار نهر دافق، وعلى عمق سحيق، دون أن ينقطع الخيط أو أن يلتوي الشص، أو تنثني القصبة، فلما بلغ الأمر مسامع ملك دولة تشو، انتابته الدهشة، وأمر باستدعاء جانهي ليستعلم منه أصل الحكاية وتفسيرها، فلما مثل الرجل بين يدي جلالته، كلمه قائلًا: «كنت قد سمعت أبي (المتوفى) وهو يقول: «إن الصياد المشهور «بوتشي تسي» كان يستخدم قوسًا هزيلًا جدًّا في اصطياد الطيور، (وكان يربط السهم في القوس ...) بخيط حريري ناعم ودقيق، ثم يطلق السهم في اتجاه الريح، فيصطاد اثنين (من طير الصفارية) وهما يطيران في الأعالي، بسهم واحد؛ والسبب في تمكنه من الصيد (بهذه المهارة) هو أنه كان يجيد الانتباه إلى ضرورة السيطرة على يده حسب قوى الاتزان، فتعلمت من هذا المثال، مجتهدًا في تطبيق التجربة على صيد الأسماك، فلم تنقضِ خمس سنوات حتى صرت حاذقًا (لقاعدة التوازن) فكلما ذهبت إلى شاطئ النهر، وألقيت قصبتي للصيد، أفرغت ذهني من كل شيء، إلا من هدف واحد أعملت فيه فكري، وقصرت عليه غايتي، وكنت أدع الشص يغوص إلى أعماق النهر، بينما جعلت قوة القبضة على القصبة ثابتة، فلا هي تشتد حينًا ولا تتراخى حينًا آخر، ولم يكن لأي شيء في الوجود أن يزيغ انتباهي، حتى كانت أسماك النهر تنظر في الطعم العالق في الشص فتراه جزءًا من كائنات الوجود الطبيعي الماثل في الأعماق، من حولها، أو كأنه فقاعة مجتمعة في بقعة من البقاع وسط الماء، فتقبل عليه وتلتهمه دون أدنى تردد، ولئن كنت أكسب القوى بوسيلة ناعمة، وأوقع بالثقيل الضخم بواسطة وسائل خفيفة وهزيلة؛ فلأني كنت أتبع المنهاج الذي ذكرته آنفًا. وقد يرى مولاي الملك فيما اتخذه «بوتشي تسي» من فنون الصيد، مثالًا لإصلاح شئون الممالك، أو قد تكون طريقتي في صيد البحر نموذجًا صالحًا للتأمل، ومِن ثَم تمتثل الدويلات والممالك جميعًا لسطوتك، وتخضع كل الأشياء لإرادتك.» وعندئذٍ أجابه الملك قائلًا: «هذا هو القول السديد حقًّا».»

[١٠]

كان كل من «قونهو» [من أهالي دولة «لو»] و«تشينغ» [من أهالي دولة «جاو»] قد أصابهما مرض عضال، فذهبا إلى الطبيب «بيان تشيو» [المشهور جدًّا في زمن الدول المتحاربة] فأعطاهما العلاج الشافي، فأبلَّا من المرض، في آن واحد. وكان الطبيب قد قال لهما: «إنما نزل بكما المرض لأسباب خارجية أحدثت تأثيرها الضار (بالناحية الباطنية)

وعمومًا، فقد كان يكفي استخدام العقاقير والأعشاب والأدوات الجراحية العادية للشفاء التام من المرض، لكنكما ما زلتما مريضين بعلل مزمنة (مصاحبة لكما منذ الميلاد، منذ أن كنتم أجنة في الأرحام) فهل تريدان أن أعالجكما منها؟» فأجابا كلاهما في وقت واحد: «بل اشرح لنا، أولًا، الحالة المرضية لتبصرنا بها.» فتوجه الطبيب «بيان تشيو» بكلامه إلى قونهو قائلًا: «إن قدراتك الذهنية قوية جدًّا، لكنك ضعيف الإرادة، فمن هنا، يميل مزاجك إلى التفكير العميق دون حسم؛ لكنك يا تشينغ، ضعيف الطاقة الذهنية مع صلابة في الإرادة؛ فلذلك لا تصبر على التفكير وإنما تستبد برأيك كثيرًا، فإذا تبادلتما قلبيكما كان في ذلك تمام الصحة والعافية.» ثم إنه سقاهما شرابًا مخدرًا، فناما ثلاثة أيام كاملة، فشق عن صدريهما وأخرج قلب كل واحد منهما من جوفه، واستبدله بقلب صاحبه، وعالج الجرح بأدوية معقمة، (... وانتهى من العملية الجراحية) فلما أفاقا كان أثر الجراحة قد زال تمامًا، فودعا الطبيب وخرجا من عنده قاصدَين ذويهما، إلا أن قونهو ذهب إلى منزل تشينغ، في حين أسرع هذا إلى منزل الآخر، وكل منهما يظن أنه قد عاد إلى امرأته وأولاده، بيد أن الزوجة والأولاد أنكروا قونهو، مثلما أنكر البيت الآخر مجيء تشينغ إليه، ودب النزاع بين الأسرتين وارتبكت أحوالهما، ولم يكن مفر من استدعاء الطبيب «بيان تشيو» لتوضيح الموضوع برمته، ولم يتوانَ الرجل عن ذلك، فذهب إليهم وقام بتوضيح المسألة بكل ملابساتها؛ وساعتئذٍ، انتهت الجلبة وانفض النزاع.

[١١]

كان «خوبا» إذا عزف على القيثارة [وهو الموسيقي العظيم في الأساطير الصينية] تحلقت الطيور ورقصت في أجواز الفضاء، وطرب السمك في أعماق الماء، فلما نما هذا الأمر إلى علم «شي وين» الموسيقي المشهور في دولة «جنغ» قرر أن يتفرغ لدراسة الموسيقى (في مستوى متقدم) على يد الموسيقار الأعظم «شيرانغ» [وهو الذي علم كونفوشيوس أصول العزف على الآلات] وقرر، في سبيل ذلك، أن يهجر بيته وأولاده، وكان يقتفي خطو أستاذه ويحذو حذوه، ولم يكن يلمس وترًا في القيثارة إلا على نمط الموسيقار الأكبر، وبقي هكذا ثلاث سنوات، لكنه بعد هذه المدة لم يفلح في أن يعزف قطعة موسيقية كاملة، وعندئذٍ تكلم معه «شي وين» قائلًا له: «أرى أن ترجع إلى بيتك.» فما كان منه إلى أنه وضع القيثارة، وتنهد قائلًا: «لست عاجزًا عن العزف، ولا عن إتمام معزوفة موسيقية كاملة؛ فلست أستطيع أن أقصر أفكاري على الآلة والأوتار، ولا أملك أن أستصفي كل انتباهي

وطاقتي النفسية والذهنية للأداء الموسيقي؛ فلذلك خشيت أن أمد أصابعي، بشكل متسرع إلى الأوتار، فأطرقت أتأمل برهة من الوقت، لعلي أهتدي إلى ما أنا صائر إليه من أحوال.»

وبعد أيام التقى شي وين بأستاذه شيرانغ الذي سأله قائلًا: «كيف أخبارك مع تمارين العزف الآن؟» فأجابه قائلًا: «لا بأس بما تدربت عليه، فهلا سمحت بأن أجرب شيئًا ألقيه على مسامعك الساعة؟» ولما كان الوقت آنذاك ربيعًا، فقد تناول شي وين القيثارة وعزف له من السلم الموسيقي الثاني [حرفيًّا: من الوتر «شانغ»] قطعة موسيقية من مقام «نان لو» [المقام العاشر، أحد المقامات الاثني عشر المشهورة في الموسيقى الصينية القديمة] فكانت الريح تهب والنسائم تدور في الفضاء مع رنة الأوتار، وفي كل آن تميل أوراق الشجر متراقصة على الأفنان، فما جاء أوان الخريف صار العازف يعزف من الوتر «جياو» قطعة من مقام «جياجون» [المقام الرابع] فتتلطف الأجواء ويرق العبير وتنبت الأغصان؛ ثم لما كان فصل الصيف، جعل يدق الوتر الرابع «يو» وهو يعزف من المقام العاشر، فبلغت الأنغام من الروعة حدًّا أنزلت به الجليد والثلج، أوان القيظ والهجير، وتجمدت المياه في الأنهار والبحيرات، فلما جاء الشتاء، جعل يضرب على الوتر «تشي» (الوتر الثالث) ويعزف الموسيقى من مقام «روي يين» (المقام السادس) فكانت أصداء العزف تؤجج وهج النهار وتذيب الجليد المتراكم فوق قمم الجبال، وفي نهاية العزف راح يضرب وترًا من مقام «قونشيان»؛ ليجمع فيه روعة خصائص الفصول الأربعة كلها، فكانت تهب نسائم أرق من المخمل، وتطوف سحابات كالبشائر الطيبة وينزل من السماء ندًى كالشهد المصفى، وتنفجر في الأرض عيون ماء عذب كالنبيذ، أو كأفواه القرب على أرض عطشى، ومِن ثَم، فقد تهلل الشيخ شيرانغ، وكاد أن يطير من السعادة، وصار يقول: «ما أروع عزفك أيها الموسيقار المبدع، لم يعد يجاريك الآن أحد في براعتك [حرفيًّا: أين منك الآن، «شيكوانغ» و«تشويان»] ولا أظن أن أحدًا، حتى لو كان من أشهر الفنانين، يمكن أن يفوقك فيما وصلت إليه، بل إن أمهر العازفين لن يسعه إلا أن يحمل قيثارته أو نايه أو صفارته أو صندوق أوتاره ويمشي وراءك يترسَّم خطاك.»

[١٢]

كان «شيوتان» قد درس الغناء على يد «تشين تشينغ» [أشهر المغنين في دولة تشين]، وقبل أن ينهل الكثير من علومه، ظن بنفسه اكتمال الموهبة والتدريب، وقام مودعًا، وقد أخذ أهبة العودة إلى بلده. ولم يحاول أستاذه أن يحثه على البقاء عنده (فترة أطول لاستكمال

الدراسة) فأقام له حفل توديع كريم، وعزف له على الآلات الإيقاعية وغنى أعذب الألحان، وكانت الأغاني حزينة مثيرة للشجن، حتى اهتزت من شجوها غابات من الشجر، وأمسكت الريح السائرة والسحب المسافرة عن الرحيل، وتأثر شيوتان للغاية، حتى إنه تراجع عن فكرة العودة إلى الوطن، وقرر أن يبقى ليواصل دراسته، وأنبأ أستاذه بذلك، وهو ما كان يعني أنه لن يجسر بعدها أن يفاتحه في مسألة العودة إلى أهله وبلاده بأي حال. والتفت «تشين تشينغ» نحو صديق له، وقال: «كانت الفنانة القديرة «خانو» [مطربة مشهورة في العصر القديم] بعد أن سافرت شرقًا إلى دولة تشي، قد عانت الجوع والحرمان، فمكثت حينًا لدى بوابة العاصمة تتسول الغذاء بالأغاني، والغريب في الأمر هو أنها، بالرغم من مغادرتها لدولة خان — مسقط رأسها — لفترة طويلة، فقد ظل صوتها الشادي يتردد في جنبات منزلها، بين الجدران والأعمدة والأسقف، طوال ثلاثة أيام بلياليها، من دون توقف؛ حتى ظن الجيران أنها ما زالت مقيمة بالمنزل، وحدث — ذات مرة — أنها كانت مارة بباب خان المسافرين، فانهال عليها أحد المارة سبًّا مقذعًا، فتألمت للغاية، وانتابها الحزن والاكتئاب، حتى بكت بكاءً مرًّا، فأصيب أهل البلدة عن آخرهم، من شدة تأثير صوتها الباكي، بالأسى والمرارة، وظلت عيونهم تذرف الدموع ثلاثة أيام، لم يقربوا فيها طعامًا أو شرابًا، ولم يسعهم إلا أن يتبعوها أينما مشت، حتى إذا عادت أدراجها إلى حيث تقيم، رفعت صوتها بغناء (صافٍ مشرق، مفعم بالحياة) فما بقي أحد من الناس، صغير أو كبير، إلا تقافز مرحًا، وصفق متهللًا، وهو يصاحبها بالغناء، حتى تبدد ما كانوا فيه، منذ برهة، من غم وألم وأحزان، وطفقوا يبذلون لها أثمن ما لديهم من هدايا، ووقفوا لتوديعها وهي في أول طريق العودة؛ فلذلك بقيت عادة حب الطرب والغناء تقليدًا متبعًا في المناطق المحيطة بباب العاصمة (حتى يومنا هذا ...) وما زال الناس في تلك المناطق يألمون للغناء الحزين، أيضًا؛ وذلك لما بقي فيهم من أثر غناء خانو، في تلك الأيام البعيدة.»

[١٣]

كان «بويا» عازفًا قديرًا على القيثارة [أحد أمهر العازفين في العصر القديم] في حين كان «جونزتشي» متذوقًا للألحان، شغوفًا بالاستماع، عالمًا بأسرار النغم. وحدث أن كان بويا يعزف لحنًا يعبر عن فكرة ارتقاء الجبال وصعود القمم العالية، فإذا بـ «جونزي تشي» يقول: «آه ... ما أروع هذا النغم ... ما أبدع التصوير وبراعته، حتى لقد بدا لي كأني أرى جبال «تاي» بقممها الشامخة أمام عيني.» وبعد لحظة كان العازف البارع يعزف

قطعة يشير مضمونها إلى جريان ماء النهر في الجداول، فما كان من جونزي تشي إلا أن هتف قائلًا: «أرى في الموسيقى صفحة نهر عريض الضفتين، وها هي ذي مياهه تنساب أمامي!» وهكذا، فما من خاطرة أو فكرة اشتملت عليها الموسيقى إلا تراءت لإحساس جونزي تشي وذائقته المرهفة، وكان بويا، ذات يوم، في زيارة إلى منطقة السفح الشمالي لجبل «تاي»، حيث أمطرت السماء فجأة وأرعدت، فاضطر (مع الآخرين) إلى الاختباء في جانب من جرف الجبل، مما أصابه بقلق بالغ (وللتغلب على شعوره بالخوف، وعملًا بمنطق مواجهة المخاوف بمعايشة أجوائها، بوسائل جمالية ...) تناول قيثارته وجعل يعزف، فكان أول النغم يحمل معنى زخات المطر المتتابع، ثم كان اللحن الثاني يشير إلى زلزلة الأرض وانفلاق السماء؛ وهو ما استطاع جونزي تشي أن يفهمه في الحال، ثم إن بويا وضع القيثارة جانبًا، وتنهد وهو يقول: «أراك قد فهمت ... لا بأس ... فأنت إذن أحسن من يفهمني (أنت الأذن الفاهمة والقلب الصديق ...) لك خيال ومشاعر يكادان أن يتطابقا مع خيالي ومشاعري، فلن تخفى عليك رنة أوتاري [حرفيًّا: فإلى أين المفر من صوت قيثارتي، وما وراءها من مشاعر وأفكار؟]»

[١٤]

كان الملك «مو» [تُنطق كما في: «موسى»] — الحاكم في أسرة تشو الملكية — في رحلة تفقدية إلى المناطق الغربية، عبر فيها جبال «كونلون» حتى وصل إلى مرتفعات «يان»، ثم عاد أدراجه، وقبل أن يصل إلى حدود الإقليم الأوسط صادف في الطريق أحد العمال المهرة، ويدعى «يانشي»، فلما مثل الرجل بين يدي جلالته، ابتدره قائلًا: «أرني شيئًا من مهارتك وفنون صناعتك.» فأجابه الرجل، قال: «لك السمع والطاعة في كل ما تأمر به، فلن أتوانى عن أن أستعرض من مهارتي ما تعينه لي وتأمرني به، يا مولاي، غير أن هناك شيئًا كنت قد اخترعته وبذلت فيه غاية الجهد، وأريد أن أمتع نظركم بمشاهدته.» فقال له الملك مو: «فأحضره معك في الغد، عسانا أن نجد فيه ما يسر أنظارنا.» وأقبل يانشي في اليوم التالي، وطلب الإذن بمقابلة الملك، فأذن له، فسأله جلالته: «من هذا القادم معك؟» فأجابه: «هذا إنسان قد صنعته بيدي هاتين، وهو يستطيع أن يستعرض العديد من المهارات الفائقة التي تسر الناس وتبهج المشاهدين.» واستغرب الملك وراح يمعن النظر في ذلك الإنسان المصنوع وهو يتحرك وينتقل هنا وهناك، جيئةً وذهابًا، وينحني ثم يعتدل. وفي كل ذلك لا يبدو أي فرق بينه وبين الإنسان الحقيقي، بل الأعجب من هذا كله،

ولعله الأكثر تبيانًا للبراعة الفنية أيضًا، هو أنه كان يستطيع أن يلتفت برأسه ويميل بها وهو يغني بصوت متوافق مع إيقاع الموسيقى ومقام الغناء، بينما كان أثناء الغناء يحرك ذراعيه وقدميه، وهو يتنقل في أنحاء المكان، ويرقص بين الحين والآخر رقصًا إيقاعيًّا سليمًا ومتوافقًا مع الدقات المتوالية، لا يختلف في الأداء عما يقوم به البشر، حتى بدا في لفتاته وسكناته وكل أفعاله ملتزمًا الأسلوب الصحيح على النمط المألوف في سلوك الناس العاديين، لدرجة أن الملك تشكك في أنه يمكن أن يكون بشرًا، فجمع محظياته وزوجاته ووصيفات القصر ودعاهن لمشاهدة هذا المنظر الغريب، ولما أوشك العرض على الانتهاء، أخذ ذلك الرجل المصنوع يغمز بعينيه للحسناوات من وصيفات القصر ومحظياته اللاتي كن يجلسن بجانب الملك مو؛ مما أثار استياء وغضب جلالته، حتى إنه أراد أن يفتك بـ «يانشي»، غير أن هذا الأخير خاف من عواقب الغضب، فأسرع يفكك ذلك الإنسان/الآلة، ويخلع أجزاءه أمام الملك فإذا هو خليط من جلود وحشائش ونشارة أخشاب وصمغ ومواد لاصقة وقطع ملونة من مختلف الأصباغ، واهتم الملك بفحص محتوياته الباطنية؛ فإذا هو مكتمل الأعضاء البشرية الباطنية: الكبد، القلب، الحويصلة الصفراوية، الطحال، المعدة؛ مثلما كانت هيئته وأعضاء جسمه الخارجية متسقة مع التشريح الطبيعي: فتلك هي العظام والعضلات والأعصاب، وهذه هي الأطراف والمفاصل، وهذا هو الجلد والشعر والأسنان؛ لكنها جميعًا، وبرغم تماثلها مع نظائرها من أعضاء الجسم الإنساني، فقد كانت (صناعية) غير طبيعية.

(وبعد لحظات) كان يانشي يجمع أجزاء ذلك الإنسان العجيب ويضم أعضاءه ويسوي أطرافه حتى عاد إلى صورته التي كان عليها وقت ظهوره الأول أمام المشاهدين، وحاول الملك، بنفسه، أن ينزع قلبه، فإذا بالفم ينطبق ويعجز عن الكلام؛ ثم لما نزع الكبد من جوفه، زاغت عيناه، وعميت عن النظر، وعندما أزاح الطحال من موضعه، توقفت القدم عن الحركة؛ وعندئذٍ تهلل وجه الملك فرحًا، وتنهد قائلًا: «يبدو أن عجائب وبدائع المهارات الفنية الإنسانية، لا تقل شيئًا عن إبداع الخلق الطبيعي!» ثم إنه أصدر أمرًا بنقل هذه الآلة الشبيهة بالإنسان في عربة خاصة لإيداعه القصر الملكي.

(ولقد كان هناك على مر التاريخ مخترعون ومبدعون كثيرون ...) فهذا «بانشو» صاحب السلم السماوي [«بانشو» — أو، كما يُسمى أحيانًا، «لوبان» — من أشهر النجارين في التاريخ القديم، صنع سلمًا ضخمًا؛ ساعد على اقتحام المدن الحصينة وراء جدران عالية] وذاك «مودي» مخترع الطائرة الورقية الخرافية [النسر الطائر ... التي

كانت تحلق في الأجواء طيلة أيام وأسابيع] وكلاهما كان قد اختال على الناس فخرًا بما صنعت يداه، لا سيما وقد حازا من المهارة والموهبة ما تفوقا به على كثير من الموهوبين، إلا أن حكاية الإنسان الصناعي راحت تنتشر بين الأهالي، ووصلت إلى مسامع «دونغ منكو» [تلميذ بانشو، النجار] و«تشين قولي» [تلميذ مودي] وبالطبع فقد أبلغا أستاذيهما بنبأ تلك الحادثة الغريبة؛ مما أذهل هذين المخترعين الكبيرين (وسحب بساط المجد من تحت أقدامهما) فبقيا، منذ ذلك اليوم، عاكفين على صناعتهما في صمت ودأب.

[١٥]

قيل إن «كانين» أحد أشهر الرماة في العصور القديمة، كان قد مهر جدًّا في القوس والوتر، حتى إن جذبة قوس ورمية سهم، ما كانت أبدًا لتفلت وحش الفلاة، فما هي إلا ضربة واحدة مصمية، حتى يتردَّى السبع ميتًا في الحال، وكذلك الطير، إذا صارت هدفًا لسهامه، وهي في أجواز الفضاء، سقطت تتهاوى إلى الأرض؛ وكان للرامي المشهور أخ أصغر منه، يُدعى «فيو»، وقد تعلم منه فن الرماية حتى حذقه، بل تفوق عليه وأقبل على هذا الأخ الأصغر طالب آخر اسمه «جيشانغ»، يريد أن يتلقى دروس الرماية على يديه، وهنالك نصح له «فيو» قائلًا: «عليك، أولًا، أن تتدرب على النظر إلى الأشياء دون أن ترمش بعينك؛ هذا هو الأساس، قبل البدء في الحديث عن أي شيء في الرماية.» وعاد جيشانغ إلى أهله، وجعل يتطلع إلى دواسة النسيج التي تعمل عليها زوجته، ويركز نظره عليها أثناء عملية النسج، ويحدق ببصره طويلًا، دون أن يرمش للحظة واحدة، (ودأب على هذا التمرين …) فما مر عليه عامان حتى كان قد تمرس على قوة التركيز البصري لدرجة أنه ما كان يحرك رموشه، حتى لو انغرس في بؤبؤ العين مخرز أو رأس دبوس رفيع؛ وإذ بلغ هذه الدرجة المتقدمة من المهارة، فقد عاد إلى أستاذه فيو؛ ليخبره بما آل إليه أمره، فقال له: «ما زال أمامك الكثير لتفعله، فليس يكفي ما قد أجدت، والمسألة تتطلب المزيد من التدرب، حتى تصل إلى المستوى المطلوب لإجادة الرماية، ولن يتم لك ذلك قبل أن ترى الأشياء المتناهية الصغر فتبدو لك واضحة تمامًا، مثلها في ذلك مثلما ترى الأشياء الكبيرة الحجم وترى الجسيمات الدقيقة بالوضوح الذي تشاهد به الأشياء الضخمة، بكل تفاصيلها. وساعتئذٍ، عُد إليَّ مرة أخرى؛ لتقص عليَّ ما توصلت إليه.» وأسرع جيشانغ إلى حظائر الثيران فالتقط دويبة من الطفيليات الضئيلة المنتشرة في أجساد الثيران، فربطها في خيط رفيع، وعلق الخيط في النافذة، وجعل يحدق فيها بين الحين والآخر، وبعد عشرة أيام، وبتكرار التحديق

في الدويبة المعلقة، صارت تبدو أكبر حجمًا، فلما انقضت ثلاث سنوات، كانت الدويبة تبدو لعينيه كأنها إحدى عجلات العربات الكبيرة، فطفق يمارس التدريب نفسه، في التطلع إلى باقي الأشياء، فكانت تبدو إليه كأنها كتل من تلال جبلية هائلة الجرم، فأتى بقرن أحد الوعول من الوحوش السائمة في دولة يان، واتخذه قوس رماية، وجاء من غابة دولة تشو بفرع أجرد من الشجرة ذات الغصون الصلبة، فصنع منه سهمًا للقوس، وجعل يرمي به على الدويبة المعلقة، فأصاب به الهدف في المنتصف، دون أن ينقطع الخيط الرفيع الذي يحمل الحشرة الضئيلة، وعندما وصل إلى هذه الدرجة من المهارة، أسرع إلى أستاذه فيو؛ لينهي إليه الخبر، فتهلل المعلم فرحًا، وصار يضرب بيده على صدره، قائلًا: «قد بلغت درجة عظيمة من التفوق.» فلما تم لـ «جيشانغ» ما أراد من إجادة فنون الرماية، على يد أستاذه فيو، وبرع في كل وجه من وجوه القوس والسهم، بدا له أنه لم يعد أحد في الدنيا كلها يمكن أن يضارعه في مبلغ درايته وكفاءته، سوى المعلم نفسه، ذلك الـ «فيو»، ولا أحد غيره! فحقد عليه وأضمر له الغدر؛ ليخلو له وجه الامتياز، بغير منازع. وتصادف أن التقى التلميذ وأستاذه، وجهًا لوجه على مشارف المدينة، ورفع كل منهما قوسه، وصوَّبه تجاه الآخر، فلما رميا عن قوسيهما، اصطدم السهمان، رأسًا برأس ووقعا في المسافة الفاصلة بينهما، دون أن تثور حبة من الرمال، (وظلا هكذا يتراميان، وتصطدم السهام، في المنتصف ...) حتى فرغت الأسهم في جعبة فيو، وبقي سهم واحد عند جيشانغ، فرفعه وصوب تجاه أستاذه، وأطلقه، فتلقاه فيو بالدرقة الواقية (المصنوعة من خشب الأثل) فنشب السهم في الدرع الخشبية، وهنالك ثارت مشاعر المتصارعين، وجاشت نفساهما، فترقرت الدموع في الأحداق، فوضعا قوسيهما وانحنى كلاهما لصاحبه، تحيةً وإجلالًا، وأبديا شوقًا إلى صداقة أبدية بينهما، على غرار ما يكون بين الوالد وولده (بالتبني) فصارا كذلك، حيث طبعا على المعصم شارة بهذا المعنى، وأقسما بالأيمان المغلظة ألا يفشيا سرًّا من أسرار الرماية لأي واحد من الناس، كائنًا من كان.

[١٦]

كان «تساوفو» قد تلقى العلم على يد «تايدوشي» [أحد أشهر الحوذيين وسائقي العربات ذات الخيول، في العصر القديم] وفي الفترة الأولى التي قضاها طالبًا، بين يدي أستاذه، يدرس فن قيادة العربات، كان شديد الاحترام وقد بدت عليه مظاهر الأدب الجم والتواضع والتبجيل لأستاذه، ثم لم تنقضِ ثلاث سنوات، حتى أقلع المعلم عن الشرح والتدريس

(وبرغم ذلك) فلم يتغير موقف تساوفو من أستاذه، بل زاد في إجلاله والتواضع له، وهنالك قال له تايدوشي: «أما سمعت ذلك المقطع من الشعر القديم، الذي ورد فيه هذا المعنى حيث يقول الشاعر:

«لا بد للمرء،
إذا كان أبوه صانع أقواس،
من أن يتمرن
على اقتلاع أعواد البامبو؛
كي يصنع منها
آلات الجرف؛
ولا بد للمرء،
إذا كان أبوه خبيرًا
بأفران الصناعة،
من أن يتهيأ لأمور كثيرة،
(من بينها ...) التدرب على
صناعة المعاطف الجلدية ...»

فليس عليك، الآن، سوى أن تأخذ عني العلم، بأن تلاحظ طريقتي في القيادة، حتى إذا استطعت أن تقود الأفراس وهي تجر العربات، بنفس الطريقة التي أتبعها وبنفس سرعة السير، كان لك الحق في أن تقود عربة بستة أفراس، فتمسك بيديك عنان ستة، وتنطلق في طريقك.» وعندئذٍ قال له تساوفو: «لك السمع والطاعة في كل ما تنصح لي به!» وراح المعلم تايدوشي يقيم أوتادًا على طريق (مخصص لسير الخيول) وقد غرست الأوتاد على نحو يسمح للخيل بأن تعدو داخلها، خطوة بخطوة؛ بحيث يمكن حساب عدد الخطوات دون أن تعوق هذه الأوتاد حركة الراجل من البشر في السير داخل الممرات، سواء للأمام أو للخلف، وكان تساوفو ينظر إلى ما يفعله الأستاذ بانتباه شديد، ويقلده في كل حركاته وسكناته، حتى أتقن مختلف جوانب المهارات الأساسية، فيما لم يزد عن ثلاثة أيام، مما أثار إعجاب تايدو، فامتدحه قائلًا: «إن ما تبديه من تفوق في التعلم وبراعة وسرعة في التمكن والإجادة لجدير بأن يحذو مثاله كل طالب لهذا الباب من فنون قيادة العربات ذات الخيل، فقد كانت خطواتك، وأنت ماشٍ بحذاء طريق الخيول، تكاد تتجاوب

مع نبضات قلبك، وأرى أنك تستطيع الآن، إذا نقلت خبرتك في التدريب إلى التطبيق العملي في قيادة الخيول، أن تتحكم ببراعة في المراوحة بين السيطرة على اللجام وجذب عنان الأفراس، وسواء كنت متمهلًا في قيادتك أو مسرعًا أو تقود خببًا، فالأمر يعتمد على ملاحظة إيقاع التنفس والنداء على الخيول، (واعلم) أن حدود السرعة أو البطء تعتمد كلها على تقديرك الباطني، وفي كل الأحوال، فيجب أن تحتفظ بالسيطرة على إيقاع السير من خلال قيادتك لأعنة الأفراس وهي تجر المركبة، مع ملاحظة أن تقديرك الباطني للأشياء، مسألة تتبع رؤيتك من الداخل، أما حساباتك الخارجية للحركة، فيجب أن تتبع أحوال الخيل، وعلى هذا النحو (... تستطيع أن تزاوج بين هذين الاتجاهين في تقديرك) فيسلس لك قياد الأحصنة والعربة، للأمام وللخلف، وكأنك تتبع خطوطًا تم تقديرها بدقة بالغة على خارطة معدة مسبقًا للسير على طريق. وسواء كنت تدور مطوقًا أحد المنحنيات أو تسير في خط متعرج، فسوف تتصرف كأنك تلتزم بقاعدة محققة ومنهاجًا معلومًا للسير على جنبات الدروب، فإذا ما كان طريق السير بعيدًا، ثم وجدت أنك قادر على اجتيازه واكتشفت (آخر المطاف) أنك ما زلت محتفظًا بقدر كافٍ من الطاقة والقوة أبعد مما استنفدت، فستكون — عندئذٍ — قد امتلكت ناصية القيادة حقًّا، ودانت لك معاقدها؛ وإذ يرتفع بك الإتقان درجات، يصير لك مطلق السيطرة على مقود الخيل (لجامها) حيث تنسجم قبضتك على اللجم والأعنة في مزاوجة متبادلة بينهما، فإذا أحكمت قبضتك فوق الأعنة، وجب عليك الانتباه إلى ضرورة المواءمة بين السيطرة على الأعنة والتحكم في حركة يديك، وعندما يتحقق لك التحكم السليم في حركة اليدين، سيلزم أن تتواءم حركتك مع أفكارك وإحساسك (الباطني) وساعة أن تبلغ هذه الدرجة، فلن تكون في حاجة إلى أن تبصر بعينيك ما أنت فاعل في قيادة الخيول والعربات [بمعنى أن ينعقد لك تمام القدرة على القيادة، حتى لو استغنيت عن النظر إلى الطريق والانتباه إلى شروط السير!] بل تستغني، بالكلية، عن المقود والسوط الذي تحث به الخيل على الانطلاق عَدْوًا، وينتظم بك كل شيء في إيقاع مترادف: الحركة والسكون، الثبات والانتباه في جلستك أمام المقود وبيدك ستة أعنة انتظمت معاقدها في حيز اقتدارك، وقد خضعت لقيادتك أربعة وعشرين حافرًا تركض بك ركض أفراس، بيد سائق خبير، فكل حركات خيلك، سواء كانت بالالتفاف أو التقدم أو الرجوع أو الدوران، ستتبع نمطًا معلومًا وقاعدة مكينة. فإذا استطعت أن تبلغ هذه الدرجة من المهارة والاقتدار، تمكنت من قيادة العربات والخيول؛ حتى في أضيق الطرق وأوعر الدروب، حيث يصعب أن يتسع الممر لعجلات عربة أخرى تسير بجوارك،

أو أن ينفسح الدرب لمزيد من الحوافر المتقافزة إلى جانب أفراسك. ويومئذٍ، فلن تخيفك مسارب الوديان أو وعورة الطرق فوق القمم العالية، فسيتمهد لك الطريق، مثلما تثبت في عينيك وفي قلبك شارة الطريق، وتجري بك الدروب ولا يعوقك وعر أو تسرع بك استقامة، فهذا مبلغ ما عندي من فنون القيادة فاحفظها في قلبك!»

[١٧]

كان الرجل الملقب بـ «هيلوان»، الذي من دولة «وي»، يمتلئ عداوة وبغضًا لـ «تشيو بن جانغ» فحمل عليه وقتله، فأراد ولد المقتول (... المدعو «ليدان») أن يثأر لأبيه، ويغسل عاره [كذا، حرفيًّا] وقد جاشت نفسه طلبًا للثأر، غير أن طاقته لم تطاوعه [حرفيًّا: قدرته البدنية لم تواتِه] (... مما أصابه بالحزن وفتَّ في عضده) فهزل جسمه، وقل غذاؤه؛ حتى لم يقوَ على المشي في الطرقات إلا بدفع الريح (... لم يكن يستطيع المشي إلا إذا هاجت الريح وساقته إلى الأمام) وبرغم ما انطوت عليه نفسه من مرارة ورغبة جامحة في الثأر، إلا أنه لم يجد المقدرة على إتيان مراده بقبضة جريئة وسلاح ماضٍ، ففكر في أن يطلب يد العون على القتل، ثم تراجع خشية الاتهام بالجبن، وأقسم أن يثأر لنفسه بسيفه البتار، مسلطًا إياه بقبضة واثقة على هيلوان، لكن غريمه كان على درجة من الشجاعة والجرأة لا يدانيها أحد من الناس؛ فقد كان كفؤًا أن يصارع، بمفرده، العصبة المقاتلة من الرجال، ولم يكن ثمة من يملك مثل يديه وعظامه وعضلاته وجرمه الجبار! ولطالما مد عنقه ليتلقى طعنات المدى، وفتح صدره للسهام المصوبة نحوه، فإذا بالشفرات تنثلم، والسهام تنثني، وإذا بجسمه كله وقد عاد صحيحًا لا أثر فيه لطعنة أو ضربة أو حتى مجرد خدش ضئيل من أثر الضربات. وفي مقابل كل تلك الصفات، فلم يكن ليدان، بالنسبة إليه، سوى مجرد فرخ ضئيل مهيض الجناح. وذهب ليدان إلى صديق يطلب إليه المشورة، فنصح له قائلًا: «برغم كل ما احتشد في صدرك من البغض لغريمك، فهو لا يأبه لك قيد شعرة، فكيف ترى مسألة الانتقام والثأر، وماذا أنت فاعل به؟» فأجابه ليدان، باكيًا: «قل لي أنت ما العمل، ألديك خطة ناجعة (للثأر)؟» فأجابه بقوله: «سمعت أن بدولة «ويه» رجلًا يدعى «كونجو»، وقيل إنه ورث عن أجداده سيفًا كان مخبوءًا بكنز الملوك من زمن «يين»، لو تقلده صبي أخرق أو طفل غض الإهاب، لفرت منه الجنود، وولت أمامه جحافل الجيوش، فهلا ذهبت إليه واستنصرته؟» فقام ليدان وقصد إلى أرض ويه، وقابل كونجو، وقدم إليه الهدايا وحياه أحسن تحية، وترك لديه زوجته وأولاده (على سبيل الرهان) ثم

فاتحه فيما قصد إليه وصرح له بطلبه، فما كان من الرجل إلا أن رد عليه قائلًا: «ليس عندي سوى ثلاثة سيوف، تخير لك منها ما شئت؛ فكلها لا تصلح للضرب أو الطعان، واصبر عليَّ حتى أطلعك على حقيقة أمرها؛ فالسيف الأول منها، اسمه «هانكانغ» (أي: ذو الأنوار ... أبو النور) ولن يطالعك منه، عند النظر إليه، أي شكل محدد؛ لكنك إذا تناولته وجدت له ثقلًا في يدك، وهو ذو نصل طويل، بعيد المدى، يطول أي شيء تقصده، وهو يثخن في الناس، دون أن يشعروا بآلام الضرب أو الطعن؛ أما السيف الثاني، فاسمه «تشنغ يين» (موئل الظلال) ولا يمكنك أن ترى قبضته بوضوح، إلا إذا اتجهت بنظرك صوب الشمال، وقت الغروب أو الشروق ودققت النظر مليًّا، ومع ذلك، فلن يستبين لك نصله الحاد؛ لأنه لا يصير سيفًا ضاربًا إلا حين تتناوله بقبضتك، حيث يصفر لك بصوت خافت؛ وإذ تضرب به فلن يشعر أندادك بألم الطعن؛ وثالث السيوف اسمه «شياو ليان» (معدن الليل، سبك المساء) وهو الذي لا يستبين لك منه شيء، حتى في وضوح النهار، سوى ظلاله، ولا تبدو لك لوامع أنواره إلا تحت ظلمة المساء، (فإنها تخفى عنك، في عموم الأحوال، قبضته ونصله) فإذا ضربت به، انفلق من الجسم المضروب شعاع، فتبدد في سنا لامع يبهر العين قيد لحظة عابرة، في كل ضربة لمعة بارق، يتطوح منها شارد النور، ويضج منها موضع الطعن لشدة تباريح الألم، ثم لن تجد على شفرة النصل أية آثار لنزيف الدماء. فتلك الثلاثة هي ما بقي لي من ميراث ثلاثة عشر جيلًا من الأجداد، ولم يسبق أن استعملتها لأي سبب من الأسباب، فأبقيت ثلاثتها حبيسة صندوق قديم ما زال مغلقًا، كعهدي به منذ أن تسلمته، حتى الساعة.» فقال ليدان: «برغم كل ذلك السحر والبراعة والغموض الذي تتحلى به السيوف الثلاثة، إلا أني أختار من بينها ثالثها، فأرجو أن تتفضل بالموافقة على أن تعيرني إياه!» وكان أن أعاد كونجو إليه امرأته وأولاده (مع الإقرار له باستعارة السيف) ثم صاما كلاهما سبعة أيام، وبعد أن آذنت الشمس بالمغيب وبات الوقت غائمًا بين بقية ضوء النهار، وأول ظلمة المساء، تقدم كونجو إلى ضيفه، فركع أمامه وسلمه السيف، وانحنى له ليدان مرتين، وتسلم منه طلبته، وعاد في الساعة إلى داره، وصار من وقتئذٍ يتقلد السيف ويلاحق غريمه «هيلوان» أينما مشى، فلما رآه قد استلقى في العراء، تحت نافذة بيته، وهو يغط في نومه، بعد أن شرب وثمل، وثقل جفناه من الثمالة، جرد السيف وضربه ثلاث ضربات قاطعة، فيما بين الرقبة والخصر (... دون أن يشعر هيلوان بأي أثر للطعنات) واستدار عائدًا ليدان؛ إذ وقع في ظنه أن خصمه قد لقي حتفه، ثم ما لبث أن صادف ولد هيلوان في طريقه لدى بوابة البيت، فرفع السيف

وانهال عليه ضربًا بثلاث طعنات متوالية، وبدا الولد كأن شيئًا لم يمسسه بسوء، بل إنه ضحك عاليًا وهو يوجه كلامه إلى ليدان، قائلًا: «ما لك أيها الغبي الأحمق؟ (هل وصل بك الغباء أن تأتي بقدميك إلى باب بيتي، هكذا؟!) أما تجد ما تفعله إلا أن ترفع يدك لي بالتحية ثلاث مرات؟» وهنالك انتبه ليدان أن السيف غير قاتل أحدًا من الناس، فتنهد آسفًا وعاد أدراجه. فلما أفاق هيلوان مما غشيه من النوم والخمر، انتهر زوجته بعنف، قائلًا لها: «لمَ تركتني أنام في العراء، وقد سكرت بالأمس ولم أعِ شيئًا، حتى آلمتني بطني وأوجعني حلقي؟» وأسرع ولده يقول له: «قد رأيت الساعة ليدان مارًّا، من هنا، فما إن رآني حتى رفع يده لي بالتحية ثلاث مرات، شعرت بعدها بآلام في جسدي، وقد تيبست أطرافي، فما أظنه إلا متدبرًا مكيدة أو مخترعًا حيلة، يعود علينا وبالها ويصيبنا منها أذى.»

[١٨]

لما انتهى الملك مو (آل تشو) من حملته العسكرية الكثيفة ضد أراضي «شيرونغ» (شمال غرب الصين) فقد حدث أن أهدته هذه المنطقة سيفًا (... مصنوعًا بأرض كونو، التي اشتهرت بصناعة أجود السيوف) وقطعة من الملابس النارية (... التي يمكن غسلها وتنظيفها وسط أفران اللهب) أما السيف فكان طوله ذراعًا (... صينيًّا قديمًا، يساوي ثلث المتر، تقريبًا) وثمانية أعشار الذراع، ذا شفرة حادة ونصل قاطع خالص الجودة، نقي المعدن، صقيل السبك والصناعة، بلغ من رهافة الحد مبلغًا يقطع به الحجر الكريم [حرفيًّا: اليشب] كما يمضي النصل الحاد في الرمل الناعم [حرفيًّا: في قطعة من الطين] هذا، وكان الثوب الذي حصل عليه جلالته، من النوع الذي يسهل تنظيفه وغسله بألسنة اللهب، حيث توضع القطعة منه في أفران النار، فتتخلل أنسجتها النار، فتنقشع الأقذار التي علقت بالثوب، فإذا أخرج من الموقد، جرى تنفيضه ليزول عنه ما علق به من الشوائب، فيعود بهي المنظر، نقي النسيج، ناصع البياض كسطح من جليد؛ بيد أن سمو الأمير، ولي العهد، لم يكن ليصدق وجود تلك الأعجوبة، بزعم أنها من تهاويل وأكاذيب الرواة والحكائين، فهنالك علق «شياوشو» على ذلك، قائلًا: «ما أعجب أمر سمو ولي العهد، يبالغ في تصديق نفسه، ويكذب الوقائع الحقيقية.»

الباب السادس

لي مينغ

力 命

(أقدار السماء)[1]

[١]

قالت القُدرة للقَدَر: «إن لي، من أيادي الفضل، ما لا طاقة لك به، فأنى يكون لك ما تطاولني به من سامق الأفضال؟» فأجابها القدر (السماوي) قائلًا: «أي فضل هذا الذي تزعمين، حتى تناظريني به؟» قالت القدرة: «إن العمر، طال أم قصُر، والكسب إن يسرًا

[1] عنوان هذا الباب «لي مينغ» ومعناه، تقريبًا، القدرة والأقدار؛ والموضوع الأساسي فيه يركز على إبراز أهمية فكرة «القَدَر»، حيث يعرض لآراء ليتزو في مسألة «حتمية الأقدار»، بمعنى وجوب مراعاة اتجاه التطور الطبيعي للأشياء، أو ما يسميه ب «القدر السماوي»، ولئن كان صحيحًا أنه لا يغفل أهمية القدرة وطاقة العمل الإنساني التي يعلق عليها أهمية كبرى في تحقيق الإنجازات وبلوغ الغايات، فهو يؤكد أن نتيجة الصراع بين القدرة الإنسانية والقدر تنتهي لصالح الدور الحاسم للأقدار في نهاية المطاف؛ مما يعكس تناقضًا في رؤية ليتزو للكون والمجتمع؛ إذ تستبين، لديه، أهمية العناصر المثالية (ما دام يقرر بأن القدر يملك التقرير الحاسم في كل الأحوال) ولا ينفي ذلك الرأي ما يعرض له، بين حين وآخر، من عناصر مادية (ساذجة وبسيطة). وعندما تعجز رؤيته المثالية عن تفسير القضايا الاجتماعية، أو عندما تتناقض مع المنطق الصحيح لفهم تلك القضايا، فسرعان ما يلجأ إلى التفكير في طاقة الفعل الذاتي، عند الإنسان، أي القدرة الإنسانية. وهو ما يجعل المحتوى العام لهذا الباب مشتملًا على آراء تقبل الجدل، بشكل عام.

وبالطبع، فإن ما يعتور المتن من اضطراب في عرض القضايا، محكوم بحدود عصره، ورؤية كاتبه؛ غير أننا يمكن أن نتلمس، فيما بين السطور، آراء متفرقة تعرض لوجهة نظر الكاتب الرافضة لمساوئ

وإن عسرًا، والمكانة إن تمجدت أو تدنت، والحال إن عرَّجت في مواطن الانفراج أو الكرب؛ كل ذلك مطوي بجناحي ومبسوط لدى أطراف أصابعي، آتيه كيفما شئت.» رد القدر قائلًا: «كان «بنزو» [أشهر المعمرين في الحكايات القديمة، قيل إنه عاش سبعمائة وسبعة وستين عامًا] أدنى رجاحة وحكمة من (الملكين القديسين) «ياو» و«شون» بيد أنه عاش ثمانمائة عام [كذا، نصًّا]؛ ولم يكن «يان يوان» يقل عبقرية وذكاء عن أي واحد من الحكماء، لكنه لم يعش سوى اثنين وثلاثين عامًا؛ وكان لدى كونفوشيوس من الخلق الكريم والمعاني النبيلة ما يفوق أخلاق النبلاء والأمراء جميعًا، ومع ذلك، فقد لقي ما لاقاه من محنة، بين مملكتي «تشن»، و«تساي»؛ وكان الطاغية تشو (آل يين) أحط خلقًا وشرفًا من «ويتسي»، و«جيتسان»، و«بيكان»، وبرغم هذا فقد تبوأ العرش الملكي، وكان الفاضل الشريف «جيتشا» يقيم بدولة «وي» (كأي واحد من الدهماء) دون أن ينال ما يستحقه من شرف النبالة والمنصب المرموق، غير أن (الوضيع الكاذب) «تيان هنغ» كان هو الذي استولى على النفوذ والسيادة في دولة «تشي»، وقد لاقى «بوهي» و«شوتشي» الموت جوعًا، لدى سفح جبل «شويانغ» دون أن يشفع لهما الكرم ولا الشجاعة، بينما استطاع «جيسون» أن يتقلَّد المناصب الرفيعة وأن ينعم بثراء عريض، أعظم مما كان لدى أثرياء الزمان [حرفيًّا: أعظم مما كان لدى الثري النبيل «جانشين»][2]

فإذا كنت تملكين من القوة ما يمكنك من تغيير الأحوال، فلماذا ينبغي عليك أن تطيلي عمر البعض وتقصري سن البعض الآخر من الناس، وأن تجعلي الحكماء القديسين في عسر، والخبثاء الجاحدين في غاية اليسر، وأن تحكمي على النبلاء بمنزلة أدنى من الأنبياء، وأن تلقي بالأخيار في حمأة الفقر، وبالأشرار في ساحة الثراء الوافر؟» فقالت له القدرة: «لو سارت الأمور على نحو ما تلمح إليه، لما كانت لي أية أفضال على الناس؛

الأحوال الاجتماعية المحيطة بالفترة الزمنية التي عاشها، وربما تشي عباراته بشوق دفين لإعلاء قيم المنطق والعدل والعقل، أملًا في تحقيق الاستقرار الاجتماعي.

ويشتمل النص، في هذا الباب، على تسع حكايات خرافية، تنقسم إلى نوعين رئيسيين؛ أولهما، تعرض لحتمية القدر ومضاء دوره الحاسم، مما ينزع عن الإرادة مطلق الاختيار، بحيث لا يبقى هناك سوى ما هو متاح من شروط العمل بمقتضى ما تذهب إليه الأقدار؛ وثانيهما، يتبنى النظر إلى الأمور، من زاوية الاتباع القسري لنوازع القدر الذي يملك وحده تقرير مصائر البشر.

[2] الغريب، أن النسخة الإنكليزية، التي طالعتها، تترجم هذه العبارة على النحو التالي: «... بينما أصبح «جيشي» ذا غنًى وثروة في إقليم «جا نشين» [!!]»

بل قل لي أنت، ألم تصبح الأحوال على مثل هذا (التناقض) بسببك وبحكم سيطرتك وتوجيهاتك وقضائك؟» فأجابها القدر قائلًا: «انتبهي إلى أن اسمي هو «القدر» ... فأين أنا من «السيطرة» و«التوجيه» (ألا فاعلمي أنه ...) لا سلطان لي على الموجودات، وكل ما هناك أني أدع كل ماشٍ يمشي، وكل متقاعس أهيئ له مقعدًا، فلا ينهض عندي إلا كل ناهض، بفاعلية اندفاعه [كذا] ولست أدع القاعد لمشيئة نكوصه وخذلانه، فسواء طال عمر أو قصر، ضاق المعسر أو تيسرت به السبل، تمجد المرء أو تردى في حضيض المنزلة، أصاب الغنى أو الفاقة؛ فذلك كله يرجع إلى المرء نفسه، ولست أفقه ما وراء اختيار الناس لهذا السبيل أو ذاك، فمنذ متى كان القدر يفقه العلل والأسباب؟»

[٢]

تكلَّم «بيكون تسي» مع «شيمن تسي» [هذان اسمان مختلفان، كقولك — في العربية — لامرئ ما «زيد»، وللآخر «عمرو» فيما يشار به، مطلقًا، إلى اثنين من الناس، دون تخصيص] فقال له: «نعيش كلانا، أنا وأنت، في ظروف واحدة ومجتمع واحد، ومع ذلك، فأنت تجد من يمنحك النفوذ والسطوة والجاه العريض؛ ورغم أن كلينا أبناء عائلة واحدة؛ لكنك وحدك تحظى بالاحترام والتبجيل، وقد تكون لنا الملامح نفسها، لكنك وحدك تفوز بالعطف والحب الغامر؛ وها نحن، أنا وأنت، نتكلم لغة واحدة وكلامًا هو الكلام نفسه، بيد أن كلامك هو الذي يلقى الاهتمام والآذان الصاغية. ولعلنا نمارس أنشطة واحدة، لكن ما تقوم به، هو فقط الذي يصبح محل ثقة؛ ثم إننا نقوم بوظيفة رسمية واحدة، لكن لا ينال الترقي سواك. وقد نفلح الأرض معًا، لكنك وحدك تغل الثراء والنعمة الوفيرة، أو نعمل بالتجارة يدًا بيد، ولا تكون الصفقة الرابحة إلا من نصيبك، ثم إني لا أجد من الثياب إلا خشن الملبس، وليس في أطباقي إلا حنطة سمراء ولا أجد عريشًا لمنزلي سوى القش والحشائش الجافة، وإذا خرجت أتجول في الأسواق، لا أجد سوى أقدامي المرهقة تحملني أينما ذهبت، لكنك تلبس الديباج والفاخر من الثياب وتأكل الناعم من الحبوب [حرفيًّا، والإشارة هنا إلى الأرز والدقيق النقي] وتقيم في بناية عالية الجدران وتخرج للنزهة في عربات تجرها الخيول المطهمة [حرفيًّا: تجرها الخيول الأربعة، إشارة إلى سعة الحال ووافر الثراء] وإذا أتيت إلى بابك، استقبلتني بفتور، أو زرتك في عملك، بلغ بك الغرور مبلغه. ولم يحدث مرة أن أومأت إليَّ بالتحية، أو دعوتني إلى التنزه معك في رياض المدينة، وقد طال بك العهد على ذلك المسلك، ودامت بيننا الأيام على هذا المنوال، فهل يرد ذلك كله

إلى ما تعتقده في نفسك من أنك أفضل مني علمًا وأخلاقًا؟» وأجابه «شيمن تسي» قائلًا: «لا علم لي بحقيقة المسألة كلها، لكنك طالما كنت تجد من أمرك عسرًا، بينما كنت أنا أجد في إنجاز الأعمال كل اليسر والسعادة، فربما كان ذلك دليلًا على درجة من الفرق في المهارة والمزاج (أخلاقيًّا)! هذا، رغم إصرارك بأننا كلينا متقاربان في كل الصفات والمزايا، وهو القول الذي يدل على سذاجتك وصفاقة وجهك!» ولم يجد «بيكون تسي» ما يقوله، فعاد أدراجه متجهمًا عابس الوجه، فصادف في طريقه السيد «دونقو» الذي ابتدره سائلًا إياه، قائلًا: «أين كنت الساعة، حتى تمشي وحدك مقطب الجبين، مرتبك المشاعر هكذا؟» فأطلعه شيمن تسي على ما دار بينه وبين بيكون تسي من جدل، فقال له السيد دونقو: «ربما استطعت، بطريقة ما، أن أذهب عنك الانكسار والغم، فتعالَ معي نرجع فورًا إلى بيكون تسي، نستقصي لديه بعض المسائل.» (ثم إنه التقى بـ «شيمن تسي»، و…) سأله قائلًا: «أيمكن أن تكون قد أفرطت في تجريح السيد بيكون تسي؟ فاذكر لي، فمن فضلك، ما دار بينكما.» فأجابه شيمن تسي بقوله: «كان السيد بيكون تسي يجادلني بقوله إنه لا فرق بين كلينا سواء في الناحية الاجتماعية أو العائلية، في العمر أو الملامح، في الكلام أو التصرفات، ومع ذلك فقد ظهر التباين بيننا في المكانة الاجتماعية ودرجة الفقر والغنى، فقلت له … لا علم لي بحقيقة ما تحدثني عنه، لكنك دائمًا كنت تجد من أمرك عسرًا، بينما كنت أنا أنجح في إنجاز أعمالي، بكل يسر وسعادة، فربما كان هذا هو السبب في تلك الفوارق بيننا في المهارة والعلم والأخلاق. وبرغم ادعائك أننا متقاربان، فلست أراك إلا صفيق الوجه، ساذج القول.» وهنالك قال له دونقو: «أرى أن تركيزك انحصر في الفرق بين الرفيع والوضيع من القضايا، في حين أن الإشارة، في معنى الكلام، كانت تتجه أصلًا لإبراز الفرق في الجوانب العلمية والأخلاقية. والقول عندي، في مسألة الفرق بين المكانة الرفيعة والوضيعة يختلف عما تراه وتقول به، ولئن كان بيكون تسي يتمتع بدرجة عالية من المهارة والأخلاق، إلا أن يد القدر قاصرة دونه، في الوقت الذي تفوز أنت فيه بكل عطايا الأقدار، ويقل نصيبك من العلم والأخلاق، ولئن كان صحيحًا أن إنجازك للأعمال يتم في يسر وسعادة، فلم يتم ذلك لك، عن ذكاء وموهبة؛ مثلما إن الفقر الذي أصاب بيكون لم يأتِ نتيجة لحماقته وغبائه، بل هو كله صنيع الأقدار، لا أكثر! تلك أشياء تقصر دونها المقدرة الإنسانية.

فأنت تزهو بما كتبه لك القدر، وبيكون تسي يحزن لما قدرته له الأقدار، فكلاكما عاجز عن فهم منطق الطبيعة.»

وهنالك قال له شيمن تسي: «ليتك يا سيدي تقف بنا عند هذا الحد من الكلام، ومن جانبي فلست مستعدًّا أن أعيد ما قلته آنفًا.» فلما عاد بيكون تسي إلى بيته كان ملبسه

خشنًا، لكنه شعر أنه يمنحه الدفء كأنه رداء من أثمن الفراء، وكان طعامه من الحنطة السوداء، لكنه وجد له مذاق أنقى الحبوب، وكان مسكنه بكوخ من قش، بيد أن المنزل بدا وكأنه بناية شاهقة الارتفاع والفخامة، وعندما جلس في مقعد من الحشائش الذابلة، وجد فيه الراحة، كمن جلس في عربة ذات أربعة جياد رامحة، وصار يسعد بحياته، على هذا المنوال، دون أن يستقصي أسباب الشرف أو الدناءة، عند هذا أو ذاك من الناس، فلما علم السيد دونقو بما آلت إليه أحوال بيكون تسي من تغيير، قال: «إن بيكون تسي يعيش حياته المضطربة المشوشة كأنه في حلم طويل، لكنه من السهل أن يفيق؛ ذلك أن مجرد جدال عابر يمكن أن يوقظه من أعماق الغفلة.»

[٣]

كان «كوانيو» و«باوشويا» صديقين حميمين، جمعت بينهما الألفة والمودة والإقامة في دولة تشي، وكم كانت لـ «كوانيو» من أيادي فضل على كثيرين، فهو؛ مثلًا، لم يكن يبخل بخدماته على واحد مثل «قون تسي جيو» وكم تفانى في العمل على تسهيل مصالح «قون تسي شياو باي». وكان الكثير من أبناء العشائر في دولة تشي يلقون محاباة وعطف جلالة الملك، لا فرق في ذلك بين الأبناء المنحدرين من أصلاب العشيرة وبين جيرانهم (أو أقاربهم من طرف بعيد) لكن هذا الود المتصل بين طرفي العشائر، أثار خشية الأهلين من حدوث ما لا يحمد عقباه؛ كأن تتطور الأمور على نحو سيئ، فيحدث عصيان داخلي أو تمرد مسلح، فتدب الفوضى في البلاد، وكان أن قام «كوانجون» و«جاوهو» [أحد وزراء تشي] بتهريب قون تسي جيو إلى دولة لو، ومن جانبه فقد أقدم باو شويا بتهريب قون تسي شياو باي إلى دولة «جيو»؛ وقد تحققت خشية الأهالي من وقوع الاضطرابات، ذلك أنه ما كاد يمضي وقت طويل، حتى قاد «قون سون أوجي» عصيانًا أهليًّا مسلحًا، فأطاح بالعرش الحاكم، وتنازع كرسي المملكة اثنان، هما: قون تسي جيو، وقون تسي شياوباي، وهو ما أثار بينهما التنافس على سرعة العودة إلى البلاد، وقامت الحرب بين كوانيو وقون تسي شياو باي على الطريق بين دولتي تشيو وجيو، وكادت إحدى الضربات أن تصيب شياوباي في مقتل (انطلق السهم وعلق بصديريته، دون أن ينفذ في جسده) وجاء في الأخبار أن شياو باي قد ترقى العرش وصار ملكًا على البلاد، وراح يمارس ضغوطًا كثيرة على دولة «لو» لكي تقوم باغتيال قون تسي جيو، وهنالك اضطر جاوهو إلى الانتحار، أما كوانيو فقد تم القبض عليه وألقي في غياهب السجن، وراح «باو شو» يتكلم مع «خوانكون»

(حاكم دولة تشي) قائلًا له: «إني على ثقة تامة من أن كوانيو يملك من الاقتدار والبراعة ما يمكنه من ضبط أحوال بلادكم.» فرد عليه خوانكون قائلًا: «بل هو ألد أعدائي، كم أود أن أطيح برأسه.» فقال له باوشو: «بلغني أن الحكماء من قديم، قد قالوا ... لا ينبغي للماجد الكريم أن يكون له خصوم أو أعداء، فما بالك إذا كان الرجل الذي أحدثك عنه قادرًا على بذل أعظم خدماته لجلالتكم، بل ليس هناك من هو أقدر منه على ذلك، إذا كنتم تفكرون حقًّا في أن ترتفع رايتكم فوق الممالك وأن تبلغوا ذرى القوة والهيمنة فوق دول الأرض جميعًا، فلا معدى لكم عن اتخاذ كوانيو عونًا ورفيقًا. إن ثمة ما يدعوني إلى التأكيد لجلالتكم على ضرورة عفوكم عنه!» فما كان من الملك خوانكون [مجرد لقب آخر من ألقاب حاكم دولة تشي] إلا أن استدعى إليه كوانجون، وقامت دولة لو بإعادة كوانيو إلى دولة تشي، وكان باوشو حاضرًا على وجه الخصوص؛ لاستقباله عند تخوم البلاد حيث تمت إجراءات العفو التام عنه، وقد حفظ له الملك مكانته وعامله على النحو اللائق به، بل إنه تكرم عليه بتعيينه نبيلًا للعائلتين الشريفتين: «قاو»، «كوه»، ولم يأنف باوشو من أن يعمل تحت إمرته، مرءوسًا له، وبذل له الاحترام والتقدير باعتباره واحدًا من المسئولين الحكوميين الكبار، وكان يناديه، على سبيل التبجيل، بلقب «جونفو»، وأثمرت هذه السياسات نتائج كان من شأنها أن صارت لدولة تشي السطوة الغالبة فوق الممالك، وأصبح حاكمها خوانكون سيدًا للأباطرة، وهنالك تنهد كوانجون قائلًا: «كنت وأنا صبي فقير قد اشتغلت بالتجارة مع باوشو، فكان يحتفظ لنفسه بنصيب الأسد عند توزيع المكاسب، وهو يظنني مترفعًا عن الطموح، باعتباري ربيب نشأة فقيرة قانعة بالقليل، وكم تواطأت مع باوشو في خطط ومكائد، باءت كلها بالفشل، ومع ذلك فهو لا يعدني سفيهًا عديم الفهم ذلك أن الفرصة السانحة قد تثمر أعظم النتائج أحيانًا، وقد تبوء بالفشل في أحيان أخرى. ثم إني توليت مناصب رسمية ثلاث مرات، طردني الملك منها جميعًا، ولم أسقط من عين باوشو؛ وكان السبب في كل ما حدث هو أن الفرصة المناسبة لم تكن قد واتتني بعد. وحدث أني شاركت في ثلاث معارك، هربت من ساحاتها مهزومًا، دون أن يعدني باوشو جبانًا رعديدًا، وقد تفهم ضعفي أمام الظروف الصحية المتدهورة لوالدتي الطاعنة في السن. والآن، فقد ضاعت مكانة قون تسي جيو بعد أن أفل نجم سطوته، وقد قرر جاوهو أن يبتعد عن الدنيا كلها، فكان السجن من نصيبي، وكم جربت في زنازينه من الذل والمهانة، ولم يكن باوشو يراني صفيق الوجه، ذليل الجبين، وإنما كان يقول دائمًا بأني لا يجب أن ألتفت إلى المسائل الشخصية التافهة قدر اهتمامي بعظائم الأمور ونصرة

القضايا الأساسية الكبرى وسط الممالك، وأن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يخلف عندي شعورًا بالإهانة هو التقاعس عن الجدية الواجبة نحو تلك القضايا، ولئن كنت ابن أبي وأمي بالميلاد، فأنا ولد باوشو بالتأييد والفهم؛ إذ أتيت إلى الدنيا في كنف رعايته ونصرته!»

ذلك بعض مما تدور به كلمات الثناء على ألسنة المتكلمين الذين يذكرون بكل الخير تلك الصداقة الحميمة التي يعرف قدرها رجال مثل كوانيو، وباوشو؛ أضف إلى ذلك، طبعًا، ما تفضل به جلالة الملك خوانكو من إسناد المناصب للحكماء ذوي الجود والنبالة والخصال الكريمة.

ومع ذلك، فليس هناك في واقع الأمر أي شيء (فيما يذكر) يتصل بالصداقة الحميمة، وليس هناك ثقة تدفع لإسناد المناصب العليا لذوي الفضائل، ثم إنه لم يعد هناك، أصلًا، شيء اسمه الصداقة أو شيء اسمه إسناد الثقة لذوي الفضل. (واعلم أنه ...) لم يكن جاوهو ليقدم على الانتحار والخلاص من حياته ولكنه اضطر إلى هذا التصرف؛ ولا كان باوشو قادرًا على الذهاب إلى الملك والتوصية بتعيين ذوي الفضل، إلا لأنه لم يجد وسيلة أخرى لتحقيق غرضه؛ واعلم أيضًا أن (الملك) خوانكون ما كان ليتخذ عدوًّا له عضوًا في سلك النبلاء، إلا بدافع الاضطرار وبحكم الضرورة.

عندما مرض كوانيو ذهب إليه شياوباي ليعوده، وقال له: «قد اشتد المرض على جونفو (... عليك، يا سيدي الكريم) فلا مفر من أن أقتحم ما كنت أتحاشى ذكره آنفًا ... فماذا لو ساءت بكم الأحوال درجة أبعد مما أجدك الآن عليه، كيف نتصرف؟ وإلى من توصي بإدارة الشئون العامة يا سيدي؟» فسأله كوانيو قائلًا: «قل لي أنت، لمن تكون الوصية، في رأيك؟» فأجابه شياو باي قائلًا: «أرى أن باوشو هو الأنسب.» فرد عليه كوانيو بقوله: «كلا، بل هو آخر من يصلح، وإذا كنت أعرف له شرفه ونزاهته وأخلاقه الكريمة، إلا أنه وبسبب فضائله الجمة، لن يرحم من هو تحته، ولن يغفر لمخطئ زلته، فمثل هذا الشخص لو تولَّى شأنًا رسميًّا، فسيورط الكبار معه [حرفيًّا: سيورط الملك فيما لا داعي له] وسيقف للصغار بالمرصاد [حرفيًّا: سيناوئ الناس في كل كبيرة وصغيرة] ولن يمضي وقت طويل حتى يسيء إلى القصر نفسه!» فقال له شياوباي: «فمن، إذن، تراه مناسبًا؟» فأجابه بقوله: إذا لم تتحسن حالتي، فمن رأيي أن يخلفني «شيبنغ»، فهو الرجل الذي يستطيع أن يكسب ود كبار الموظفين وأن يتغاضى عن شئونهم ولن ينفر منه مرءوسوه أو يهرب عماله من وجهه، وسيلوم نفسه كثيرًا إذا تدنت أخلاقه عن المعيار الأسمى، بينما سيكون رحيمًا ومتجاوزًا عن مرءوسيه الذين تباعدوا عن معيار الأخلاق درجات. إن من يتجاوز عن الناس، في خلق وسماحة، هو القديس الحق، ومن يتصدق

بماله هو الفاضل الأمجد. لكن من يتعالى فوق الناس، فلن يكون موضع ثقتهم وتأييدهم، أما من يقنع بالتواضع بينهم [حرفيًّا: تحتهم] وقد أغضى عن عراقة منبته ونبالة نشأته، فهو المؤيد الفائز بالعون والنصرة من كل حدب وصوب، فذاك رجل لن يلح في طلب استقصاء (الكبير والصغير) من الأمور، ولن يشغله شيء من شئونه الذاتية، إذا اشتدت وطأة المرض، فسيكون شيبنغ هو الرجل القادر على تسيير دفة الشئون الحكومية في البلاد. إن هذه الكلمات الصادرة عن كوانيو لم تكن قادحة في باوشو، ومع ذلك، فلم يكن مفر من أن تبدو كذلك، وهي أيضًا لم تكن، في الأساس، إكبارًا وتحية كريمة لشخص شيبنغ، لكنها ظهرت على هذا النحو (على الرغم من قائلها، ومِن ثَم ...) فقد تبدأ الأمور بتحية إكبار وإجلال، ثم تدور بها الدائرة في طرفها الآخر إلى التحقير والقدح، أو تكون فاتحتها بالذم والاستهانة ثم تنتهي في خاتمة المطاف إلى التعظيم والاحتفاء، أما متى يكون الذم مناسبًا أو يكون التبجيل لائقًا، فذلك ما لا أستطيع؛ بملء إرادتي، أن أقرره بصورة حاسمة [... القدر هو الذي يحدد ذلك!]

[٤]

كان «دنشي» هو الذي قدَّم تصوراته لنظرية «الاحتمالين الراجحين» [... بمعنى أنه إذا احتوت قضية ما على احتمالين متقابلين، فإنهما يتناظران ويرجح قيامهما معًا في آن واحد] وكان هو الذي أنشأ «بلاغيات فن الجدل»، وفي الفترة التي تولى أثناءها «زيشيان» الإشراف على الشئون الإدارية العليا، بدولة جنغ، قام «دنشي» بتأليف كتاب عنوانه «جو شينغ» (لائحة العقوبات) [أو، حرفيًّا: عقوبات البامبو] ولما كانت دولة جنغ قد أقرت العمل بما ورد في هذه اللائحة، فقد تقدَّم المؤلف (دنشي) عدة مرات بالانتقاد الشديد لـ «زيشيان»، معترضًا، على طريقته في تصريف الشئون الإدارية لدولة جنغ، ووصل الانتقاد والشجب حدًّا أعجز زيشيان عن تبرير موقفه؛ مما تسبب في إحراجه وكشف تهافت ادعاءاته، فما كان منه إلا أن أصدر أمرًا باعتقال دنشي، بل قرر أن يحكم عليه بالإعدام، ولم تمضِ فترة طويلة حتى كان قد دفع به إلى ساحة الإعدام فعلًا. [وهنا، فلا بد من أن تتأمل الموقف جيدًا؛ ذلك أن ...] زيشيان لم يكن في موقف يسمح له، أصلًا، بتطبيق الأفكار الواردة في كتاب «لوائح العقوبات»، لكنه اضطر إلى ذلك؛ ومن ناحية أخرى، فلم يكن دنشي بالذي يستطيع أن يفحم زيشيان ويعجزه عن الرد المقنع، لكن بدا وكأن زيشيان لم يكن يملك إلا الصمت العاجز، هذا، ولم يكن زيشيان عازمًا ولا قادرًا على

حسم القرار بشأن إعدام دنشي، لكنه وجد نفسه مدفوعًا إلى إصدار القرار الذي قضى بإزهاق روحه، ففعل ... وكان الكائن.

[٥]

من مصادفات الحظ السعيد أن يُوهب الإنسان البقاء الذي حتمته الأقدار. ومن أحكام القدر الرحيم أن تنزل نازلة الموت إذا ما كان الموت قضاءً مقضيًّا، أما أن تكون الحياة ضرورة محتمة، ثم إذا بها تنعدم الحياة، فذلك عقاب الأقدار. وأن يكون الموت مصيرًا لا سبيل إلى دفعه، ثم توصد أمام الموت بوابة المصير، فذلك هو العذاب الذي تتسلط به يد القدر. أما أن تكون الحياة حقًّا والموت حقيقة، فيكون ثمة موت وحياة؛ فذلك أمر معهود؛ وأن يكون الموت حقًّا واجبًا، والحياة حقًّا لازمًا، فيموت من حقت له الحياة، ويحيا من كان يحق له الموت، فذلك أيضًا أمر قائم ومشهود؛ وأيًّا ما كان، من حياة أو موت، فليس القضاء بأيدينا وليس ثمة آتٍ به من وراء عالم الشهود آتٍ، فالأمر كله بيد أقدار السماء، وليس لحكمة الإنسان دور يُرجى أو تأثير يعول عليه؛ لذلك كله، فقد كان يقال بأن لكل ما غاضت به أعماق الغور من مجاهل الغيب، يد من أحكام السماء تستقطر من خالص الفهم أصفى مكامن الإيضاح لكل مبهم، ولكل ما تشعب في مسارات التيه بغير حدود مدار من سبل أقدار السماء تطوف بمواهب القدرة على كل سيار.

قد قُلتُ إن الجلال طاف بمدار السماوات والأرض، دورات متعاقبة ليس لها تبديل، فلا الحكماء ولا القديسون ولا كل ذي فهم يقدر أن يخرق قضائها المسطور، وليس الجان ولا الأشباح ببرهانها مستهزئين؛ ذلك أن أحكام أقدار السماء روح من الطبيعة، ناجزة الوعد، والوعد في فمها الصمت؛ وقد قرت في قرار السكون، آمنة وادعة مطمئنة، لا تنصدع وليس ينسرب من صدعها خلل، ولا يشوبها اضطراب، وكأنها بالباب تستقبل الوافد وتودع الذاهب؛ فهي في الآجال موعد، وللمواقيت قضاء.

[٦]

كان في الحوادث أن السيد «جيليان» أُصيب بمرض ألزمه الفراش، ثم اشتدت عليه وطأة المرض في اليوم السابع، فظل أبناؤه يبكونه وهم جالسين حوله على الفراش، وقد فعلوا كل ما بوسعهم طلبًا لعلاجه، فاستقدموا له خيرة الأطباء، وكان للمريض صديق يدعى

«يانغ شو»، فأرسل يستدعيه، فلما حضر، قال له: «أولادي هؤلاء ما زالوا صغارًا لم تنضجهم التجارب (انظر كيف يبكون حولي كالأطفال، وقد شحبت وجوههم ...) ولست أريد منك سوى أن تترنم لي ببعض الأغاني عساهم يستوعبون من تجارب الحياة معاني تزكو بها إرادتهم [الأغاني، في الصين القديمة، أقرب لحًا بالحكمة والفلسفة والطبع النقي والذوق الأصيل].» فغنَّى له صاحبه (بكلمات تفيد المعاني الآتية: ...)

«غلبتنا صروف الزمان،
واشتدت وطأة الأيام،
اشتدت، حتى، على كاهل السماء،
فكيف بالإنسان؟
بغير رحمة من السماء،
لن نهتدي إلى شيء،
لا أنا ولا أنت،
ما دمنا لم نقلع عن الشر،
فلن نعرف شيئًا،
ولن يهتدي طبيب ولا ساحر،
إلى طريق للفهم.»

ولم يفهم أبناء المريض مغزى الكلمات، فسارعوا إلى استقدام ثلاثة من أمهر الأطباء؛ أولهم يدعى «تشياو»؛ وثانيهم «يو»؛ وثالثهم «لو». ولم يتوانوا عن المجيء إليه والكشف عليه، وتحدث الطبيب تشياو إلى جيليان قائلًا: «المشكلة عندك أن التوازن بين الحرارة والبرودة ليس على ما يرام، كما أن التكامل الحيوي بين الجانب النفسي والجسدي يعاني من اختلال شديد؛ والسبب في التدهور الذي أصابك هو فقدان الشهية وتزايد ضغط الحاجات الحيوية للجسم، فمِن ثَم أصبحت (الطاقة العصبية) متوترة للغاية، بينما أصيبت الحالة الذهنية بتراخٍ غير عادي، فأنت رهين مرض لم يتسلط عليك من قبل الشياطين، ولا حتى أنزلته بك يد السماء، ورغم أنه أقل خطورة مما نتصور، لكنه يستعصي على العلاج، إن لم يتعذر علاجه تمامًا.» فقال له جيليان: «إنما أنت أحد أولئك الأطباء العاديين (من ذوي المهارة المتواضعة) فإليك عني، قم وانصرف لشأنك!» وجاء الطبيب الثاني «يو» ليقول للمريض: «أنت مولود بعيب خلقي، ومما زاد الأمر سوءًا أن

فطامك تأخر كثيرًا عن الحد المعقول، فمرضك مزمن، وقد تراكم عليك مع الأيام والسنين، ولا أظنك تشفى منه.» فرد عليه جيليان قائلًا: «هذا كلام معقول جدًّا ويحتمل الصدق، ولا بأس بك كطبيب ذي مهارة وفهم وبصيرة، دونك فاجلس حتى نصنع لك الطعام!» أما الطبيب الثالث «لو» فقد تحدث إلى جيليان قائلًا: «لم يصبك المرض من قبل السماء، ولا البشر ولا حتى الشياطين، وإنما كل من كتبت له الحياة [حرفيًّا: اكتسب بالحياة بدنًا وهيئة] فقد وجبت فوقه قدرة قاهرة لا سلطان له عليها، ووجبت له المقدرة على التقدير والفهم (مقابل كل أمر معجز، يقوم استنباط واعٍ، ومع كل حتم مرونة وفهم) ففيمَ اللجوء إلى التطبيب، وما فائدة الأعشاب والتداوي؟» وهنالك صاح جيليان بالرجل: «هو ذا أنت أعظم الأطباء جميعًا، فأنت خليق حقًّا بأثمن الهدايا [حرفيًّا: بأثقال من ذهب]» ثم لم ينقضِ زمان طويل حتى أبلَّ جيليان من المرض، وتعافى تمامًا.

[٧]

ليس بالحرص تطول الأعمار، ولا من فرط الاعتناء تصح الأجساد؛ كما أن سني الإنسان لا تنقضي سراعًا مع التهاون، ولا تذبل الأجساد مع التغاضي والإهمال؛ ولذلك فقد يشتد الحرص التام على العمر، ثم ينقضي الأجل سريعًا، أو يتغاضى المرء عن التشبث بالبقاء، فإذا به يعيش العمر الداهر؛ أو قد يعتني الفرد بصحته تمام الاعتناء، ومع ذلك تصيبه الأسقام، ثم تصح أبدان من تقاعسوا عن الالتزام بشروط الصحة والعافية، وقد يبدو هذان الوجهان، من الأمر، متعارضين بالكلية، ولكنهما ليسا كذلك؛ فللحياة نمط تتطور به، وللموت جريان أحوال معهودة، كما أن للجسم في سلامته طرائق مألوفة، وفي سقمه طابعًا معلومًا.

قد يكترث البعض بطول البقاء، فيطول بهم العمر، أو يغفلون حظ الحياة، فيرحلون سريعًا، كما قد يخشى الناس عواقب المرض فيسلمون؛ أو يهملون أجسادهم فيقعون فريسة للداء، ولقد يقال بأن الوجهين متقابلان، بيد أنهما أبعد ما يكونان عن التناظر، فلطول البقاء أو عاجل الموت سبل ومسالك، ولتمام العافية أو معاطب الداء أحوال وطرائق، وقد ورد (فيما يروى من أخبار الزمان) ما قاله «يوشيونغ» [أحد أسلاف أسرة تشو الحاكمة، في العصر القديم، وقيل كان معلمًا للملك أون آل تشو] إلى الملك أون «آل تشو» قائلًا له: «إن الرغبة الذاتية في أن يطول أمد الأشياء، بالرغم مما تحتمله طبائعها، لن تحملها على الرضوخ إلى ما لا طاقة لها به، كما أن أي محاولة ذاتية، من جانبها، لكي

تفرض على الأشياء التقلص والانكماش، إلى الحد الذي نبتغيه، لن يسوقها إلى مطاوعتنا فيما تتطلبه منها، قسرًا وإرغامًا (فلئن كان الأمر على هذا النحو ...) فما دور الحكمة والعقل إذن؟» فأجاب لاوتان (لاوتسي) موجهًا كلامه إلى كوان يين قائلًا: «وهل كان هذا العقل يفهم السبب في كراهية السماء لكثير من الأشياء؟» فالمغزى من قول لاوتان، هنا، يشير إلى وجوب الاقتصار على الرضوخ لإرادة السماء والاعتقاد فيما تراه تلك الإرادة، صحيحًا كان أو فاسدًا.

[٨]

جاء إلى يانغ شو (أخوه الأصغر، ويدعى ...) «يانغ بو» وسأله قائلًا: «هب أن معنا الآن شخصين متقاربين في العمر والكفاءة والمهارة والمزايا العامة [حرفيًّا: الملامح] فما الذي يجعل حظهما في التمتع بطول العمر والمكانة الاجتماعية والشهرة والحب أو الكراهية متفاوتًا، أليس ذلك أمرًا يدعو إلى الحيرة؟» فأجابه يانغ شو قائلًا: «بمناسبة قولك هذا، فإني ما زلت أحفظ كلمة باقية من كلام القدماء، أحدثك بها الآن ... فأنت لو داخلك من أي شيء تساؤل وحيرة، ولم تدرِ السبب في وقوع أمر ما، على وجه من الوجوه، أيًّا كان، فاعلم أن جواب مسألتك يكمن في كلمة واحدة: الأقدار. فانظر إلى كل تلك المعميات من حولنا، إلى كل تلك الأحوال المليئة بالتعقيد والتشابك، وإلى كل ما تستسيغه الأفعال أو ما لا تستسيغه، وإلى كل تصرف متاح لك أو غير متاح؛ (ألست ترى ...) بأن الأيام تمضي وفي إثرها أيام، يوم يروح وآخر يأتي بعده! هي ذي كلها الأيام، فمن ذا يفقه حقيقة وقائع (كل تلك الأوقات)؟ وأجيبك قائلًا ... إنه القدر، إن من يؤمنون بالقدر، سواءٌ لديهم طال العمر أو قصر؛ ومن يؤمنون بجريان الأحوال على منوال لا تخطئه، لا يهتمون بما هو صواب أو دون الصواب ومن يعتقدون في شهود القلب لصادق الحس الباطني، سواءٌ لديهم ضاقت الأحوال أم تيسرت الظروف، والمؤمنون بما قُسم لكل نفس في لوح أقدار، لن يعبئُوا إن ساد الأمان أو تطايرت نذر الخطر، فأولئك هم السائرون كيفما بدت لهم السبل، يتبعون طرقًا ويتنكبون عن بعضها.

فكيف لمن تحقق بالإخلاص أن يعبأ بأي طريق يمشي وعن أي طريق يحيد؛ بأي حال يفرح وفي أي ظرف يطرق أسًى وحزنًا؛ في أي باب من الأفعال يطلق يديه، وعن أي الدروب يغل ساعديه! قد جاء في كتاب «هواندي» ما نصه: «(من أرفع درجات الحكمة أن ...) يجلس المرء جلسة ميت، وأن يمشي إذا مشى؛ مشية دمية خشبية.» (والمعنى أنه ...)

ذاهل في حال القعود، ذهوله في غير قعوده، لا يدري إذا تحرك، إن كان الحق في مشيته أو في قعوده؛ لا يبدل هيئته؛ لأن الناظرين إليه يتوقعون منه ذلك، ولا يتشبث بما يعهده في مظهره، لمجرد أن الآخرين غير مكترثين له، فهو متفرد الحال في غدوه ورواحه. نسيج وحده في حضور وغيب، فلا يعوقه شيء ولا تغلق دونه السبل.»

[٩]

«ميتشي» [الأحمق]، و«شانشي» [الأرعن]، و«تشان شوان» [المتزمت]، و«بيفو» [المتسرع]، أربعة من الناس، تآلفوا واجتمعوا على الصحبة، وقد اتفقت مشاربهم، وامتزجت طبائعهم، لكن وبرغم ما ربط بينهم من وشائج الود، فقد كان يمر العام، من أوله إلى آخره، دون أن يعرف أحدهم ما حدث لصاحبه، ولا ما صار إليه حاله؛ بزعم أن مثل هذا المسلك دليل على الحكمة وبراعة التقدير. أما «تشياو نين» [المجامل]، و«يوجي» [المخلص الكريم]، و«آنجو» [ثقيل الفهم]، و«بيانبي» [المتملق]؛ فكانوا أربعة ممن توثقت بينهم عرى الصداقة، وقد آخى الود بين قلوبهم. وبرغم روابط الألفة بينهم، فقد كان يمر العام دون أن يتجاذبا أطراف الحديث عن سلوك وتصرفات بعضهم بعضًا مع الآخرين، وقد تهيأ لهم (أن مثل هذا السلوك يدل على …) براعة وذكاء وفطنة لا مثيل لها؛ ثم كان هناك «جياوجيا» [غريب الأطوار]، و«تشينغ لو» [الانبساطي]، و«جيانجي» [النزق، المفأفئ، المدغم ألفاظه فلا يستبين منطقه]، و«لنغ سوي» [المتشاحن، الشتام، كثير المشاجرات]؛ وقد وجدوا من التفاهم وتوافق الأمزجة ما عزز قيام الصداقة بينهم، ومع ذلك، فقد كان يمضي العام كله دون أن يتبادلوا الأخبار فيما بينهم، متصورين أن تصرفهم على هذا النحو أجدى وأنفع. كذلك قامت علاقة ود وثيقة بين كل من «مين تيان» [الدهمائي البسيط]، و«تشيوي» [المتخاذل]، و«يونغان» [الجريء]، و«تشيهي» [الهياب]؛ وتآلفت طباعهم، وعلى الرغم من أواصر المودة بينهم، فقد كان يمر العام، دون أن يلقي أحدهم باللوم والتأنيب على الآخر، معتقدين أنه ليس هناك ما يستوجب المؤاخذة في مسلكهم هذا؛ وكان ثمة أربعة آخرون توشجت بينهم علاقات التآلف والإخاء، هم: «طواو» [لطيف المعشر]، و«زيجوان» [المعتزل الصحبة]، و«تشينغ شيوان» [المتجبر]، و«جيلي» [العصامي]؛ وعلى ما كان يجمعهم من الود الحميم، فقد كان يحول عليهم الحول دون أن يكترث أحدهم للسؤال عن أحوال صاحبه، وحجتهم في ذلك أن مثل هذا المسلك يُعد مناسبًا لمسار علاقتهم الاجتماعية؛ (فأنت ترى أن …) لكل وجه من وجوه تلك الكائنات الاجتماعية ملامحه

المختلفة، إلا أن الجميع متحقق بمبادئ الطريق (الطاو)، بالأسلوب الذي قررته الأقدار؛ حتى جعلت لكل امرئ منبتًا يؤصل مزاجه وطبيعته.

[١٠]

سواء أكان النجاح تقريبيًّا أو شبه متحقق، فالنجاح التام لم يتحقق أساسًا؛ وسواء كان الفشل نسبيًّا أو تقريبيًّا أو كأن قد؛ فالفشل التام لم يحدث أصلًا؛ وغالبًا ما تقود هذه الأحوال التي يكون فيها النجاح أو الفشل غير قاطعين، إلى الحيرة؛ وذلك لصعوبة تعيين الحد الفاصل بين ما هو تقريبي [حرفيًّا: شبيه بالشيء] وما هو حقيقي. ورغم ما يشوب هذا الحد الفاصل من غموض، فهناك من يصمدون في وجه الحيرة، فأولئك هم الذين لا تفزعهم صروف الزمان ولا أهوال الوقائع، ولا تنشرح قلوبهم فرحًا بما قسم لهم من حظ سعيد؛ لأنهم قادرون في كل وقت على التصرف بمطلق العزم والإرادة، اعتمادًا على حظوظهم من السعي والجهد، سواء بالإقدام على العمل لتحقيق مرادهم، أو بالإحجام عنه، في أي وقت يشاءون، دون إملاء من حكمة أو إذعان لأحكام عقلية.

إن المؤمنين بالقَدَر ينظرون إلى ما أصاب أحوالهم [من ظروف خارجية] أو بواطنهم [أزمات نفسية أو بدنية داخلية] من زاوية متكافئة، تساوي بين نوازل الأقدار في الحالين، وهناك من يثبتون فيما أصابهم، ظاهرًا كان أو باطنًا، وأفضل منهم، من يحجبون عيونهم ويسدون آذانهم وقد أقاموا على رأس جبل، من ورائهم هوة سحيقة ومن قدامهم منحدر ساقط، وهم واثقون؛ فلا تتزلزل أقدامهم ولا ينكفئون، ومن هنا قيل إن الموت والحياة بيد القدر، والفقر والغنى مواهب بيد المصادفات.

إن من تأوَّه حسرة على سني حياة قصيرة، فقد جهل أحكام القدر، ومن اشتكى ضيق ذات اليد، فقد تغافل عن طبائع المصادفات، ومن ثبت في وجه الموت، وصمد في وجه الفاقة والعوز، فذاك هو الذي أدرك طوايا القدر، وعرف كيف يتشامخ أمام المصادفات.

(اعلم) أنك لو طلبت إلى أحد المشهود لهم بالذكاء والنبوغ أن يقوم بتقدير وإحصاء المكاسب والخسائر (في موضوع يحتمل مثل هذا التقدير) أو أن ينبئك بما فيه الربح أو الخسارة، وأن يقدم لك تقريرًا وافيًا عن أحوال الناس (كيف يفكرون ويشعرون)، فستجده مصيبًا في نصف تقديراته ومخطئًا في نصفها الآخر؛ ثم اطلب إلى أحد البسطاء (من غير النابغين أو النجباء) أن (يباشر التصرف، دون ...) حساب للمكسب والخسارة، وألا يشغل نفسه بما هو نافع أو ضار، وألا يرهق ذهنه بتتبع أحوال الناس ومشاعرهم

وطرائق تفكيرهم، (فسوف تأتي نتيجة تصرفاته ...) صائبة في بعضها وخاطئة في بعضها الآخر. فما الفرق، إذن، بين تقدير الأمور من عدمه، وبين التنبوء والتحسب للمستقبل أو السير في منعرجاته دون تبصر بالعواقب، وبين التأمل في الأحوال أو التغاضي عنه (أخذًا للأمور على علاتها)؟

عندما يكون الامتناع عن تقدير أي شيء هو التقدير التام لكل الأشياء، فذلك هو اكتمال الحد وتمامه، ولن تكون ثمة خسارة، فإذا لم يكن هناك اكتمالٌ أو فقدٌ، فتلك إشارة واضحة إلى أن جريان الطبيعة قد أتم دائرة الاكتمال، بيد أن طبائع الأمور أوجبت أن يكون ثمة فقد، حيث تدور سيرورة الطبيعة دورة الخسران.

[١١]

كان الملك «جينكون» في رحلة إلى جبل «نيو»، وفي أثناء الطريق، وعلى مقربة من بوابات العاصمة راح يطوف النظر في شتى الأنحاء من حوله مأخوذًا بروعة المناظر الخلابة، ويبدو أن شيئًا ما، أثار في نفسه شجونًا، فترقرت الدموع في عينيه وراح يقول: «ما أجمل هذا البلد! (يقصد مملكة تشي) وما أبهى منظر الأرض والشجر، وما أوفر الخضرة في ربوعه. كم يحزنني أن تمر الأيام والسنوات مثل مياه نهر جارية متدفقة نحو نهاية الشوط، أليس من المؤسف أن يموت المرء، ويتحول عن بلد جميل كهذا؟ ... آه لو لم يكن في الدنيا، منذ الأزل شيء اسمه الموت، لما تركت هذه البقعة من الأرض إلى أي مكان آخر!» وكان اثنان من كبار رجال الإدارة المرافقين للملك وهما: «شيكونغ» و«ليانغ تشوجي» قد سمعا كلام سيدهما وهو يتحدث بالمعنى الوارد ذكره، فلم يتمالكا أن أجهشا بالبكاء قائلين: «صدقت يا مولاي، بل إننا نحن الذين نعيش على عطف جلالتك وعطاياك الكريمة، وليس لنا مثل ما لسيدنا من حظوظ المأكل والمشرب والتنقلات، نكره سيرة الموت ونحب الحياة والبقاء، فكيف بجلالتك؟» وكان «يانزي» [ربما كان أحد كبار الموظفين التابعين للقصر] يقبع في مكان قريب، فلما ترامى إلى سمعه وقائع ما حدث، راح يضحك ساخرًا، فلاحظ الملك ذلك، فمسح دموع التأثر والتفت إليه قائلًا له: «قد وقعت في قلبي الشجون أثناء رحلتي إلى هذه المنطقة، من يومي هذا، حتى تأثر الرجلان شيكونغ وليانغ تشوجي، لفرط إحساسهما وتقديرهما لمشاعري، فطفرت الدموع من مآقيهما، فما بالك تضحك (بكل تبلد) هكذا؟» فأجابه يانزي، قائلًا: «لو كان كرام الملوك، قديمًا، قد بقوا يحرسون دولة تشي، حتى الآن، لبقي أيضًا وزراؤهم، من أمثال «القون تاي» و«القون

[النبيل، يعني ...] هُوان» [تنطق بضم الهاء]، ولو كان قد بقي في عمر الملوك الشجعان بقية ليقوموا على عرش هذا البلد، إذن لظل رجال مثل «القون جوانغ» و«القون لينغ» إلى جانبهم مخلصين ومدافعين (عن الوطن) فماذا لو كان كل أولئك الملوك قد بقوا في الحكم إلى اليوم؟ أما كانوا يشاهدون بأعينهم مليكنا المبجل وهو مترجل وسط المزارع، يلبس أسمالًا بالية [حرفيًّا: معطفًا من القش] ويغطي رأسه بقبعة من خيزران، يكاد يمد يده إلى الفأس مثل أي فلاح بائس، محتشد قلبه بالشجن، وعينه ملأى بالدموع ... أمعقول أن تجد، يا مولاي، متسعًا من وقت لتأتي إلى هنا وتتأمل أقدار الموت والحياة؟ إن السؤال الذي يفرض نفسه الآن هو ... أتظن جلالتك، أن لو بقي الملوك القدامى أحياء، أكنت تتقلد الملك فوق الأمراء والدويلات والأقاليم؟ (والإجابة، بالطبع، هي إن ...) الحكم قد انتهى إليك لأن العرف قد جرى أن يأتي ملوك جدد في إثر ملوك قدامى، وقد صار إليك المُلك، لكنك، وحدك، مشغول (دون الجميع) بالموت والفناء؛ حتى سالت الدموع من الأحداق، وليس هذا سوى مظهر واضح جدًّا لاهتمامك بنفسك [حرفيًّا: دون الاجتهاد في تطبيق مبادئ الإنسانية بين الجميع] أما أنا، فكنت لما رأيت الملك المشغول بنفسه وبجواره رجاله المتباكين؛ عزاءً لخاطره، وتأملت المشهد كله، من طرفيه، فقد غلبني الضحك وأفلت، رغمًا عني، جامح السخرية.» واعترى الملك شعور بالخزي، فرفع كأسه إلى فمه، فجرعه (في حضور رجاله، وعلى ملأ، رمزًا إلى النقد الذاتي!) وأمر تابعيه الاثنين، شيكوانغ وليانغ تشوجو، بأن يتجرعا كأسين من الخمر (... على سبيل الزجر والعقاب.)

[١٢]

كان يقيم في دولة «وي» رجل يدعى «دونغ مينو» [أي: المقيم ببلدة «دونغ مين»، كقولك: ابن البلد دونغي، أو: الدونغميني ... إذا جازت النسبة!] وقد فجع المذكور بولده الذي وافته المنية، فلم يأسَ لوفاة ابنه ولا انفطر قلبه حزنًا عليه، فجاءه خادمه وقال له: «كنت أعرف مقدار حبك لولدك، ولم يكن أحد في الدنيا كلها يشفق على ولده مثلك، ومع ذلك فلم أجد أثرًا للحزن باديًا عليك، بعد أن رحل عنك، فما السبب يا ترى؟ وكيف تفسر لي هذا الأمر العجاب؟» فأجابه الرجل قائلًا: «كنت من قبل أعيش بغير أبناء، ولم أكن آسفًا أن تحرمني الأقدار الولد، فلما توفي ابني، عدت سيرتي الأولى التي كنت عليها من دون ذرية (... فرجعت إلى حالتي التي لم أكن آسف عليها) فلم يَدعُني للأسى داعٍ.»

[١٣]

عين المزارع ترقب الفصول، واهتمام التاجر معلق بالأرباح، وليس للصنائعي غرض سوى إتقان المهارة، والمشتغل لدى السلطة (الموظف الحكومي) ساعٍ إلى النفوذ؛ تلك هي المحصلة الطبيعية [حرفيًّا: الحتمية] في مسيرة الأحوال الاجتماعية، ومع ذلك (فالأمر لا يسير، في كل الأحوال، على الوتيرة التي يبغيها الناس ...) فللمزارع نصيب من النعيم والبؤس [حرفيًّا: القحط]، كما يجد التاجر كفتين متأرجحتين بين المكسب والخسارة، والعامل يفيد ضربًا من النجاح وآخر من الفشل، ثم قد ترد موارد الفرص السعيدة على رجال الإدارة، أو قد ينضب معين الحظ في بعض الأوقات؛ فتلك كلها مصائر تقررها إرادة القدر.



الباب السابع

يانغ شو

杨 朱

(يانغ شو)[1]

[١]

كان يانغ يتنقل في أرجاء دولة «لو»، ثم إنه نزل ضيفًا على آل «منغشي»، فسأله كبيرهم قائلًا: «ما بال الإنسان يسعى إلى الشهرة، أتراها تغني عنه شيئًا؟» فأجابه يانغ شو قائلًا: «ما سعى امرؤ إلى الشهرة إلا ليزداد ثروة وغنًى؟»

– «فما باله لا يقنع بحد، أو يرضى بقدر، بعد أن يحوز الثراء الفاحش؟»

---

[1] عنوان هذا الباب هو اسم عَلَم مشهور في الكتابات الطاوية، ذلك أن «يانغ شو» هو أحد الفلاسفة الذين عاشوا في الفترة الزمنية الفاصلة بين نهاية «عصر الربيع والخريف» (٧٧٠–٤٧٦ق.م.) وبداية زمن «الدول المتحاربة» (٤٧٥–٢٢١ق.م.) وقد قيل إنه صرف جل انتباهه في تأمل الطرق «الصحيحة» المناسبة لإطالة العمر وتجديد الطاقة الحيوية للإنسان، كما أنه أحد الفلاسفة الذين لاحظوا أهمية التأكيد على الحرية الفردية لكل واحد من الناس؛ فلكل فرد حياته وأسلوبه واختياراته التي لا يحق لأي إنسان انتهاكها (ذلك، طبعًا، فيما يخالف المفهوم التقليدي، والنهج المعهود لمجتمع سادت فيه التعاليم الكونفوشية، زمنًا طويلًا) وهو من أكثر رواد الطاوية إثارة للجدل، وكثيرًا ما يشار إلى مواقفه وآراءه «الجريئة» و«الحادة» تجاه الكونفوشية، كما أنه لم يسلم من سخرية وتنديد الكونفوشيين الكبار (مثل منشيوس) به، فقد انهالوا عليه بالنقد والهجوم العنيف.

وعمومًا، فقد ظهرت في الدراسات النقدية الحديثة آراء تشكك في صحة انتساب هذا الباب إلى كتاب ليتزو، بزعم أن محتوى أفكاره يكاد يتناقض مع ما هو معلوم ومسجل في مدونات تراثية أخرى،

– «لا يقنع بما بلغه من الثراء لأنه يسعى إلى ارتقاء سلم المجد [حرفيًّا: المنصب الرفيع والمكانة المرموقة].»

– «ألا تراه غير قانع بذلك أيضًا؟»

– «بلى لا يقنع؛ لأنه يتخذ الحيطة لساعة حتفه وانقضاء أجله.»

– «وما دام قد عرف أن ساعته آتية، ففيمَ مسعاه إذن؟»

– «لأولاده وأحفاده من بعده.»

– «وهل يمكن أن تكون شهرة المرء ذات نفع لأحفاده؟»

– «للشهرة ثمن باهظ يدفعه الإنسان من صحته وطاقته. إن شموع الشهرة لا تضيء إلا بأعصاب مشتعلة وفتيل من إرادة منصهرة باستمرار، وعمومًا، فيستطيع المرء أن يجعل الشهرة في خدمة أهله [حرفيًّا: قبيلته] بل قد تمتد منه أيادي النفع إلى جيرانه وعشيرته، فما بالك بما قد يعود على أحفاده وذريته؟»

كما أن طريقة وأسلوب العرض وخطوط الأفكار الرئيسية لا تجري على النمط المعهود في كتابات يانغ شو الباقية منذ عصر تشين الأول، التي لم تذكر إشارة واحدة إلى مناصرته للاتجاهات «الشهوانية» و«الإيروسية» (لكن، وللأسف، فليس هناك اتفاق معلوم حول اتجاهات يانغ شو؛ لأن مدوناته لم تكن مسجلة بشكل منهجي وشامل ومنظم)، والأفكار الاساسية في هذا الباب يتم تناولها بزعم جريانها على لسان يانغ شو، وتدور في معظمها عن «ضرورة الإذعان للطبيعة» سواء على مستوى «الموقف الفردي» أو في «اتجاه الأفكار العامة» فلا معدى للناس جميعًا، أفرادًا وجماعات، من أن يستمتعوا بلذة الحياة، في كل وجه تتبدى فيه سمات الشهوة الحسية (المأكل، الملبس، الجنس، الموسيقى ...) وذلك لكي يتحقق لهم كيانهم ووجودهم الطبيعي؛ فتتواصل مسيرة الحياة، ويتأصل دور الطبيعة بقوة ورسوخ. كانت الطاوية والكونفوشية اتجاهين متناظرين، لكل مقولة عند أحدهما رأي مقابل (مناقض) عند الأخرى، فلما أدرك شيوخ الطاوية — من أمثال يانغ شو، ولاوتسي، وتشوانغ تسي — زيف القواعد الأخلاقية الكونفوشية، وكذب ادعاءات الشرف والمكانة المرموقة، فقد راحوا يبرزون تهافت تلك الجوانب بطريقتهم، ولم تكن هناك دعوة للانغماس في الشهوات الحسية ولا للإغراق في الأنشطة الإيروسية، بهذا المعنى، بل كانت تشير بإصبع النقد اللاذع إلى أكثر الادعاءات صخبًا وأشد الاتجاهات (الكونفوشية) كذبًا وتضليلًا؛ فمِن ثَم لم تكن الطاوية داعية للفسق (بل الكونفوشية، هي التي كانت تبلغ في خصومتها حد الفجور!) ... «الكل يبحث عن الإنسان (تقول الطاوية) ... لكن الكونفوشيين ضللوه بما ستروا من فضائحه وأهالوا عليه من أوراق التين، فزاد عتوًّا وضلالًا؛ فلا مفر من نزع كل الستور والحجب عنه؛ لعلنا جميعًا أن نكشف عن أصالة ما هو طبيعي في الإنسان.» كذا كانت مقولة يانغ شو، كما عبر عنها في معظم آرائه. ويشتمل الباب على أربع قصص خرافية، تذهب إلى إبراز المعنى الذي يدور حوله محتوى الفصول، ويقال بأن بعض النصوص التراثية لهذا الباب وضعت عنوانًا مغايرًا، باسم: «طا شنغ»، ومعناه: «أسمى درجات الحياة».

– «لكن معظم الراغبين في الشهرة مضطرون إلى التحلي بالصدق والإخلاص، وهو ما يقودهم حتمًا، إلى الفقر (ليس هذا فقط، بل من المعهود أن يكون ...) كل المدفوعين إلى الشهرة مأمورين بالتواضع، وهي الخصلة التي تؤدي بهم إلى الهوان (في خاتمة المطاف).»

– «كان «كوانجون» قد تولى رئاسة الوزراء في دولة «تشي» [كوانجون، أحد أشهر السياسيين في العصر القديم] وكان الملك ماجنًا مولعًا بالانغماس في اللهو والملذات، فسار كوانجو على سيرته؛ وإذ كان جلالة الحاكم مسرفًا مستهزئًا فقد تبعه، في ذلك، كوانجو؛ محتذيًا حذوه في كل تصرفاته، حتى بدا متطابقًا مع ميول واتجاهات سيده حاكم البلاد الذي لم يلبث أن أمال إليه أذنه وأخذ بمقترحاته ونصائحه؛ فكان من جملة آرائه ما عاد بالنفع على البلاد وبلغ بها درجة من الحكم الرشيد، حتى تسيدت فوق الممالك والدويلات. ولئن كان كوانجو قد مات، فقد بقيت سيرته على نحو ما تعلم، وكان في الحوادث، أيضًا، أن ترقى «تيانشي» حتى صار رئيسًا لوزراء دولة تشي، وكان الملك، على أيامه، منغمسًا في اللهو والتبذير، في حين التزم تيانشي جانب الحكمة والصواب [حرفيًّا: جانب التقشف والتواضع] ولما سار الملك بالقهر والجشع (في سياسة البلاد) كان تيانشي سخي البذل، كثير العطاء؛ مما جعله موضع تقدير الناس جميعًا، فوقف الناس في صفه، وصاروا يمدون إليه يد النصرة والتأييد (حتى كان لـ «آل تيانشي» الغلبة في مرحلة من المراحل، وصار «تيانخي»، أحد الأحفاد، ملكًا على دولة تشي، فيما بعد ...) حتى جاء من ذريته من انتزعوا الملك بأيديهم، وانعقدت لهم معاقد المهابة والشرف، ودام لهم الجلال حتى وقتنا هذا!»

– «لكن يبدو لي، في الحقيقة، أن طلب الشهرة، بإخلاص، هو الذي يوقع في براثن الفقر، أما الساعون إليها تفاخرًا وادعاءً، فهم النائلون مجدًا وشرفًا.»

وأجابه يانغ شو قائلًا: «الصادقون والمخلصون ليسوا مشهورين، كما أن الساعين إلى الشهرة [حرفيًّا: أهل الشهرة] لا يمكن أن يكونوا مخلصين؛ والحق أن الشهرة شيء زائف جدًّا، وكان في التاريخ القديم أن كلًّا من الملكين المقدسين «ياو» و«شون» تظاهرا، كلٌّ على حدة، بالتنازل عن العرش [الأول، تنازل عنه لـ «شويو»، لكنه اعتذر وارتحل إلى منطقة نائية حيث عمل بالزراعة؛ والثاني، تنازل لـ «شانجيوان» وهو أحد الزهاد المتعبدين، فرفض وآثر الاعتكاف] ومع ذلك، فقد بقيت لهما سيادتهما فوق الممالك، وامتدت بهما سنوات الحكم إلى آماد طويلة؛ وحدث أيضًا، في الزمان البعيد، أن كلًّا من

«بوهي»، «شوتشي» تنازلا حقًّا عن حكم دولة «كوجو» [إحدى الدويلات في العصر القديم] فانتقل النفوذ من أيديهما، وانتهى بهما المطاف إلى أن لقيا حتفهما في مغارات الزهد الكائنة بجبل «شويانغ»، فهنالك يتجلى لك الفرق بين الادعاء والصدق؛ والأصالة والزيف.»

[٢]

قال يانغ شو: «من عاش حتى بلغ المائة فقد أدرك أقصى العمر؛ والمائة لا يدركها إلا قليل من الناس [حرفيًّا: لا يدركها إلا واحد في الألف] فهي سنوات من العمر ممتدة منذ الطفولة؛ فمن المهد إلى الكهولة تمضي سنوات منذ البدء الأول، نصفها ضائع بين ضعف الطفولة ووهن الشيخوخة، وفيما بين هجوع الليل ويقظة النهار، ينقضي من المرء نصف أيامه، كما تتبدد نصف حظوظ حياته بين قبضة المرض العضال، وورطة القلق والخوف واليأس؛ وأغلب الظن أنه لن يتبقى لديه سوى بضع عشرة سنة يهنأ فيها بحياته، بين الهدوء والقناعة والرضا، دون أن يعكر صفو أيامه شيء ذو بال؛ لكنها على أية حال، ستكون لحظات عابرة لا تلبث حتى تنقضي سريعًا، وإذن، فلماذا يعيش الإنسان؟ ولأي شيء يفرح بحياته؟ (والإجابة بالطبع هي أنه يعيش ...) لكي يجرب حظه من السعادة والثراء، ويطرب للموسيقى ويستمتع بالنساء [لاحظ أن ... التقاليد الاجتماعية في الصين تحتفي بالدلالات الذكورية] ومع هذا، فلن يقنع بالسعادة والثراء دائمًا؛ ولن يرتوي من لذة الموسيقى والجمال. سيردعه شديد العقاب، ويحفزه ثمين المكافأة، وستضع له القوانين والأعراف حدودًا لا يتجاوزها، وستسرع به خطاه أملًا في الفوز بمكانة (زائفة) وكم سيحث المسير رغبة في مجد يبقى من بعده وميراث شرف مؤثل. ليس سوى من راقب نفسه وأيقظ الانتباه إلى أحكام العقل ومواهب الفطنة والسداد؛ هو وحده الذي ينزع من قلبه لذة الأيام في غمرات العمر، ويرد نفسه عن مراتع اللهو ومزالق المجون. أترى لو صار إلى تلك الحال، أيكون ثمة فرق بينه وبين من صُفد في الأغلال وأُلقي به في غياهب العزلة والاعتقال؟ قد علم القدماء أن حياة الإنسان في الدنيا قصيرة، وأن العمر إلى زوال سريع؛ فلذلك أباحوا لأنفسهم كل ما تاقت إليه شهواتهم (بغير حدود) لا يردعهم شيء عن تحصيل وجوه اللذة، دون أن يضيعوا فرصة للانغماس في مباهج الحياة وأفراحها؛ فمِن ثَم لم يحفلوا بالمجد ولا بالشهرة، سبحوا في غمار كل لذة سانحة وانصاعوا إلى داعي المتعة [حرفيًّا: نداء المتعة الطبيعية] ولم يلتفتوا إلى مغانم الشهرة والمكانة، فلم يقعوا تحت طائلة العقوبة ولا نالت منهم تباريح الشقاء ولا منغصات العيش؛ ذلك بأنهم

أهملوا شأن ما يلمع من وميض المجد، وأغفلوا النظر إلى طول البقاء أو عاجل الفناء، فم يحسبوا لمثل هذه الأمور أي حساب.»

[٣]

قال يانغ شو: «الكل[٢] في حال الحياة فرقاء، وفي مقام الموت سواء؛ ففي الحياة، هناك النجيب والغبي؛ الماجد والوضيع؛ فتلك مشارب شتى، يختلف فيها الناس، كلٌّ بقدر؛ أما مقام الموت، بما فيه من عفونة رمية [كذا] وتحلل جيفة، وتآكل وانسحاق، يوحد بين الجميع؛ فالكل عندئذٍ يئول إلى مصير واحد ومنحى مشترك، وعلى ذلك فالجميع هنالك سواء. غير أن النجابة والغباء والكرم والدناءة ليست مرتبطة بإرادة ومقدرة الإنسان؛ ومثلها في ذلك (أحوال المتوفى، من حيث ...) العفونة والتحلل والتآكل والانسحاق التام؛ فهي أيضًا لا تخضع لمراد الفعل الإنساني، فمن هنا كان أمر الحياة والموت بعيدًا عن مستطاع الطاقة الإنسانية وفعل الإرادة، وكانت النجابة والغفلة والمكانة الرفيعة والوضيعة، كلها مما لا يتأتى للمرء أن يقدر عليه، غير أن كل الأشياء تحيا وتموت، ولكلٍّ نصيب من الفهم وعدمه، ومن الشرف وضده؛ فلا مفر من الموت، ولو كان العمر هنيهة [حرفيًّا: ولو كانت الحياة لمدة عشر سنوات] أو طال البقاء قرنًا من الزمان. قد كان الموت قضاءً مقضيًّا على العادل والظالم، القديس والنجيب؛ ثم إن المجرمين والغافلين حتمًا سيموتون.

حتى لو كانت الحياة من نصيب القديسين الحكماء، مثل ملوك الزمان: «ياو»، و«شون»، فسيصيبهم الموت ويصيرون إلى كومة من جيفة وحطام، وكذلك من تنعَّم بالعيش من الظالمين الطغاة، الذين على شاكلة «جيه» و«تشو»؛ فسيصيرون إلى فناء، وتتهرَّأ منهم العظام. فحطام الأجساد وبقايا العظام واحدة بين كل الأموات، وليس ثمة فرق بين عادل رحيم وطاغية أثيم، أيمكن أن تلاحظ أي فرق وقد جيفوا وهلكوا؟ فاغتنم، إذن، حظك من الحياة، وتلذذ بنعمة العيش، فمن ذا يريد أن يضيع وقتًا في تأمل ما بعد الممات؟»

---

[٢] كلمة «الكل» هنا، ترجمة أخرى محتملة لمصطلح «وان» الطاوي، ذلك الذي يتأولونه بقولهم: «العشرة آلاف شيء».

[٤]

قال يانغ شو: «لم يكن «بوهي» من أولئك الذين يحجمون عن الطموح، لكنه كان نقي اليدين، عفيف النفس في تزمت بالغ، حتى مات فقيرًا؛ ولم يكن «جانلي» معتكفًا عن إقامة علاقات الود والصداقة مع الناس (... فقد كان، بطبيعته، لطيف المعشر، فَكِه الحديث والمسامرة، لين الجانب) بيد أنه فرض على نفسه نمطًا من السلوك الاجتماعي (... الأخلاقي، شديد التقيد بالآداب وأصول المعاملات) المفرط في التقيد بأصول المعاملات؛ حتى تردت عشيرته في هاوية النسيان وأغفل الناس شأنها، وباد على الزمان ذكرها؛ فتلك، إذن، بعضٌ مما يمكن أن تجلبه طهارة اليد وعفة النفس ومراعاة الأخلاق الاجتماعية من مضار مهلكة في عاجل الوقت والحال.» [لاحظ التنديد بأصول الأخلاق الكونفوشية!]

[٥]

قال يانغ شو: «كان «يوانشيان» [أحد تلاميذ كونفوشيوس] قد عانى شدة الفقر وهو مقيم بدولة «لو» (إلى جوار أستاذه)؛ بينما كان «تسيكون» [أحد تلاميذ الشيخ الفيلسوف] يرتع في الغنى والثراء، بعد أن انتقل للسكنى في دولة «ويه»؛ فكان ما قاساه يوانشيان من الفقر أسقامًا نالت من صحته وطاقته، وكان فيما فاز به تسيكون من الجاه والمال، بدانة ونهمة أناخت بثقلها الفادح على صحته وحيويته، وهكذا، فلم يكن الفقر المدقع خيرًا ولا كان الثراء نعمةً وحظًّا سعيدًا (ولئن كان الأمر كذلك ...) ففيمَ الخير إذن؟» وأجاب الشيخ على سؤاله بنفسه؛ إذ قال: «الخير كله في أن يبتغي المرء هناءة العيش والسعادة. إن الخير كله في أن يسعد الإنسان برخاء البال والنعيم المقيم، ومن هنا، فليس لمن عرف كيف يهنأ بحياته أن يناله شيء من شظف العيش، وليس لمن تنعم بلذة الراحة والاستجمام أن يلقى الضر من تخمة النعيم وفحش الثراء.»

[٦]

قال يانغ شو: «يؤثر عن القدماء قولهم: «إن الحياة عقد نظيم ورابطة حميمة، أما الموت ففراق بغيض وقطيعة لا قلب لها.» فما أحسنها من حكمة وما أحكمه من قول سديد!» «وليس المقصود بالرابطة الحميمة، في هذا السياق، مجرد توثيق العلاقات الودية بين الأحياء ... (بل إن المعنى قد يمتد ليشمل جوانب أخرى، فمثلًا ...) قد يقود الشقاء إلى

طلب الراحة بعد عناء، مثلما يوقظ الجوع الرغبة في الشبع والامتلاء، أو أن يكون البرد والصقيع مدعاة لطلب الدفء، ويصير الفقد باعثًا على الإدراك؛ أما القطيعة التي لا قلب لها (مع من ارتحلوا إلى الصمت الأخروي) فليست تعني حجب معاني الحسرة والألم، بل تقصد إلى أن المرء سيتوجب عليه أن يمنع لسانه عن الخوض في سيرة من ذهبوا، وألا يرتدي (في مراسم الدفن، وتقديم القرابين للموتى) ثيابًا مطرزة زاهية الألوان، أو أن يبدي ذبائح القرابين أمام روح المتوفي، وما يتصل بذلك من الأدوات.»

[٧]

ذهب «يان بينجون» إلى «كوانيو» وسأله عن طريقة سحرية للحفاظ على الصحة ودوام الحياة بخير وعافية[٣] فقال له: «اغتنم كل فرصة للسعادة، ولا يحولن بينك وبين فرح القلب أي عائق، ودع عنك كل محظور.» فقال يان بينجوان: «هلا ذكرت شيئًا محددًا؟» فأجابه قائلًا: «فلتمل أذنك إلى ما شئت أن تسمع، ولتفتح عينك على ما شئت أن ترى، وتنسم ما شئت من العبير، ولتدع فمك ينطق بما ورد على لسانك من كلمات، ولتدع جسدك ينعم بما بدا لك من الراحة والترف، واترك العنان لأفكار قلبك تذهب بك كيف شاءت، (فأنت لو ...) حجبت أذنيك عن أن تنصتا إلى ما راق لها من الأصوات، فقد قهرت حاسة السمع، وإذا منعت عينيك من النظر إلى ما تشتهي (من فتنة الجمال) فقد اعتقلت حاسة النظر؛ وإذا كتمت أنفك من أن يتشمم عطر نبات «جياولان»، فقد كففت حاسة الشم؛ وإذا أمسكت فمك عن أن يخوض فيما هو صحيح وباطل (حق وخير) فقد أخرست صوت الحكمة؛ ثم إذا مال جسدك إلى لذة الراحة، فمنعته إياها فقد صددت عن بدنك الهدوء والاستجمام؛ وإذا بدا لقلبك أن يطرب وللصدر أن ينشرح ثم وقفت لقلبك بالمرصاد، فقد أزهقت روح الطبيعة. فكل تلك الكوابح ليست إلا معاول كبرى لتحطيم جدارك وتخريب هيكلك، فتنحَّ عن تلك الأسباب الداعية إلى هدم بنائك، وامدد بالهناءة بقاء حياتك بالأيام والشهور والسنين، واتخذ من هذا الطريق دربك؛ فتلك هي الطريقة الناجعة

[٣] «يان بينجون» (...–٥٠٠ق.م.) كان أحد أهم كبار رجال البلاط في دولة تشي، ولم يكن ممكنًا له أن يلتقي، في حياته، بالمذكور في المتن («كوانيو» ...–٦٣٥ق.م.) فالفارق الزمني بينهما يكاد يبلغ قرنًا من الزمان، لكن الحوار بينهما، في سياق هذا الفصل، يرد كمجرد تصور افتراضي، ضمن وقائع متخيلة، بوصفها جزءًا من أقصوصة خيالية أو حكاية خرافية.

التي يدوم بها بقاؤك؛ أما الوقوع في حمأة أسباب تبديد الحياة والركون إلى أغلالها، فقد يمنح المرء بقاءً طويلًا، لكنه بقاء الحسرة والقلق والهموم لسنوات، بل مئات أو آلاف أو عشرات الآلاف من السنين، فذاك طريق آخر يختلف عما ذكرت لك آنفًا.» ثم واصل كوانيو كلامه قائلًا: «قد ذكرت لك، الساعة، طريقة البقاء في كنف الحياة، في أتم صحة وعافية، فهل عرفت الكيفية التي تودع بها موت من مات؟» فقال له يان بينجو: «لا بأس، هناك وسائل شتى لذلك، كلها سهلة جدًّا، أستطيع أن أصف لك منها ما تريد.» فسايره كوانيو قائلًا: «وها أنا ذا أسمعك، فهاتِ ما عندك!» فقال بينجو: «إذا قضى امرؤ نحبه، فليس لنا من الأمر شيء [كذا] فثم طريقة لحرق الجثمان أو إغراقها في الماء، أو مواراتها التراب، أو طرحها في البرية، أو وضعها داخل جوالق من القش وإلقائها في الأخاديد الجبلية البعيدة، أو إيداعها داخل ثياب زاهية [حرفيًّا: قميص حريري وعباءة تنين، وهو كفن الأموات من الأمراء] ثم وضع الجثمان داخل تابوت حجري؛ فتلك كلها طرائق شتى مناسبة لتوديع الموتى، والمفاضلة بينها تتوقف على موجبات الظروف والأحوال.» وعندئذٍ التفت كوانيو تجاه «باوشو» [أحد أصدقائه] و«هوان تسي» [أحد كبار رجال البلاط بدولة تشي] قائلًا: «هكذا أكون قد تفكرت بما فيه الكفاية حول طرائق الحفاظ على حياة طويلة وهانئة، فيما تكلم بينجون عن أساليب تشييع الجثامين، فلم يغادر واحدة منها إلا أحصاها.»

[٨]

تولى «زيشان» رئاسة وزراء دولة «جينغ» [«زيشان»، يلقب أيضًا بـ «كونسون تشنزي» وهو أحد أشهر السياسيين في العصر القديم] وقد تمكن من أن يقبض على مقاليد السلطة بيد قوية، ولم تمضِ ثلاث سنوات حتى كان أهل الصلاح من الناس [كذا] قد أخذوا بتوجيهاته وانقادوا لسياساته؛ لكن العابثين باتوا قلوبهم ترتعد من تحذيراته وإشاراته بضرورة الالتزام بنصوص مواد قانون العقوبات التي قرر أن يراقب تطبيقها، بكل حزم؛ فاستتبت الأحوال في دولة جنغ، واستقرت الأمور وصارت الدويلات تخشى بأسها. وكان للماجد زيشان اثنان من الإخوة الأشقاء، كبيرهما يدعى «كونسون شاو»، والآخر «كونسون مو»؛ فالكبير كان مولعًا بالخمر، أما الأصغر فمفتون بالنساء، وقيل إن منزل الأخ الأكبر كان مليئًا بمواد التخمير التي تراكمت فوق بعضها بعضًا كالتلال أو الكثبان الجبلية، حتى كان عابرو السبيل يضجرون من شدة نفاذ رائحة بقايا المواد المتخمرة، التي كانت تتسلل إلى أنوفهم وهم على مبعدة من البيت، وصار كونسون شاو، إذا أخذته

نشوة الشراب، تاه عقله وفقد إدراكه بالدنيا من حوله ... بالناس ... بالعقل والمنطق ... وكل ما هو قائم على الحجة والبرهان ... بحاجات بيته وضرورات حياته ... بأقاربه ومعارفه ومصير الناس وحظوظهم من السراء والضراء. كل ذلك كان غافلًا عنه، بل كان ذاهلًا، حتى، عن الماء لو أغرقه، والنار لو أحرقته، والجنود بأيديهم السيوف القواطع لو ناجزته؛ أما منزل الأخ الأصغر «كونسون مو» فقد كان ملحقًا به، في الفناء الخلفي، عدة حجرات تقطنها أعداد من أجمل الفتيات اللاتي أغرقنه في فتنتهن، واستلبن عقله، حتى انقطع عما يربطه بأصدقائه وأقربائه من أواصر الود، وصار ملازمًا لتلك الحجرات الخلفية، بين تلكم اللاهيات، تتسلين معه ملء الليالي، حتى إذا فاض المجون وليس ثمة ارتواء أثناء ساعات الليل، أصبح النهار واعدًا ببقية لمستزيد؛ ولم يكن يخرج هذا الأخ من بيته إلا مرة واحدة، كل بضعة أشهر، ثم لا يلبث أن يعود أشد نهمًا واشتهاءً لمداعبات الأمسيات الماجنة، وحتى إذا تصادف أن انتقلت إلى جوار منزله فتاة رائعة الحسن، فما كان يتوانى عن أن يراودها عن نفسها بكل وسيلة، لا يدخر في ذلك المال وكل ما قدر عليه من الإغراءات، (فإن لم تجدِ تلك الوسائل نفعًا، جرب أن ...) يرسل إليها من يجيدون المداورة ليوقعوا بها في براثنه، ولا يكف عن محاولاته حتى تقع في شباكه، وصار أمر هذين الأخوين مصدر تعاسة المسئول الكبير زيشان، الذي راح يشكو همومه، في حذر وتكتم بالغ، إلى «دنشي» [أحد أهم رواد المذهب الفلسفي المسمى ب «المدرسة القانونية»] طالبًا إليه المشورة وإبداء الرأي، قائلًا له: «إنه قد بلغني، أنا المدعو «زيشان» (... وأنت تعرف ما يعنيه هذا الاسم) أن من استطاع أن يهذب نفسه، سهل عليه أن يقوم على أمر عائلته (... بإصلاح ما فسد من شئونها، وتوجيهها في المسلك الأخلاقي الصحيح) ومن امتلك زمام عائلته، دانت له البلاد بالخضوع واستقام له أمرها، فكيف الحال وقد دبت الفوضى وراء جدران بيتي، وبين أفراد عائلتي، حتى اختلت أحوالها للغاية، فهل يمكن لسياسة إصلاح البلاد أن تنجو من مثل هذه الفوضى (... وتسلك في وجهة مغايرة؟) فهل ثمة وسيلة لإنقاذ هذين الأخوين؟ وهل يمكن أن تذهب إليهما، الآن، وتبذل لهما النصح والموعظة؟» فأجابه دنشي قائلًا: «قد داخلني الشك من أمر هذين الرجلين، منذ فترة طويلة، ولم أكن أريد أن أفاتحك في هذا الموضوع، وأتساءل، لماذا لم تكن تبادر إلى الأخذ على أيديهما في الوقت المناسب (وقبل أن تستفحل المشكلة) وتوضح لهما معنى أن تكون الحياة غالية وحلوة؟ لعلك كنت بذلك تقدر أن تبرز لهما قمة الالتزام بالمسلك الأخلاقي السليم.» وبالفعل فقد أخذ زيشان بهذا الرأي، وسعى إلى أخويه وخاطبهما

وهو ينصح لهما قائلًا: «ما كان الإنسان أعظم وأرقى من الحيوان والطير إلا بما وُهب من العقل والفهم، (فاعلما أن ...) العقل والفهم قائمان على مبادئ الخلق القويم، فهما أسباب شرف المرء وكرامته، فما نال إنسان من الخلق والأعراف والآداب منالًا، إلا كانت له به درجة رفيعة في باب العزة والسؤدد والمقام الأسمى؛ أما الانغماس في اللهو [حرفيًّا: في الشهوات الحسية] فسبيل إلى الخطر والمجازفة بالحياة نفسها، فاسمعا قولي لعلكما ترشدان وترجعان إلى صوابكما، وتنالان من رفيع المنصب والمكانة ما يليق بكما.» فأجاباه كلاهما، قائلين: «كلامك هذا ليس جديدًا علينا، وقد عرفت أننا قد اتخذنا نمط حياتنا على النحو الذي تبين لك، وترسخت في هذا الاتجاه خطانا، فهو شيء لم نكتشف أننا بحاجة إلى الانتباه إليه بفضل موعظتك الجليلة. وعمومًا، فالحياة شيء غالٍ يندر العثور عليه أما الموت، فما أسهل لقياه، فهل تظن أن هناك شيئًا جديرًا بالتأمل بعد إذ عرفت أنك تبذل كل ما لديك من حياة غالية ثمينة، انتظارًا لموت قادم لا محالة ... موت يسهل الحصول عليه في أي وقت؟ ها أنت تأتي اليوم، معتقدًا أن الالتزام بالمسلك الأخلاقي واجب يبعث على الفخر، وترى أن معاندة اللذة والطبيعة الجسدية، هو الطريق للفوز بالشهرة والشرف والاحترام، ومن ناحيتنا، فنحن نرى بأن لو كان الأمر كذلك، إذن لصار الموت العاجل أفضل كثيرًا من كل ما تدعو إليه. (وعلى كل حال ...) فالاستغراق في المتع والشهوات يتطلب الإحساس الغامر بالحياة، وبكل معنى جميل بالسعادة، وبكل رصيد العمر الباقي من الفرح والسرور، فهو، إذن، التمتع إلى درجة الامتلاء، بل إلى حد التخمة [حرفيًّا: إلى أقصى ما يستطيع فم أن يأكل ويشرب، بل إلى ما يتجاوز حد الامتلاء بالطعام والشراب] دون النظر إلى ما قد يصيب المرء من الشهرة، ودون الالتفات إلى ما قد تجلبه أفعاله من خطر على حياته. ثم ما بالك وأنت تباهي الجميع بمقدرتك على إصلاح أحوال دولة جنغ (ثم لا تكتفي بذلك، بل ...) تسعى بمواعظك إلى تشويش أفكارنا وإرباك تصوراتنا وقناعاتنا، وتحاول جاهدًا بكل وسيلة أن تصدنا عما نحن فيه بغواية المنصب والمكانة المرموقة، أفلا ترى أن صنيعك هذا دنيء وساذج؟ وعلى كلٍّ، فنحن نتميز منك بأعظم الخصال[٤] إن الأسلوب الناجع في إصلاح شئون العالم (فيما هو خارج الشأن الذاتي) قد لا يؤتي ثماره التامة، وبالتالي تتأثر، سلبًا، صحة الإنسان النفسية والجسدية، معًا؛ (وبالمقابل) فإذا تقدم المنهاج الأمثل في بناء شخصية المرء (من الناحيتين النفسية والجسدية) دون

[٤] في العربية الصحيحة يقال: «تميز كذا من كيت» بمعنى: تفوق عليه درجات.

عثرات هائلة تعترض طريقه، فسوف يحمل في طياته شفاءً للروح وراحة للبدن [حرفيًّا: هدوء النفس وراحة الجسد] أما بالنسبة لطريقتك التي استخدمتها في إصلاح شئون (البلاد، مما يخرج عن إطار النشاط النفسي والوجداني) فقد تجد صدًى طيبًا، وتأتي بنتائج جيدة في بلد ما، لكنها لن تجدي أبدًا في إصلاح شأن الطبائع البشرية. وإذا ما قُدِّر لطريقتنا في معالجة الجوانب النفسية والروحية أن تلقي بظلالها الواسعة فوق الممالك جميعًا، وتنتشر في كل البقاع، فلن تكون هناك حاجة إلى قواعد الالتزام الخلقي السائدة [حرفيًّا: قواعد الأركان الثلاثة والمبادئ الخمسة][٥] بين الملوك والأفراد (بين الناس كبيرهم وصغيرهم) فلطالما عملنا على أن تنتشر تلك الطريقة، الناجعة في الحفاظ على الحياة، بين الناس جميعًا؛ فكيف تتصور إقناعنا بطريقتك، لمجرد أنك أتيت إلينا تحاول موعظتنا بأسلوب آخر مختلف؟»

وعندئذٍ، ارتبك زيشان واضطرب تفكيره ولم يدرِ كيف يرد عليهما، وبعد أيام، قصد إلى دنشي وحكى له ما حدث، فقال له: «ها أنت ذا تقيم وسط أناس صادقين، دون أن تدرك ذلك، فأين الحكمة والبصيرة إذن؟ (ولئن سألتني تفسيرًا لكل ذلك، فسأقول لك إنه ...) يبدو أن ما تم من إصلاح للأحوال في دولة جنغ كان مجرد مصادفة سعيدة، وليس ثمرة دأبك واجتهادك.»

[٩]

كان «دوان موشو» [أحد أحفاد «تسيكون»، تلميذ كونفوشيوس] يقيم بدولة «ويه»، يرفل فيما خلفه له أجداده من نعيم؛ إذ ورث عن أسرته ثروة عظيمة. ولما لم يكن له نشاط اجتماعي محدد، فقد كان يخبط في الدنيا خبط عشواء، فإذا راقت له فكرة ما، نهض للقيام بها، لا سيما إذا بدت له أنها مما يسعى فيه عامة الناس؛ ثم كان يحلو له أن ينغمس فيما يتلهى به الدهماء. ولم يدع مجالًا من هذا وذاك إلا شارك فيه بجهد، أو أصاب منه نصيبًا من المتعة؛ وكان في منزله كل ألوان الثراء والترف (مما كان يتوافر نظيره لدى

[٥] «الأركان الثلاثة والقواعد الخمس» أحد أهم المرجعيات في الكونفوشية، وتتلخص الأركان، المشار إليها، في: سلطة الملك على الرعية، وسلطة الأب على ولده، وسلطة الزوج على امرأته؛ أما القواعد، فهي: البر، والاستقامة، والأخلاق، والحكمة، والإخلاص.

ملوك دولتي «تشي» و«تشو») من القصور والحدائق والبحيرات والموائد العامرة والخدم وجوقات الموسيقى والمحظيات والعمال. فكم سلك دروبًا سائغة إلى أبواب من اللذة، حتى لم يدع متعة تشنف الأذن لسماعها أو تقر العين بمرآها، أو يلتذ الفم بسائغ طعمها، إلا سلك إليها السبيل، حتى لو كان الطريق إليها يمر عبر آفاق بعيدة. وكثيرًا ما كان يجد بغيته عند أطراف أصابعه، كأنها بعض من متاع بيته. وكثيرًا ما قام إلى طريق السفر والترحال، فبرغم وعثاء الطريق وطول المسافات، لم يتردد في أن يجوب القفار ويتجاوز المفازات؛ ليطأ بأقدامه تخوم أبعد الممالك، كأنه يخطو مجرد خطوة منفرجة إلى موطئ قدم قريب. ولطالما أقام الولائم، حتى غصت قاعات بيته بالآكلين والشاربين، وكم بقيت مطابخه موقدة بلهب الأفران لا تنطفئ لحظة واحدة، وكم ظلت الموسيقى تصدح في مقاصير وقاعات الطرب والغناء، ثم إنه أمسك على ما يعينه على شئون الحياة المترفة من أثاث بيته وإرث عائلته، فما زاد عن الحاجة قام بتوزيعه على أبناء عشيرته الأقربين (أولًا) ثم أعطى شيئًا لجيرانه وأبناء بلدته، فإذا بقي شيء بعد ذلك أعطاه لأهل المملكة المقيمين في جنباتها الشاسعة، وقيل إنه عاش حتى الستين من عمره، فلما ضعفت صحته وخمدت همته، ترك عائلته وأخرج ما في خزانته من مجوهرات وثياب، ففرَّقها على الناس، بل إنه صرف المحظيات والجواري الذين كانوا يقومون على خدمته، فلم يكد يمضي عام واحد، حتى كان قد أنفق ما لديه كله، ولم يدع شيئًا، ولو يسيرًا، لأحفاده من بعده. وكان أن وقع به المرض، فلم يجد أهله الدواء لعلاجه، ثم ما لبث أن أدركه الموت، فلم يجدوا ثمن مراسم الدفن، فاجتمع كل الذين نالوا من إحسانه شيئًا، وقرروا الاشتراك في دفع رسوم إجراءات الدفن. ولما وصلت حكاية هذه الأخبار إلى مسامع «تشين كولي» [أحد رجال عصر الدول المتحاربة، كان قد تلقى العلم على يد زيشيا، تلميذ كونفوشيوس وكان قد نما إليه ما صدر عن «دوان موشو»] فعلق على ذلك بقوله: «كم كان دوان موشو متلافًا مضيعًا لثروته، ولا أظن إلا أنه، بهذا المسلك، قد جلب العار على عشيرته.» لكن «توان كانمو» [كان يعمل بالتجارة قبل أن ينضم إلى حلقة البحث والدراسة تحت إشراف زيشيا] كان له رأي آخر؛ إذ قال: لا بد أن دوان موشو قد أدرك ببصيرة نافذة جوهر الأشياء كلها، ولا أراه إلا قد تجاوز بنبالته وأخلاقه الكريمة كل ما عداه من البشر، حتى أجداده الأقدمين أنفسهم، ولئن كان الناس قد دهشوا لتصرفاته وأفكاره، فلم يكن المنطق الصحيح للأمور، ولا الحكمة أو العقل الراجح يتطلب أن يسلك المرء بأقل مما فعل. كان رجال دولة وي، يتخذون من الطقوس والأعراف الأخلاقية مقياسًا لتصرفاتهم، ومستوى معاملاتهم

الاجتماعية [وهو المقياس الذي كان ينص، تقريبًا، على الاحتفاظ بميراث الأجداد، دون تفريط] لكنهم لم يفهموا قط، ولا حاولوا أن يفهموا أفكار «دوان موشو».

[١٠]

جاء إلى «يانغ شو» (أخوه الأصغر، ذلك الملقب بـ ...) «منسون» وسأله قائلًا: «أترى إن كان ثم رجل، يحافظ على حياته أشد ما تكون المحافظة ويعتني ببدنه أشد ما يكون الاعتناء (حتى قد يبلغ به الحال أن يبغض لقاء الموت ...) أيمكن له أن يتجنب الموت؟» فأجابه يانغ شو قائلًا: «من الناحية المنطقية، فلا يمكن أن يفلت من الموت بشر.» فسأله السائل ثانية: «فهل يمكن أن يمني نفسه بالخلود؟» فأجابه: ولا كان في حكم المنطق خلود إنسان، فالحياة لا يكتب لها الخلود لمجرد أن يحبها البشر، ولا الجسد يبقى صحيحًا نشيطًا لأن الناس يعتنون به (هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى ...) ففيمَ بقاء المرء لو عاش خالدًا مخلدًا؟ هي ذي مشاعر الناس [حرفيًّا: المشاعر الخمسة: الفرح، الغضب، الحزن، البهجة، البغضاء] والخير والشر، لم يختلف شيء منها، في ماضي الزمان أو في حاضره، ولا تبدلت على مر الأيام المخاطر المحدقة بصحة الناس وحياتهم، ولا تغيرت على كر الدهور بهجة الأيام ولا أتراحها، ولا تميزت على مدار السنين حال من حال؛ ولا فوضى واضطراب من هدوء واستقرار (فذلك هو المعتاد مما ...) قد سمعنا ورأينا رأي العين، وما جربناه من مصاعب وأهوال، فلم نجد من عاش مائة سنة إلا كارهًا لطول ما امتد به العمر من الزمان، فما بالك بمن يمضي على منوال البقاء، هكذا، من أبد إلى أزل، أليس يصير إلى حال بائسة [حرفيًّا: تصعب الإبانة عنها بناطق المقال] فرد عليه منسون قائلًا: «لو كان الأمر على هذا النحو الذي ذكرت، لكان عاجل الموت أحسن من آجل البقاء، وكفى بالمرء أن يمشي على حافة رمح حاد النصل أو أن يلقي بنفسه في أتون من نار؛ ليرتاح الناس وينتهوا من كل شيء.» فقال له يانغ شو: «كلا، ليس الأمر هكذا، بل يجب أن ننصت إلى داعي الحياة، ما دامت الحياة ملء الوجود [حرفيًّا: فنأتمر بأمر الحياة ما دامت قائمة] ولننصرف إلى التفكير فيما ينبغي عمله حتى يحين الأجل وتأتي النهاية، حتى لو كانت توشك خاتمة الحياة أن تدهمنا بعد لحيظات، فلنبقَ منصتين إلى أمر البقاء، منصرفين إلى ما يتحتم عمله وإلى أي شطر نمضي في مسيرة البقاء، ولنظل هكذا حتى آخر العيش، أما إذا لم يعد هناك ما نأسى عليه أو ما ننشغل بأدائه من المهام، فماذا يفيد الإنسان أن يقعد خائفًا، يرتعد هلعًا وهو يتأمل ساعة النهاية، متفكِّرًا بعمق، فيما إذا كانت ستسرع به ساعته أم تتأخر عنه بعض الوقت.»

[١١]

قال يانغ شو: «لم يكن «بوشنغ تسيقاو» [أحد أشهر الزهاد في العصر القديم] يهتم بأن يمد يديه إلى الوجود بأي نفع، حتى ولو كان النفع بخصلة ضئيلة من الشعر وقيل إنه غادر بلاده وأقام في التنسك والعزلة، يرعى شئون نفسه، دون عون من أحد. أما «دايو» [أشهر مروض أنهار ومقاوم للفيضانات في العصر القديم] فلم يكن يجعل كل همه فيما ينتفع به وحده، دون الناس، وقد ظل يعمل ويأكل من عمل يده ويشقى في سبيل ذلك حتى ابتُلي بالمرض الفتَّاك.

لم يكن القدماء يهتمون بأن يبذلوا، ولو مقدار شعره، من أجل الوجود [الناس والدنيا، جميعًا، أو ... «العشرة آلاف شيء» ... كما يقولون في بعض الترجمات] ولا كان يهمهم أن تتبعهم الدنيا أينما ساروا وتمتثل لمشورتهم. (وأظن أنه ...) لو أحجم الناس جميعًا عن أن يفقدوا، ولو شعرة واحدة، من أجل الوجود أو لو أمسكوا أيديهم عن أن يبذلوا شيئًا يتصورون فيه خدمة الدنيا، لصلح أمر العالم كله.» فتكلم «تشين كولي» قائلًا: «هلا قدمت للدنيا بعضًا مما تقدر عليه من العون، حتى لو كان مجرد شعرة من جسمك؟» فأجابه قائلًا: «لا أظن أن شيئًا ضئيلًا كهذا يمكن أن يعين الناس على شيء.» فقال تشينزي (أي: تشين كولي): «فماذا لو كانت تلك الشعرة هي كل العون الذي تقدمه للناس، أتقبل على تقديمها أم لا؟» وهنالك سكت يانغ شو ولم يجبه بشيء، وخرج من عنده تشينزي وقص على منسون ما وقع، فقال له هذا الأخير: «أراك لا تفقه شيئًا من أفكار الشيخ يانغ شو، فاسمح لي بأن أبين لك (ما غمض عليك من ...) المعنى، (ولكن دعني ...) أسألك ... ماذا لو كان المطلوب مجرد خدش جلدك وكشط ظاهر بدنك من دون إيلام، مقابل الحصول على مبلغ طائل من المال، أتوافق؟» فرد تشينزي على الفور بالإيجاب، فعاد يسأله: «فماذا لو عُرض عليك اقتطاع جزء من جسدك مقابل أن توهب لك مملكة بأرضها وشعبها، أترى كنت توافق؟» فوقع الصمت عليه دهرًا، فقال منسون: «إن شعرة رفيعة أضأل كثيرًا من طبقة جلدية رقيقة، ثم إن رقاقة من جلد مكشوط أحقر من قطعة من البدن. تلك مسألة بدهية، غير أنك لو تأملت لوجدت أن مجموع شعرات؛ خصلة شعر بجوار أخرى، تلتئم جميعًا فتتكون منها قطعة من جلد، ثم تتراكم فيتحد منها جزء من البدن، ثم يتمدد ذلك الجزء فيصير كيانًا تامًّا من الجسم الكبير؛ فالشعرة، إذن، هي ذلك البدن المصغر. ففيمَ نظرتك إليها بعين الاحتقار؟» فقال تشينزي: «لا أدري كيف أجيبك، لكني أظن أنك لو شرحت هذا الأمر، بالأسلوب نفسه، ثم توجهت بسؤالك

إلى لاوتان (لاوتسي) و«كوان يين» [كلاهما من شيوخ الطاوية الكبار] لبدا كلامك منطقيًّا تمامًا؛ بيد أنك لو توجهت بأسئلتي إلى «مودي» أو «دايو» فسوف يتضح لك أن رأيي هو الأصوب.» واستدار منسون ناحية تلاميذه، وراح يشرح لهم درسًا جديدًا.

[١٢]

قال يانغ شو: «كانت السيرة الحسنة والذكرى الطيبة من نصيب «شون»، و«يو»، و«جوكون»، و«كونغ تسي» [أي: كونفوشيوس؛ أما «جوكون» فهو أحد الحكماء القدامى، كان له دور هائل في إرساء مبادئ المعاملات والأخلاق] بيد أن أسوأ السير وأخبث (ما يمكن أن يذكر به أحد من الشخصيات التاريخية في ...) المرويات، فهو ما يتناول تاريخ حياة الملك «جيه» (الطاغية) والإمبراطور «تشو» (المستبد).

قد كان (القديس الحكيم) «شون» يحرث الأرض ويصنع الفخار، ولا يهدأ لحظة عن العمل والسعي لكسب قوت يومه، لم يتسرب إلى مذاق فمه لذيذ الطعام، ولا نزل إلى جوفه طيب الغذاء، ولم يحِنْ عليه صدر أبويه، ولا ترفق به إخوته؛ وكان لما بلغ الثالثة عشرة، قد دخل بإحدى المحظيات، فاتخذها زوجة (دون أن يبلغ أهله بخبر زواجه أو أن يستشيرهم، حسب التقاليد والعادات القائمة) وعندما تنازل له الإمبراطور «ياو» عن العرش، كان قد بلغ من العمر أرذله، وانطفأ الكثير من بريق حكمته وبراعته، ثم خلفه من بعده ولده «شانجون»، ولم يكن على شيء من الدربة والفطنة، فتنازل عن كرسي الحكم لـ «يو»، وبقي خامل الذكر، سقيم المزاج حتى وافاه الأجل، فكانت سيرته ضربًا من الحكايات البائسة — في طول البلاد وعرضها — عمَّن عاش أسير العوز والوحشة. (وقيل في الوقائع ...) إن «قون» [والد الملك «يو»] كان قد تولى أمر مواجهة الفيضانات وإصلاح الجسور والأنهار، لكنه لم يستطع أن يتم مهمته على الوجه الأمثل، فما كان من الإمبراطور «شون» إلا أن قام بإعدامه (لدى سفح جبل «يوشان») وكان أن جاء «يو» ليتم ما لم يفلح أبوه «قون» في القيام به على خير وجه. وتحتم على هذا القادم الجديد أن يعمل في خدمة شون، الذي هو غريمه، قاتل أبيه؛ ثم إنه لم يعبأ بشيء في حياته قدر الاهتمام بمواجهة الفيضانات وإصلاح الأراضي وإقامة الجسور، وبلغ به الانشغال بواجباته درجة كانت مضرب الأمثال، حتى قيل إنه لما علم بأن امرأته وضعت مولودًا، لم يكلف نفسه عناء الذهاب إلى بيته، وبقي يؤدي عمله، بل كان يمر أمام منزله، في ساعات العمل المقررة، دون أن يدق الباب. وظل هكذا حتى زادت أعباؤه وأرهقه العمل وأصابته الأمراض، ولم يكن يستطيع أن

يلمس بيديه شيئًا أو يمشي كبقية الناس؛ بسبب كثرة ما تقيح في باطن كفيه وقدميه من البثرات والتقرحات، ولزم هذه الحال حتى تنازل له شون عن الحكم (فلما ارتقى العرش) ابتنى قصرًا ضئيلًا وارتدى تاجًا جميلًا، لكنه ظل متجهم الوجه، بائس الملامح، حتى وافته المنية، فكانت حياته سيرة رجل جرَّب أقسى وقائع الشقاء والألم بين أهل الممالك قاطبة.

لما مات الملك «أو» آل تشو، كان خليفته في حكم البلاد صبيًّا صغيرًا، لم يتم السن القانونية، فقام جوكون مكانه، وصيًّا على العرش، لكن هذا الوضع لم يعجب «شاوقون» [أحد الياورين، والمسئول الثاني عن الوصاية على العرش] وكان من جراء الخلاف بينهما أن سرت الشائعات في كل مكان، وبقي جوكون منهمكًا في شن الغارات على أعداء البلاد جهة الشرق، مدة ثلاث سنوات، واضطر أثناء حملاته الهجومية إلى اغتيال أخيه الأكبر ونفي الأصغر، ثم لاقى حتفه أثناء إحدى الغارات، فمات كمدًا. فتلك واحدة من أفظع قصص الرجال تحت السماء. ثم كان كونفوشيوس عالمًا بمبادئ إدارة الممالك وشئون الحكم، ولم يلبث أن جاءته دعوة النبلاء (للعمل في الإدارة الحكومية) فلبَّى الدعوة، وذهب إلى دولة سونغ، حيث أشرف على تعليم الطلاب (واتخذ ساحة الدرس تحت شجرة ضخمة تلقي عليه بظلالها غير أن «هوان توي» حقد عليه وامتلأ غيظًا منه، فاحتال له ليقتله، وقطع الشجرة، على حين غرة؛ عسى أن تسقط عليه وتدعسه ...) ثم ذهب إلى دولة ويه، حيث لاقى عنتًا شديدًا وكمن له هناك من أراد به سوءًا، فتسلل خفيةً هاربًا إلى دولة شانغ، لكن سبل الرزق ضاقت به هناك فصار فقيرًا معدمًا (فقد تصادف أن ملامحه كانت تشبه وجه أحد عتاة المجرمين، فقُبض عليه وحُبس أيامًا؛ ليخرج محطمًا) وفي دولة «لو» قبض عليه الجنود وألقوا به في أحراش منطقة «تشن» و«تساي»، وكم لاقى ظلمًا وعدوانًا من آل جي (حيث أجبروه على أن يتولى وظيفة مشرف على حظائر الماشية) ومنعوه من مشاركة علية القوم في السهرات والولائم والاحتفالات الكبرى، انتقاصًا من شأنه، فأحز هذا التصرف في نفسه كثيرًا، ورحل عن الدنيا وهو مكتئب حزين. فأولئك هم أكثر أهل الممالك تعبًا واجتهادًا في حياتهم، لكنهم كانوا الأكثر فقرًا، أولئك هم القديسون الأربعة الذين لم يتذوقوا طعم السعادة، حتى في الأيام الأخيرة من حياتهم، ولم يصيبوا الشهرة إلا بعد الممات. والحق، أن الشهرة ليست من بين مطالب الإنسان الحقيقية، ثم إن الشهرة التي تتحقق للمرء بعد أن يموت — وبرغم ما يمكن أن تمثله من إشادة بمناقبه وجميل سيرته وأفعاله، إلا أنها بالنسبة لمن توفي — لا تعني شيئًا، وكل ألوان التكريم والثناء لا يمكن أن تتمثل في إدراكه بعد أن يكون قد تيبست عظامه وصارت أشبه ما تكون بالخشب البالي وهشيم التراب.

أما بالنسبة لواحد مثل (الطاغية) «جيه»، فقد كانت لديه هيبة الملك وبطش السطوة الحاكمة، على مدى سنوات. وقد اشتهر بصلابة الرأي والقوة والحزم بدرجة فاق بها أقرانه من الحكام، ويكفي أن سُمعَتَه شملت بلادًا كثيرة بظلال بأسه، وأوقعت الهيبة منه في كل القلوب، داخل الوطن وخارجه [حرفيًّا: امتلك من الشهرة ما أثار به، في الأرجاء، الخوف والهلع] وقد اغترف ملء عينيه وأذنَيه ألوانًا من السعادة والترف، وانطلق وراء شهوة قلبه في كل وادٍ، فلم يدركه الموت إلا وهو يتقلب في أعطاف الراحة والهناءة والسرور. فهذا واحد من أكثر أهل الممالك مجونًا ونزقًا ورخاء بال.

وكذلك كان «تشو» ذا قدم سابقة في آجال الملك، نال حظًّا من سطوة الأباطرة السابقين، وكان ذا حزم وافر وهيبة نافذة، حتى سرت أوامره في كل البقاع، لا تصدها نأمة استنكار، فلم يكن هناك من يجسر على أن يتردد في الخضوع أو الإذعان، وكان قصره موطئ شهواته الماجنة، ولياليه الحافلة بالنزق الساهر يتمرغ في مخمل من لذائذ الأمسيات الملكية، شردت شوارده في كل متعة لاهية، ولم يتقيد بأغلال «آداب المعاملات»، ولم تنل منه الطعنات القاتلة إلا وهو في نشوة الفرح الغامر؛ فذلك رجل آخر من أجرأ أهل الممالك فسقًا وفجورًا. وقد نال هذان الجباران، في حياتهما، حظًّا وافرًا من المتعة واللهو ورخاء البال، ولم تلتصق بهما سمعة الطغيان والاستبداد إلا بعد موتهما.

إن المطلب الحقيقي للإنسان لا يتشكل وفق إملاءات السعي وراء الشهرة، ثم إن الميت لا يدرك شيئًا مما يصيبه سواء من الافتراءات أو قصائد المدح والثناء، ما دام قد صار جيفة تذروها الرياح.

فأولئك الحكماء الأربعة، وبرغم ما تمجدت به سيرتهم من طيب الذكر، إلا أنهم ماتوا وهم يتجرعون الشقاء، أما الجباران المستبدان، فمهما قيل عن سوء سيرتهما، فقد نعموا بكل لحظة في حياتهما، حتى وافاهما الأجل المحتوم، ثم مضوا، جميعهم، في طريق واحد نحو الموت.»

[١٣]

ذهب يانغ شو للقاء الملك «ليانغ» [أحد حكام دولة «وي»، زمن الدول المتحاربة] وقال لجلالته أثناء المقابلة التي جرت بينهما إنه (لو قدر له أن ...) يقوم على إصلاح أحوال الممالك، لكان ذلك أسهل حتى من تقليب لعبة بين يديه، وعندئذٍ قال له الملك ليانغ: «يانغ شو، أيها الجليل، بلغني أنك متزوج ولديك أيضًا جارية، وبلغني أنك لا تقدر على أن

تسوس المرأتين معًا، وقيل لي إنك تملك حدائق مساحتها ثلاثة «مو» (أفدنة؟) وما زلت، حتى الآن، تعجز عن زراعتها، ففيمَ قولك لي، الساعة، إن إصلاح شئون الممالك أسهل عندك من تقليب لعبة بين يديك؟» فأجابه يانغ شو قائلًا: هل تعرف كيف يعمل الراعي، يا مولاي؟ أرأيت وهو مجرد صبي لا يزيد طوله عن خمسة تشي (أقدام) وبيده سوط يسوق به أكثر من مائة شاة، يقودها جهة اليمين، أو جهة اليسار، كيفما بدا له؛ أرأيت إذا أمسك الإمبراطور الحكيم «ياو» بإحدى النعاج، ومشى الملك شون وراء القطيع ممسكًا بالسوط، هل يمكن للنعاج أن تتقدم خطوة واحدة؟ (كلا، بل هذا غير ممكن بالمرة) ثم إني قد سمعت أن الأسماك الضخمة التي تبتلع القوارب لا تسبح في مياه الجداول (الضحلة الضيقة)، وأن البجعات الكبيرة المحلقة في أعالي السماء لا تتجمع لدى حواف البرك والمستنقعات الموحلة، أتعرف لماذا؟ لأن الغاية بعيدة والقصد في أقصى المدى. إن المقامات الموسيقية التي من لون «هوانشون»، و«طاو» ... تلك المقامات اللحنية ذات الرنين المقدس الذي يتردد في أبهاء المعابد، لا يمكن أبدًا أن تتآلف في (هارموني) مع نغمات مضطربة شديدة الصخب، نابية عن الذوق، أتدرك لماذا؟ لأن طاقتها اللحنية متسعة جدًّا، والصوت عالٍ ورنان ... إن التصدي للمهام الكبرى لا يتطلب حساب توافه الأمور، وأصحاب الإنجازات الكبرى لا يكترثون بأداء أحقر المهام، ذلك هو المعنى (الذي قصدت إليه.)

[١٤]

قال يانغ شو: «ما دامت تفاصيل الوقائع القديمة قد تلاشت أو انمحت، فمن ذا يستطيع أن يسجلها بدقة ووضوح؟ أن مآثر الأباطرة الثلاثة[٦] تبدو وكأنها قد حدثت في الواقع، ثم إذا بها تبدو، من جانب آخر، بوصفها محض أوهام؛ كما أن (ما تتناقله وقائع التدوين من أحداث خاض غمارها ...) الملوك الخمسة[٧] تبدو(أحيانًا) واضحة كأننا نراها بأعيننا

[٦] «الأباطرة الثلاثة» اصطلاح متكرر في النصوص التراثية القديمة، وله عدة إشارات مختلفة؛ فأحيانًا يُقصد بهؤلاء الثلاثة: إله السماء، وإله الأرض، وملك دولة تشين؛ وأحيانًا أخرى يشير إلى: إله السماء، وإله الأرض، والإنسان؛ وقد يقصد به: فوشي (أبو الخليقة)، نيوا (أم البشر)، شن نونغ (إله الزرع والحصاد)؛ ويقصد به أيضًا: فوشي، وشن نونغ، وجورونغ (إله النار)، كما أنه يمكن أن يدل، في نصوص معينة على معنى: سويرن (إله النار)، وفوشي، وشن نونغ؛ فتلك كلها أقوال محتملة وممكنة لتفسير هذا المصطلح.

[٧] «الملوك القدماء الخمسة» مصطلح تراثي يشير إلى الملوك الأكثر شهرة في العصر القديم، وهم: هواندي، جوانشيو، دي قو، طانياو، يوشون.

(وأحيانًا أخرى) تخالها مضطربة وغائمة، كرؤيا الأحلام، وسير الملوك الثلاثة[8] تلوح، حينًا، كألغاز غامضة تستعصي على الفهم، وحينًا آخر، تبدو في متناول الفهم والإدراك، ويحتشد ركام من الأحداث تمتلئ تفاصيله بمائة ألف واقعة، ثم تغيب عنَّا بعض تلك الوقائع (فيختلط التسلسل ويضطرب تماسك الأحداث).

إن من الوقائع الحقيقية ما هو ماثل أمام العين، وما هو مطروق السماع للأذن؛ وقد يحدث أحيانًا — برغم ذلك — أن تخفى حقيقة أحد الأحداث أو الوقائع، وسط حشد التسجيلات، بل إن من الأحداث، ما تجري وقائعه أمام المشاهد، في وقته الراهن (ومنها ما قد انقضى زمن حدوثه [كذا]) وبرغم هذا، تضيع تفاصيل إحدى الوقائع، وسط سجلات آلاف الأحداث.

لم يحدث أبدًا، على مر التاريخ، ومنذ العصور القديمة حتى الوقت الحالي، أن كان إحصاء السنوات محل تدوين واضح وموثوق به. وعلى أية حال، فمنذ زمن «فوش» [أول الخليقة] أي منذ ثلاثمائة ألف سنة أو يزيد انمحت تمامًا آثار النجابة والجهل، الجمال والقبح، النجاح والفشل، الحق والباطل، فلم يبقَ من الشواهد، في كل ذلك أي أثر. ويبقى الفرق بينها في أن بعضها قد زال سريعًا واندثر، في حين تلكأت بعض المآثر وهي تمضي في طريق النسيان.

إن من يعذبون أنفسهم بالوقوف عند حدود ما يأملون من ثناء، تجنبًا لكل لوم وتأنيب، سيكون من حقهم أن يكال لهم المديح وتخلد لهم السيرة العطرة، مئات السنين؛ لكن هل تكفي الذكرى الطيبة ونفحات السير الذكية لكي تعيد النضارة إلى أجساد بالية؟

ما النفع مما يعمله الإنسان وما جدوى أن يحيا الحياة؟»

[١٥]

قال يانغ شو: «لا يختلف الإنسان في شيء عن كل موجودات الأرض والسماء، سوى أنه أكثر المخلوقات حساسية؛ بما وُهب من مواهب طبيعية خمس.

للإنسان أظافر وأسنان (لكنها) لا تدفع عنه البأس، كما أن ما تراكم في جسده من اللحم والجلد لا يمنع عنه الأذى، ويستطيع أن يطلق ساقيه للريح، لكنه لا يملك السرعة

[8] «الملوك الثلاثة» مصطلح تراثي، يشير إلى الملوك: يو آل شيا (أسرة شيا الملكية)، والملك طانغ آل شانغ، والملك أون آل تشو.

التي يقصد بها إلى مأوًى آمن بعيد عن موطن الخطر، فليس يغزر على جسمه شعر كثيف يقيه برد الشتاء ولفح الهجير؛ مما دعاه إلى أن يستعين (على هذه الأشياء) بأدوات ليست من صميم بنيته الجسدية، وكان من جراء ذلك أنه استخدم ذكاءه وأغضى عن قوة بدنه، وصارت الحكمة ثمينة لديه؛ لأنها كانت وسيلته للبقاء ومغالبة الخطر، وباتت القوة الجسدية في مرتبة أدنى؛ لأنها لم تسعفه في اجتياح عقبات الدنيا الكبيرة من حوله.

ولما كان الجسد الإنساني هو موهبة الميلاد، فقد كان لا بد من حمايته والحفاظ عليه، وكانت كل الأشياء التي في العالم (خارج الجسد) ذات وجود مشاع (غير مخصص الملكية لأفراد بعينهم) لكنها إذ بدت متاحة ومطواعة، فلم يكن يمكن إغفال شأنها والتغاضي عن استخدامها. كان الجسد شرط البقاء الأساسي للحياة، وكانت الأشياء مصدر إنماء الجسد، وبرغم أن الإنسان استطاع أن يحفظ عليه حياته، إلا أنه لم يستطع أن يمتلك زمام جسده ويخضعه تحت سيطرته؛ ولئن كان قد عرف قيمة الأشياء وأصاب منها وجه النفع، فقد ظل عاجزًا عن قهرها، وقد تحول أمل الإنسان الفرد في قهر الأشياء وامتلاك الأجساد إلى لون من القهر العنيف لكل الموجودات والامتلاك الاستبدادي لأجساد البشر ... تلك معانٍ لا يفهمها إلا قديس، أما (المفهوم العام) لأجساد البشر، و(المغزى الشامل لـ ...) كل الموجودات، فلا يدرك فحواه إلا أعظم الحكماء؛ فذلك ما يقال عنه إنه الأمر الذي قد بلغ حدًّا يستبين فيه رأس الحكمة وذروة البصيرة.»

[١٦]

قال يانغ شو: إن عدم بلوغ الناس مستوى النضج النفسي والأخلاقي الرفيع يرتبط بأربعة أشياء، هي: طول البقاء، والشهرة، والمكانة، والمال. (فهذه الأشياء تؤدي بالإنسان إلى سلوك مضاد للطبيعة البشرية؛ ذلك أنها ...) تدفع الإنسان إلى أن يخاف الأشباح ويخشى بني البشر، ويرتعد هلعًا من السطوة النافذة، وينكمش على نفسه خشية العقاب. أما أولئك الذين يسهل دفعهم للحياة أو للموت، لأن بقاءهم أو موتهم معلق بإرادة فعل خارجي (خارج ذواتهم) فليس هناك ما يجعلهم يطلبون طول البقاء، ما داموا لم يخالفوا قضاء السماء وقدرها؛ وليس ثمة ما يدفعهم لأن يحسدوا الناس على الشهرة، ما داموا غير مكترثين بالمجد العالي؛ وليس هناك ما يجعلهم يغبطون الناس على المكانة الرفيعة، ما داموا يزهدون في مواقع السلطة والنفوذ، ولا يوجد ما يدفعهم للتطلع إلى الضياع والأراضي والأملاك الطائلة، ما داموا في غنية عن التطلع إلى الثراء والمال؛ فهؤلاء جديرون بأن يُطلق عليهم المتحققون بالفطرة الطبيعية.

(اعلم أنه ...) بيد الإنسان وحده ألا يجعل له في مجتمعه أندادًا، فالمثل السائر يقول: «من لم يتزوج ويترقى إلى أسمى الدرجات الاجتماعية، فلن يعرف سوى نصف اللذة؛ ومن لم يستمتع بأشهى طعام وأفخر ثياب، فلن يبلغ شيئًا من آماله الكبرى.» وتحكي إحدى الطرائف الشائعة بمنطقة «تشودي» عن فلاح كهل قيل إنه يستطيع أن يرقد (رقدة الموت) في سلام، بعدما ظل يخرج إلى العمل في الصباح ويعود في المساء لسنوات طويلة، حتى ظن أن العمر باقٍ على هذا المنوال، وأن حياته لن تنتهي أبدًا، وكان يأكل الذرة وأوراقها النيئة وهو يظن أنها أشهى طعام على وجه الأرض، ويكاد جلده يتغضن لكثرة ما علاه من الخشونة والطبقات المتراكمة من درن الجسد، وقد انخلعت عظامه واهترأت مفاصله لطول دأبه على العمل؛ فإذا قُدر له أن ينعم بشيء من ترف الراحة [حرفيًّا: أن ينعم بفراش وثير وغطاء ثقيل] أو أن يتناول وجبة من أطايب المائدة [حرفيًّا: من الحبوب الناعمة واللحم والفاكهة] أصابه المرض أو وقعت بقلبه الهموم والأحزان، أو وقع أسير السهر والحمى، ولو قُدر لملوك دولتي: «سونغ» و«لو» أن يجربوا شيئًا من دأب الفلاحين على العمل، لسقطوا من التعب وتحطمت أجسادهم، فيما لا يتجاوز بضعة الأيام.

فمِن ثَم، يهنأ المزارعون بحياة مستقرة ويرون الجمال والروعة في كثير من الأشياء، ويعدونها مزية لا ينعم بها، في الدنيا بأسرها، أحد سواهم.

(وقد قيل في حوادث الزمن البعيد ...) إن أحد المزارعين بدولة «سونغ» كان يأتزر بثوب من الكتان المحشو بجزازات من قطن بالٍ؛ ليتقي به برد الشتاء، وخرج المزارع في صبيحة يوم من أواخر فصل الشتاء [حرفيًّا: أوائل الربيع][٩] فلما بلغ به الجهد مداه، أراد أن يجلس ليستدفئ قليلًا تحت الشمس، ولم يخطر بباله أن هناك أبراجًا عالية مخصصة للاستدفاء وأن بنايات فخمة قائمة (وسط المدينة) للتمتع بدفء الشمس، ولا كان قد بلغه أن هناك معاطف من الفراء والثياب القطنية والحريرية والمخمل الصوفي، ألوانًا وأشكالًا، فالتفت قائلًا لامرأته: «ما أظن أن أحدًا في الدنيا قد عرف روعة الدفء،

---

[٩] إن اختلاف الظروف المناخية في العالم العربي، عمومًا، عنها في الصين يضطرني إلى إزاحة الإشارة إلى الفصول الطبيعية، حتى يتمكن للقارئ من أن يبني نمطًا شعوريًّا مناسبًا لأجواء التلقي، في بيئة مغايرة، ليس هناك انتهاك للمتن، بأي حال، لكن فقط إزاحة طفيفة تساعد على تصور المعنى؛ إذ المدار على الفهم، أولًا، قبل التوثيق.

كما أشعر به الآن، وأنا تحت ثيابي هذه، أقتنص من حرارة الشمس لذيذ الشعور باعتدال الجو، فما رأيك في أن أتوجه إلى قصر الأمير؛ كي أطلعه على هذه المتعة؛ لعلي أصنع به معروفًا، وأكشف له عن طريقة يتجنب بها الزمهرير، وقد يتكرم عليَّ أو يصلني بهدية ثمينة.» وكان أن قال له أحد سكان القرية من الأغنياء: «كان في قديم الزمان رجل يعتقد أن أشهى الطعام البقول والقنب والشيح، فنصح للأثرياء من أهل بلدته بالإكثار من تناولها، فما كادوا يفعلون حتى أوجعتهم بطونهم وصاروا يشعرون كأن عقارب سامة تلدغ أمعاءهم وسخروا من صاحبهم واستنكروا مشورته، فأطرق برأسه خجلًا وتوارى عنهم آسفًا، وقد أتيت، يا سيدي، شيئًا على هذه الشاكلة.»

[١٧]

قال يانغ شو: قصر منيف، وثياب ملكية، وطعام شهي، وامرأة جميلة؛ تلك أربعة أشياء قد تتوافر لواحد من الناس، أترى صاحب هذه الأربعة يتطلع إلى مزيد؟ أظن أن امرأً صارت لديه هذه الأشياء، ثم تاقت نفسه إلى مزيد، فقد حق عليه الوصف بأنه طماع جشع.

والطماعون بعض من حشرات الأرض (والسماء) الضارة المهلكة. إن الإخلاص (وحده) لا يكفي أمانًا للملوك، لكنه يكفي لتعريض النفس للخطر؛ والحق، وحده، لا يعطي الأشياء قيمة، لكنه يكفي تمامًا لتهديد حياة الإنسان [كذا].

إن ما يمنح الملوك الأمن والأمان ليس هو «الإخلاص»، فهذه الكلمة [الإخلاص … يعني، ولاحظ التنديد بالمعاني الكونفوشية!] مجرد لفظ يقبل المحو، بكل سهولة.

كما أن «الحق» ليس هو الذي يمنح الأشياء قيمة ويجعلها ذات نفع، فهذه الكلمة [الحق] يمكن التغاضي عنها.

لا أمان للملوك ولا نفع للنفس ولا للموجودات جميعًا، إلا بما وضعه الأقدمون من قواعد للسلوك الإنساني. وقد قال «يوتزي»: «إن من أغفلوا الشهرة قد سلموا من أسباب القلق.» وقال لاوتسي: «إن الشهرة مجرد ضيف عابر على الحقيقة [حرفيًّا: ضيف على جوهر الأشياء] ومع ذلك، فما زال هناك الكثيرون يسعون بغير كلل وراء الشهرة، فهل يمكن أن تكون لها الجاذبية الآسرة، التي لا مفر منها … هل يمكن أن تكون (الشهرة) محل ثقة ووسيلة ناجعة؟

إن شاهد الحال، الآن، يثبت أن الشهرة مقرونة بالاحترام والمجد والفخار، أما الانزواء بعيدًا عنها فلا يجلب سوى المهانة والاحتقار؛ وبالطبع فالماجد الشريف يعيش هانئًا سعيدًا، أما الوضيع فيبوء بالأسى والحسرة. ثم إن الإحساس بالألم والأسى ليس من الفطرة، فطبيعة الناس مفطورة على الهناءة والسرور، مما يدل على أن الميل إلى الشهرة متصل بـ «جوهر الأشياء» و«حقيقة الطبائع» [تلك ترجمة حرفية مفترضة لمصطلح «شيتي» وبطبيعة مصطلحات الفلسفة الصينية، فمستحيل تحديد معنًى دقيق لها!] فكيف يمكن، إذن، التغاضي عنها؟ وما الوسيلة إلى تفعيل فائدتها؟ (بيد أن الأمر المهم في هذا كله هو أنه ...) يجب أن تكون كراهيتنا منصرفة إلى استهجان التمسك بالشهرة، على حساب «الجوهر والحقيقة»؛ ذلك أن صرف الانتباه، كله، إلى الحصول على الشهرة، بالدرجة التي تطغى على «الحقائق الجوهرية» [أحد المصطلحات الطاوية، لعله يفيد هذا المعنى، في التقدير السليم لدلالة العبارة كما وردت في المتن الأصلي، في لغته الصينية الكلاسيكية] هو جزء من «القلق على ضياع الأشياء وفقدها إلى الأبد» وإذن، أفليس غريبًا حقًّا، أن يحتل هذا القلق منطقة وسطى.[١٠] بين السعادة والأسى؟» (أليس غريبًا أن يكون لمثل هذا القلق مكان؟)

---

[١٠] يظن المترجم أن المعنى في هذه العبارة يمكن أن يتضح للقارئ، إذا ما أخذ في الاعتبار مدى ما تذهب إليه النصوص الطاوية، عادة، من سخرية وازدراء وتعريض بالمبادئ الكونفوشية، ومن بينها «مبدأ الوسطية» المشهور (أو مبدأ الحد الأوسط، بعبارة أوضح) ذلك الذي قالت الكونفوشية بأنه يبرز جوهر الحكمة والحق.

الباب الثامن

شو هفو

说 符

(البراهين)[1]

[١]

كان ليتزو يتلقى العلم على يد «هو شيو تسي لين»، وذات مرة قال له أستاذه: «أراك قد فهمت معنى التواضع، وهكذا فيمكنني أن أنتقل الآن إلى شرح مسألة تبدو في غاية البساطة والوضوح، فلا تعجب إذ أكلمك عن كيفية الحفاظ على الاستقامة، دون ميل.» فقال له ليتزو: «لكني أتمنى أن أستمع إلى مزيد من الشرح حول مسألة التواضع.» فأجابه هو شيو تسي قائلًا: «(نستطيع أن نرجئ هذا الموضوع قليلًا ...) لكن دعني الآن أبين لك مسألة استقامة البدن ليتك تلتفت إلى الوراء، وتتطلع إلى ظلك على الأرض، وستفهم ما أقصده.» فالتفت ليتزو خلفه ناظرًا إلى ظله، ولما كان جسده يميل في انحناءة خفيفة،

[1] هذا هو الباب الأخير من كتاب ليتزو، وينصرف محتواه إلى محاولة الاستدلال على صحة ما سبق طرحه في الأبواب والفصول السابقة، أو بمعنًى آخر: محاولة الوصول إلى نتيجة منطقية بعد تطور سردي للقضايا التي سبق له تناولها في الأبواب السبعة، والعنوان، هنا، يتكون من مقطعين: «شوه» بمعنى «مناقشة»، و«فو» أي: «البرهان»؛ أو بمعنى أدق «البرهنة على صحة الأشياء». وفي عبارة واضحة، فالمؤلف يريد، في هذا الباب، أن يقول بأن «كل الأفكار والتصرفات تحتاج دائمًا إلى الاستدلال على صحتها، وهذا الاستدلال لا يجري عبثًا، وإنما يهدف، أساسًا، إلى البحث عن مدى مطابقة كل فعل وقول لـ «أصول ومبادئ الطاو». ويحتوي هذا الباب على ثلاثين أمثولة وحكاية خرافية.

فقد بدا الظل مائلًا، فلما اعتدل الجسد، استقام الظل؛ فأيًّا ما كان الوقوف، فقد كانت الظلال، في كل الأحوال، تتبع هيئة الجسم، استقامةً وميلًا (فالاستقامة والميل هنالك، لم يكونا حالة راسخة في هيئة الظلال، وإنما مجرد انعكاس لوضع الجسم) وهكذا؛ فسواء تعلق الأمر بالأحوال العامة أو بالمعاملات والسلوك من حيث الميل والاستقامة، فالتأثير الحاسم يقع على عاتق الأشياء نفسها أو الظروف الخارجية المحيطة بالأحداث، وليس في الطريقة التي يفكر بها الإنسان، بمعنى أن التحلي بمسلك يتسم بالتواضع [«رانغ» في المصطلح الطاوي، بمعنى: التراجع، الإيثار، التنائي عن الظهور] يمكن تمامًا أن يتحول إلى موقف يدعو صاحبه إلى التهالك على أول الصفوف والتكالب على موقع الصدارة.»

[٢]

تكلَّم «كوان يين» مع ليتزو، فقال له: «إن الكلمات الطيبة ذات الوقع الحسن يقع صداها موقعًا طيبًا مستساغًا، والكلمات الجافة (النابية) يتردد لها صدًى من جنسها. (واعلم أن ...) للجسد الفارع الطول، ظلال طويلة ممتدة. أما القامة القصيرة فظلها ضئيل كذلك. إن مَثَل الشهرة كمثل الصدى، وسلوك المرء أشبه شيء بالظلال؛ فلذلك قيل إن من يتكلم بالحصافة والفطنة يكون لكلامه صدًى لدى أناس على شاكلته؛ ومن يسلك بالنجابة والذكاء يكون له أتباع يسيرون على منواله؛ فمِن ثَم لا يكاد القديس يسمع صوتًا، حتى ينتبه إلى مدى ما يتردد بعده من صدًى، وإذا اطلع على أحوال ما جرى في سابق الزمان بادر إلى النبوءة بما سيأتي في آجل العصور والأيام؛ فذلك هو السبب وراء مواهب الحكماء، في رصد مخبوء الأيام وتقدير مكنون صفحة الغيب.

بيد كل امرئ معيار تقدير أحوال الناس؛ أما الكشف عن حقائق تصرفاتهم وأقوالهم، فهو مرهون بما يستدل عليه من الآخرين، ولا بد أني (ككل الناس) سأحب من يحبني وأبغض من يبغضني.

كان الملكان «طان» و«أو» [تُنطق كما في: «أوليمبي»] يحبان الناس؛ فلذلك تسيدا العروش وتبوءا مقاعد الملك؛ أما (الطاغيتان) «جيه» و«تشو» فقد احتشد قلباهما بكراهية رعاياهما، فتمزق ملكهما وتبدد عرشاهما، وتلك حقائق ثبتت بالبراهين.

إن الفهم التام لمعايير السلوك وما ثبت من خلاصة البراهين، دون التطرق إلى التصريح عنها (قولًا) والاسترشاد بها (فعلًا) أشبه شيء بمن يريد أن يخرج من بيته إلى الدنيا الواسعة، من دون أن يمر بالباب؛ أو من يقصد إلى السير على الدروب دون أن يهتدي بالطرقات، فهل يمكن لمثل هذا المسلك أن يؤدي إلى أي نفع؟

قد تأملت سيرة (الملوك والآلهة ... مثل:) «شن نونغ» و«ياندي»، وتفحصت مليًّا سجلات ووثائق (الأسر والإمبراطوريات الحاكمة في العصر القديم، مثل:) «يو» و«شيا» و«شانغ» و«تشو»؛ واكتشفت أن عوامل ازدهار تلك الأيام وانهيارها وقيام العروش وفنائها، تنبع كلها من المبدأ الذي أشرت إليه آنفًا.»

[٣]

قال «يان هوي» [شخصية بغير ترجمة معلومة]: «يتوسل الناس بـ «الطاو» ليزدادوا ثراءً وعزة وبهجة حياة، فماذا لو قُدر لي اليوم، أن أعثر على جوهرة ثمينة فأصيب حظًّا من الغنى ووفرة من المال، فهل يكون ثمة داعٍ للطاو؟» فأجابه ليتزو قائلًا: «لم يكن الملوك الطغاة (من أمثال «جيه» و«تشو») يقصدون طريقًا إلا التماسًا لما فيه منفعتهم الذاتية، ولم يروا في «الطاو» أي وجه للنفع فاستهانوا به، فهلكوا وبادت عروشهم (... فأبشر خيرًا؛ إذ لن تجد عندي قولًا يحذرك مغبة ما قد يصيبك من تهلكة مماثلة!)

(فاعلم) أن الناس إذا ضاع بينهم الحق والعدل، وتكالبوا على ما يملئُون به أفواههم وبطونهم، صاروا مجرد حيوانات داجنة [حرفيًّا: مجرد دجاجات وكلاب] وإذا تصارعوا واقتتلوا طلبًا للقوت، وأصبحت يد البطش هي الأعلى، صاروا كوحش الفلاة وحيوانات البرية؛ فكيف لمن تدنى إلى نهمة الداجن وهمجية الوحشي أن يحظى بالاحترام والكرامة؛ وإذا ذهبت الكرامة والاحترام، حلت المهانة والخطر والصغَار مكانها.»

[٤]

كان ليتزو يدرس الرماية، وتصادف أنه رمى بالسهم (عبثًا) فأصاب قلب الهدف، فطلب إلى «كوان يين» أن يبين له سبب إصابة الهدف (بهذه الطريقة الارتجالية، دون تسديد مدروس) فقال له: «هلا ذكرت لي أنت السبب في دقة تسديدك للضربة على هذا النمط؟» فأجابه ليتزو قائلًا: «لكني لا أعرف السبب.» فقال له كوان يين: «كلا، بل يجب أن تعرف السبب جيدًا؛ لأنه لا يكفي أن تجيء الرمية صحيحة في قلب الهدف تمامًا ... لا ... هذا لا يكفي!» ومضى ليتزو في طريقه وراح يدرس ويستقصي الأسباب ويجتهد في طلب المهارة والعلم بكل وجه ممكن، وجاء بعد ثلاث سنوات ليبلغ كوان يين بما انتهى إليه في باب الرماية، فقال له أستاذه: «هل عرفت السبب في تسديدك الضربة التي رميت بها، يوم

ذاك؟» فأجابه قال: «نعم، قد وعيت السبب حقًّا.» فقال له كوان يين: «الآن قد وعيت الأمر وأدركت مقصدي، فاحفظ عليك مهارتك واعقل ما تعلمت واختزنه في خزائن علمك؛ لئلا يذهب به النسيان (واستفد من ذلك أن ...) الأمر لا يقتصر على الرماية وحدها، بل يمتد إلى كل ما له علاقة بشئون الممالك، وتهذيب النفس وطلب كمالات السلوك الرشيد، فكلها تجري هذا المجرى؛ فمن هنا، نأى القديسون بأنفسهم عن النظر في موضوعات العالم والأشياء الموضوعية وجودًا وعدمًا (تجاوزوا حدود التساؤل عما إذا كانت ظواهر العالم الطبيعي قائمة أم معدومة) إلى البحث في علل وأسباب وجود الأشياء وفنائها.»

[٥]

قال ليتزو: «الغضب مدعاة للطغيان، والجبروت سبيل يؤدي إلى الغرور، فما أبعد أن يكون الطاو موضوع مناقشة مع غاضب أو متجبر! ولا بد أنه من الخطأ الفاحش أن يتحدث المرء (حول موضوع الطاو) مع من لم يشتعل رأسهم شيبًا، ويتجلل قدرهم بالوقار (فإذا كان من الصعب أن تحاول — مجرد محاولة — أن تناقش موضوع الطاو ...) فما بالك بمحاولة تطبيق مبادئه في شتى نواحي السلوك؟

إن المتباهي بقوته يطأ مرتقى صعبًا، يصعب على الناس، معه، أن يمحضونه النصح؛ وإذ ينفض من حوله الناصحون، يمضي في طريقه وحده، أما القديسون الحكماء فلا يتنكبون عن المسير بغير رفيق، ثم إنهم تشيخ أعمارهم ولا تهرم أجسادهم، وقد تذوي منهم الحكمة، لكن تبقى أذهانهم متقدة فلا يضلون الطريق. وهكذا، فإن أصعب أمر من أمور إصلاح الممالك يكمن في كيفية التعرف إلى أكبر عدد ممكن من الحكماء بين الناس، في أي بلد من البلاد، وليس في الاعتقاد الفردي عند آحاد الناس بمزاياهم ومواهبهم الذاتية.»

[٦]

ظهر في دولة سونغ فنان ينحت حجر اليشب، فيأتي منه بشبه أوراق التوت أشكالًا فنية رائعة، أجملها ما مهر فيه من نحت استغرق منه ثلاث سنوات حتى انتهى من تصوير قطعة على مثال ورقة شجرة التوت، بدت كأنها صورة حقيقية تفرعت عن سويقة نابتة في أغصانها، وقد سرت في صفحتها عروق تغذيها بنسغ الحياة، فصارت ضاربة إلى خضرة لامعة صقيلة كأنها ابنة الأغصان الحية، التي يحار الناظر إليها فلا يكاد يفرق بينها وبين

أوراق التوت الحقيقية، وقد امتلك الفنان ناصية المهارة، فأقام في مملكة سونغ ما شاء له المقام، لا يشغل باله شيء من كدر العيش؛ إذ انهالت عليه موارد الرزق، فاستقرت به أسباب الحياة، ولما سمع ليتزو بأمر هذا النحات، قال: «لو كان ناموس الطبيعة [حرفيًّا: الأرض والسماء] في الخلق يبدع ورقة نبات كل ثلاثة أعوام، لما صارت الأشجار المورقة بهذه الكثرة الهائلة؛ فمِن ثَم كان القديسون يسلمون أمرهم إلى مواهب النماء الطبيعي [كذا] ولا يلقون بالًا إلى أسباب المهارة والحكمة والنبوغ.»

[٧]

اشتد الفقر بـ «ليتزو» حتى شحب وجهه وهزل جسده من أثر الجوع، فذهب أحدهم إلى «تسي يانغ» رئيس وزراء دولة جنغ، وقال له: «إن واحدًا من أكثر الناس إخلاصًا وتحققًا بالطاو، من المقيمين بأرضك، وهو المدعو «لي يوكو» [لقب ليتزو] يعاني الفقر المدقع، فهلا بذلت له الرعاية والعون، أم أنك تبغض أهل الطاوية، وكل من ينتسبون إليها؟» وعلى الفور، أرسل تسي يانغ إلى ليتزو بكميات وافرة من الطعام مع أنجد الرسل عنده، فخف ليتزو لاستقبال المبعوث، وشكره واعتذر في أدب جم عن عدم قبول العطية، فغادر الرجل وعاد أدراجه فيما عاد ليتزو إلى غرفته، حيث وجد زوجته مستاءة للغاية، ثم إنها دفعته في صدره وهي تقول له: «قد بلغني أن زوجات وأبناء أهل الطاو ينعمون بحياة هانئة، بيد أننا قد أصابنا الفقر والجوع، وعندما أرسل لنا «تسي يانغ» بمن يواسينا ويطعمنا، قمت معتذرًا في وجه من جاءك، فهل هو قدرنا أن نبقى في هذه الحال دائمًا أبدًا؟» فأجابها ليتزو ضاحكًا: «لم يكن تسي يانغ هو الذي أدرك بنفسه ضرورة إرسال الطعام لنا، وإنما بادر إلى ذلك بعد أن ذهب إليه من كلمه في هذا الأمر، وغدًا عندما يكلمه أحد المتحاملين عليَّ، ويزين له البطش بي؛ (فسيصدقه، كما صدق المدعين من قبل)؛ فلهذا رفضت قبول عطاياه (كي أرفض مساءته غدًا).» وحدث، فيما بعد، أن اضطربت الأحوال في دولة جنغ وهب الناس ثائرين، فانتشرت الفوضى، وذُبح تسي يانغ ذبحًا.

[٨]

كان في عائلة «شيجيا» المقيمة بدولة «لو» ولدان أقبل أحدهما على العلوم، واتجه الآخر إلى فنون الحرب والقتال، فأما الذي برع في تحصيل العلم فقد أوتي موهبةً ونبوغًا

استطاع بهما أن يبهر عقل أمير دولة تشي [في زمن الدول المتحاربة، كان يطلق على ملوك الدويلات لقب «جوهو» أي: أمير الدولة] فأسند إليه مهمة إلقاء الدروس على النبلاء وكبار الموظفين، وذهب الذي مهر في فنون الحرب إلى دولة تشو، وأظهر من البراعة ما أثار إعجاب وانبهار العرش الحاكم هناك، فاتخذوه قائدًا عامًّا، وأُسندت إليه مهمة قيادة القوات، فكان من ثمرة ذلك كله أن حظيت عائلة «شيجيا» بالغنى والثراء وارتقت درجات من السؤدد والشرف، بين العائلات الكبرى في الدويلات؛ وإلى الجوار من هذه العائلة كانت تقيم أسرة أخرى (عائلة «مينغ») وكانت قد أنجبت، هي الأخرى، ولدين كأبناء جارتها، وقد برعا كذلك في العلوم والفنون العسكرية، لكن عائلتهما لم تنل شيئًا من المجد والشرف كجارتها، فاشتعل في قلبها الحسد، وراحت تسأل عن الوسيلة التي تمكنها من تحقيق أسباب الرفعة والمكانة الشريفة، فما كان من ولدي عائلة شيجيا، إلا أن أطلعاها على الوسائل الممكنة، وأخبراها بما فيه تمام الفائدة؛ فذهب أحد ولدي عائلة مينغ إلى دولة «تشين» ليعرض على حاكمها ما تفقه فيه من المعارف، عساه يعجب بنبوغه، فما كان من أمير البلاد إلا أن قال له: «ها هي ذي الدويلات تتنافس فيما بينها بقوة السلاح طمعًا في الهيمنة، فالأمر العاجل الآن، بالنسبة لنا، ينحصر في إعداد الجيوش وتخزين الغلال، أما إذا أخذنا بسياسة العدل والإنسانية في إدارة شئون البلاد، فسنكون قد سرنا على طريق الهلاك المحتم.» ثم إن الملك قام بإخصائه، وأعاده إلى وطنه، وذهب النابغة الثاني، في العائلة، إلى دولة «ويه» على أمل أن يقنع أميرها بمواهبه القتالية الفذة، فقال له الأمير: «إن بلادنا محدودة القوة، وقد شاء قدرها أن تقع بين إمبراطوريات ذات نفوذ هائل؛ مما أجبرنا على سياسة مهذبة مع تلك القوى العملاقة، بجانب الحفاظ على علاقات ودية أخوية مع الدول الضعيفة؛ بهدف الحفاظ على الأمن والاستقرار، أما الاعتماد على خطط المواجهة العسكرية، فلن يقود بلادنا إلا إلى الدمار، (واعلم) أننا لن نستطيع أن نتركك تمضي بنفس السهولة التي جئت بها، وإلا تنازلنا لغيرنا عن فرصة الاستفادة بما عرفته عن أحوالنا من معلومات، وهو ما يعرض سلامة البلاد للخطر الداهم.» ثم إنه أمر ببتر قدميه وإعادته إلى دولة لو، فلما عاد الولدان، على هذا النحو؛ فقد فجعت فيهما عائلتهما (أسرة مينغ) وألقت باللوم على جارتها (أسرة شيجيا) فأجابتها هذه قائلة: «إن الفوز دائمًا لمن أدرك الفرصة المواتية والوقت الملائم، فويل لمن أضاع الفرصة وأهدر ما يناسب الوقت والحال؛ وقد علمنا أن ولديكم يملكان من النبوغ مثل ما لدى أبنائنا، لكن نتيجة المسعى عندكم كانت مخيبة للآمال؛ لأن ولديكم انحرفا عن جادة الطريق الصائب

(هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ...) فليس هناك صحيح دائم أبدًا، ولا خطأ مستقر على طول الزمان، بل قد تكون الطريقة التي رفضها الناس بالأمس هي أنسب الوسائل النافعة اليوم، وقد يصبح الحل الذي نراه غير مناسب الآن، في لحظتنا الراهنة، أحد أهم الوسائل لتحقيق أبرع الإنجازات غدًا؛ هذا، ولا يمكن القطع بأن ما نأخذ به الآن هو الصواب، وأن ما ندعه هو الخطأ الفاحش. إن انتهاز الفرصة المواتية وتقدير مدى مناسبة التصرف، ومراعاة ظروف التغير ودواعي التبديل، كل ذلك لا يتبع نمطًا ثابتًا، وليس له قاعدة معلومة بدقة، بل هي أشياء تعتمد على المهارة والذكاء والحس السليم؛ وإلا فإن كل حكمة «كونشيو» [كونفوشيوس، كما يُنطق اسمه في الصينية الكلاسيكية] وكل براعة «لوشانغ» في الجندية والقتال، لن تجلب سوى المتاعب والنكبات.» وعندئذٍ، فقد تبددت الريب التي استولت على قلب أسرة مينغ، وزالت آثار الغضب المرتسم على ملامحها، وقال شيوخها: «قد وعينا الأمر جيدًا، ففيما قيل الكفاية التي لا تحتاج للمزيد.»

[٩]

كان «أونكو» أمير دولة جين، قد جهز جيشًا وعبأ قوات (تحت شعار التحالف مع الدويلات) وقصد إلى دولة «ويه» لمهاجمتها (وكان قد صادف في مسيرته القون «النبيل» «تسيشو») فما إن رآه النبيل حتى انطلق ضاحكًا، واستلقى على قفاه من كثرة الضحك، فسأله أونكون عما أثار كل هذه القهقهة، فرد عليه قائلًا: «أضحكني ما تذكرته بشأن أحد جيراني؛ إذ اصطحب امرأته لزيارة أختها، فصادف على الطريق امرأة حسناء تجمع دودة القز، فوقعت في عينيه موقعًا حسنًا، فغمز لها وقصد إلى مغازلتها، فما التفت وراءه وجد أحدهم يغازل امرأته (من وراء ظهره)» وهنالك أدرك القون أونكو مغزى كلامه على الفور، وأصدر أوامره بوقف الزحف واستدار بقواته عائدًا إلى الوطن، فلم يكد يبلغ الحصون الحدودية، حتى اكتشف أن المنطقة الشمالية، من أرض بلاده، قد وقعت تحت الاحتلال.

[١٠]

تفشَّت السرقة في دولة جين، وعاث اللصوص فسادًا في طول البلاد وعرضها، غير أن الرجل المسمى بـ «شيونغ» كان قد أوتي مهارة التعرف على اللصوص بمجرد النظر إلى

وجوههم، فما هي إلا نظرة فاحصة في ملامح الواحد منهم حتى يستدل على حقيقة أمره، فكان أمير دولة جين يكلفه بالذهاب لفحص المشتبه فيهم، ولطالما صدع بالأمر، وباشر العمل حتى اهتدى إلى كشف السارق، ولو كان مندسًّا بين مائة ألف فرد.

ولم يتمالك الأمير نفسه من الإحساس بالفرحة وهو يقص هذا الأمر على مسامع «أونزي» أمير دولة جاو، قائلًا له: «من حسن حظي أن عندي عاملًا من العمال يكفيني مؤنة القضاء على اللصوص أينما كانوا بأرضي، ولم تعد بي حاجة لكل تلك المجموعات من أفراد الأمن المتعقبين للمجرمين.» فقال له أونزي: «أراك تشغل نفسك في كل الأحوال، بالقبض عليهم بعد اكتشافهم والتعرف عليهم، لكنك لم تمنع وقوع السرقة نفسها، ولم تقضِ عليها، أما بالنسبة لـ «شيونغ» فلست آمن عليه المكيدة، وسوف يئول أمره إلى أوخم العواقب.» ولم يمضِ وقت طويل حتى اجتمع بعض جماعات اللصوص، خفية، وتساروا فيما بينهم قائلين: «هو ذا نهرب إلى أغوار الجبال، أو إلى أقصى بقعة من الأرض؛ بسبب هذا الـ «شيونغ».» ثم إنهم كمنوا له واختطفوه وقطعوا رأسه. فلما ترامت الأخبار بذلك إلى أمير جين، ألجمته الدهشة، وأرسل من فوره في استدعاء أونزي، وقال له: «قد حدث ما توقعته تمامًا وقُتل شيونغ، فبماذا تنصح للقضاء على اللصوصية قضاء مبرمًا؟» فأجابه أونزي قائلًا: «هناك مثل سائر يعرفه الناس في دولة جو، مفاده: «أن من يبحث عن السمك المختبئ في القيعان يبوء بالخسران، ومن يقتفِ آثار المختبئين في الأغوار، يلقَ أسوأ مصير» فإذا أردت، حقًّا، أن تقضي على اللصوص في دولة جين، فاستعمل الشرفاء من الولاة، واجعل كلمة القديسين هي العليا، وانشر مواعظهم في الآفاق، وحرض العامة على أطيب العادات ومهد الطريق لتقاليد الخير، واجعل القبح مكروهًا في النفوس وبغيضًا إلى الضمير، فيكبر عند الناس مأتى الإثم، وترتدع الأيدي من تلقاء نفسها عن السرقات والجرائم.» وهنالك أصدر حاكم جين أمرًا بتعيين «سويهو» رئيسًا للإدارة الحكومية، فلما سمع اللصوص بذلك، طفقوا يرحلون في الخفاء (بعيدًا) إلى دولة تشين.

[١١]

كان كونفوشيوس عائدًا بموكبه إلى دولة «لو»، بعد أن غادر دولة «ويه»، فبينا هو على الطريق؛ إذ تراءى له أن يميل إلى جانب النهر ليستريح الموكب قليلًا، ثم إنه راح يتلفت حوله ويقلب النظر في المشاهد الطبيعية البديعة، وتعلقت عيناه بمنظر الشلالات التي كانت تتساقط من ارتفاع يكاد يبلغ عشرين أو ثلاثين «جانغ» [«جانغ» يساوي نحو ثلاثة

أمتار ونصف المتر] حتى كانت الدوامات تتقلب وتحوم بتيارات النهر مسافة تبلغ تسعين «لي»، وفي تلك الأثناء لاحظ كونفوشيوس وجود أحد السباحين عند الشاطئ يستعد للنزول إلى الماء المتقلب الفوار، فصرخ فيه الفيلسوف الحكيم محذرًا إياه من مغبة السباحة وسط تلك الدوامات العنيفة، قائلًا له: «كيف يمكنك أن تخوض المياه تحت شلال يتساقط من ارتفاع ثلاثين جانغ ودوامات تدور بمياه النهر مسافة تسعين لي، لست أرى الأسماك والسلاحف الكبرى قادرة على السباحة هنا، ولا أظن التماسيح تجد مستقرًّا لها وسط هذه الظروف، فكيف بك تجازف بعبور النهر (برغم كل هذا)؟» فنظر إليه السباح غير مكترث لكلامه، وقفز إلى النهر، ثم جال فيه وسبح طولًا وعرضًا، وعاد آخر المطاف وطلع إلى الشاطئ، فذهب إليه كونفوشيوس وكلمه قائلًا: «لا جدال في أنك سباح ماهر، بلغت أبرع مستويات المهارة، فما هو الأساس الذي ساعدك في الوصول إلى هذه الدرجة من النبوغ والعبقرية؟» فأجابه الشاب قائلًا: «الأساس الوحيد الذي اعتمدت عليه في نزولي إلى الماء، كما رأيت، هو الثقة والتسليم، ذلك هو المبدأ الذي أغطس به في جوف النهر وأخرج به إلى الشاطئ؛ (هو المبدأ القائم على ...) منتهى الصدق مع النفس والإذعان لكل الظروف المحيطة بي وسط الدوامات العاتية، فالتسليم يدع كل جارحة مني متطابقة، بكل إخلاص، لكل ذرة في النهر، بل لكل موجة ودوامة وتيار جارف، (حتى صار كياني) جزءًا لا يتجزأ منها جميعًا، فلا تربكني الوساوس ولا يداخلني من تشويش الأفكار شيء؛ فلذلك أغوص وأطفو وأخرج إلى البر، مثلما رأيت منذ قليل.» وعندئذٍ التفت كونفوشيوس إلى تلاميذه قائلًا لهم: «احفظوا ما شهدتم الآن، تلك هي الدوامات الصاخبة لم تقف عقبة في طريق الإخلاص والصدق، فما بالكم بالإنسان نفسه.»

[١٢]

ذهب «بايكون» [أحد كبار المسئولين بدولة تشو] إلى كونفوشيوس، وسأله قائلًا: «هل للمرء أن يناقش أسراره مع الجار؟» ولم يجبه كونفوشيوس بشيء، فسأله بايكون ثانية: «فماذا لو ألقيت بحجر (الأسرار) في قيعان الماء؟» فأجابه الشيخ الحكيم قائلًا: «هنالك يستطيع أي غواص في دولة» أو «أن يستخرجه من أعماق النهر.» فقال له: «فماذا لو صببت الماء في الماء؟» (ماذا، يعني، لو ألقيت بالأسرار في قرار مكين لا سبيل للوصول إليه أبدًا) فأجابه كونفوشيوس، قال: «إذا ما اختلط في المجرى ماء نهر «تسي» مع ماء بحر «شنغ» فلن يعجز الساحر «آيا» أن يميز كل قطرة من الأخرى بمجرد التذوق بطرف

اللسان.» فقال بايكون: «لا أظن المرء قادرًا على أن يناقش الأسرار مع جاره، أليس كذلك؟» فرد عليه الحكيم قائلًا: «ولماذا يعجز المرء عن ذلك أصلًا؟ المهم، في المسألة كلها، أن تبرز معاني الكلمات، ولا شيء أكثر من ذلك! من حاز المعنى فقد استغنى عن الكلمات (أما علمت أنه ...) لا مفر للصياد من أن تبتل ملابسه، ولا لمن ساق الخيول من أن يجري حتى تنقطع أنفاسه، وكلاهما مرغم على ما أصابه، لم يكن له غُنية عنه؛ وهكذا، فلم تكن أروع الكلمات بحاجة إلى أسلوب وخطابة وبلاغة تعبير في فنون المقال، ولا كان السلوك القويم بحاجة إلى إطار من المجاملات والشكليات. (واعلم أيضًا أنه ...) لم يحصل الأغبياء إلا على أطراف الأوراق المعلقة في الهواء (وإن بدا أنهم وصلوا إلى الذروة ... كلا لم يصلوا إلى شيء ... بل) إنهم قد خسروا الجذور الراسخة في الأعماق.» لكن بايكون لم يكن ليفهم المغزى الكامن في كلمات كونفوشيوس، فتعجل استقصاء المعاني الشكلية، وكان من جراء ذلك أن تفشت الفوضى في جنبات دولة تشو، (ولما لم يعد من الممكن السيطرة على زمام أوضاع منفلتة، فقد ...) اضطر بايكون أن يدلف إلى الحمام، ذات يوم، ويشنق نفسه.

[١٣]

كان «جاوشيانزي» قد جهز حملة عسكرية تحت إمرة «شين جيموزي» [أحد كبار رجال دولة جين] وذلك لشن غارة على منطقة «داي»، فكان النصر حليف هذه الحملة، خصوصًا وقد بسطت لواءها على قلب المنطقة وجانبها الأيسر، وسارع «شين جيموزي» بإيفاد رسول إلى جاوشيانزي، حاملًا إليه أنباء النصر، فبلغه الخبر وهو جالس إلى طعامه، فما كاد الرسول ينهي إليه الخبر، حتى بدت على وجهه علامات القلق، فسأله مساعدوه وقد أخذتهم الحيرة قائلين: «إن احتلال منطقتين كبيرتين في صبيحة نهار، أمر يبعث على السعادة، فلماذا تجلس هكذا، مقطب الجبين؟» فأجابهم بقوله: «مهما انغمرت الشواطئ بالمد، فسرعان ما يأتي الانحسار بعد أيام قلائل؛ وكذلك الزوابع والسيول لا تطول أكثر من عدة ساعات من النهار، ثم إن شمس الظهيرة لا تلبث غير ساعة. والآن، فلم يعد لدى آل جاو من كرم الأخلاق فائض يمنحون به العطايا للناس (يقصد عائلته الحاكمة) فبالرغم من احتلال مدينتين في هجوم مباغت أثناء النهار، فقد تأتي النكبة بأسرع مما يتوقع إنسان.»

وعندما سمع كونفوشيوس بما دار في هذه الوقائع، قال: «عسى آل جاو (يقصد جاو شيانزي) أن يحوز الظفر العظيم، فالقلق على ما هو متوقع من تطور الأحداث هو أول

طريق النجاح والازدهار في اليوم والغد. إن التلهف على عاجل الفرح هو بداية الفشل والانهيار؛ فالانتصار، بحد ذاته، ليس أمرًا صعبًا ولا مستحيلًا، لكن الأصعب من النصر هو تدعيم قواعد الانتصار؛ فالقائد الحكيم هو من استفاد بهذا المعنى في تقوية أسس انتصاره، فيورث السعادة إلى أجيال تلو أجيال من بعده. كم حازت دويلات (لها وزنها ...) مثل: «تشي» و«تشو» و«أو» و«يوي»؛ المزيد من الانتصارات المدوية، لكنها بادت جميعًا وزالت من صفحة التاريخ، لا لشيء سوى لأنها فشلت في إدراك ضرورة تدعيم ما حققته من النصر. ليس إلا ملك حكيم تحقق بمنهاج الطاو، هو وحده الذي يستطيع أن يثبت قواعد انتصاره.»

كان كونفوشيوس يملك من القوة ما يمكنه أن يرفع بيديه المزاليج والبوابات الضخمة التي تقوم على مداخل المدن الكبرى، لكنه لم يكن مستعدًّا أن يبذل قدرًا من هذه القوة لمواجهة نفسه والكشف عن صدره أمام الناس. وكان «مو تسي» [فيلسوف المذهب «الموهي» أحد الاتجاهات الفكرية الكبرى في العصر القديم] يستطيع أن يقوم على حماية المواقع الدفاعية وأن يرد هجوم أعدائه، وأن يقنع كبار البنائين بإقامة السلالم الكبرى التي أتاحت اقتحام الأسوار والمدن الحصينة. لكنه (برغم كل ذلك) لم يتح للناس أن يلمسوا شيئًا من الإنجازات العسكرية، ولذلك نقول بأن المهارة في تدعيم الانتصار تنبع من القدرة على مواجهة عناصر القوة الذاتية والنظر إليها بوصفها نقاط ضعف كامنة.

[١٤]

كان في دولة سونغ رجل يحب الخير والعدل، وظل ردحًا من الزمن حريصًا على انتهاج كل وسيلة طيبة تنبع من تقديره لمعاني العدل والإنسانية، وفوجئ ذات يوم، بأن إحدى البقرات التي كان يربيها في حظيرته الملحقة بمنزله، وكانت سوداء اللون، قد ولدت عجلًا أبيض، فأسرع إلى كونفوشيوس يستطلع رأيه في هذه الواقعة العجيبة، فقال له الشيخ الحكيم: «تلك علامة مبشرة بالخير، وأرى أن تقدم هذا العجل الأبيض قربانًا للرب.» فلم ينقضِ عام حتى كان والد هذا الرجل قد أصيب بالمرض في إحدى عينيه، ثم تدهورت حالته، فتلفت عينه ولم تعد تبصر؛ وحدث أن البقرة السوداء ولدت عجلًا آخر أبيض اللون، فطلب الوالد المريض من ابنه أن يقصد إلى كونفوشيوس، ثانية، ويسأله عن سر هذه الأعاجيب، فقال له ولده: «لكنني لما ذهبت إليه في المرة الفائتة كانت النتيجة أنك فقدت إحدى عينيك، فما الداعي أن أذهب إليه مرة أخرى؟» أجابه أبوه قائلًا: «كلام القديسين قد

لا يصدق في المرة الأولى، لكنه بالتأكيد تثبت صحته فيما يأتي من الزمان، ولئن كنا نجهل مغزى كل تلك الوقائع، إلا أني أرى من الأوفق أن تذهب إليه هذه المرة أيضًا؛ عساك تفيد من سؤالك إياه خيرًا.» وذهب الرجل إلى كونفوشيوس وأطلعه على الواقعة الثانية، فما كان من الحكيم إلا أن قال له: «وهذه أيضًا بشرى طيبة.» ثم إنه أمره بأن يقدم العجل الأبيض قربانًا للسماء، وعاد الرجل إلى بيته وحكى لأبيه ما حدثه به القديس الحكيم، فقال الأب: «فعليك، إذن، بما نصح لك به.» وبعد سنة أصيبت عين الرجل نفسه، مثلما حدث لأبيه، وساءت حالة البصر حتى عميت العين عن النظر.

وحدث فيما بعد من وقائع الزمان أن قامت دولة تشو بمهاجمة دولة سونغ وأحكمت حصارها حول عاصمتها [وقعت تلك الغارة في عام ٥٩٤ق.م.] واضطر الأهالي، تحت الحصار الطويل، أن يأكلوا جيفة ذويهم، وصار من المعتاد أن تستخدم بقايا الهياكل العظمية وقودًا في الأفران، وجرى العرف بأن يصعد الأقوياء من الرجال فوق الأسوار للقيام بواجب الخدمة العسكرية. وفي تلك الأثناء كانت نسبة الجرحى والقتلى قد تجاوزت مقدار النصف من إجمالي عدد المحاصرين، وقد أعفت السلطات بيت الرجل صاحب البقرة وأبيه من المشاركة في مجهود الدفاع العسكري؛ لعدم لياقتهما، جراء فقدان البصر؛ وإذ انتهت المعارك وانفك الحصار، عاد بصيص من النور لعيني الرجل وأبيه المريضتين، ثم إنهما شُفيا تمامًا، فيما بعد، مما أصاب عينيهما.

[١٥]

كان في دولة سونغ لاعب يتجول في الشوارع يعرض على الناس الألعاب البهلوانية، وبدا للرجل أن يعرض أمام الملك «يوانجون» حاكم دولة سونغ بعضًا من مهاراته العجيبة، فسمع جلالة الملك بذلك، واستقدمه إلى القصر ليشاهد فنونه وألعابه، فقدم له اللاعب عرضًا يشتمل على مشهد غريب حيث جاء بغصنين طويلين من أغصان الشجر، بلغا ضعفي طول قامة الإنسان، فألصق واحدًا منهما بإحدى ساقيه، اليمنى ثم اليسرى على التوالي، وراح يهرول مرتكزًا عليهما وهما كالطوالتين تحملانه، وقد ارتفع جسده عاليًا في الهواء، بينما راح يلوح ويرمي بسبعة سيوف قصيرة واحدًا تلو الآخر، فكانت تطير في الهواء، وهي تلمع بنصالها في حركات بهلوانية أثارت دهشة وإعجاب الملك يوانجون الذي تكرم على اللاعب الجوال بشيء من عطاياه السخية [حرفيًّا: أعطاه كسوة من حرير ومبلغًا من المال] وبلغت أخبار هذه الحادثة مسامع لاعب آخر من المتجولين في الشوارع،

ممن قد مهر في اللعب بالإوز الطائر، وهي عروض متواضعة القيمة والمهارة بشكل عام، وأراد أن يعرض على الملك شيئًا من ألعابه، فلما علم جلالته بذلك استشاط غضبًا وقال لمن حوله: «قد جاءني أحد أولئك الحواة، من قبل، يعرض عليَّ ألعابه المسلية، ومع أن مثل هذه العروض لا تحمل قيمة بحد ذاتها، وليس لها مضمون أو فائدة محددة، إلا أنها صادفت هوًى في نفسي ووجدت فيها نوعًا من التسرية، فمنحت الرجل شيئًا من المال وانتهى الأمر، ولا بد أن هذا المتسول الآخر قد سمع بما حدث لصاحبه، فجاء طامعًا في الحصول على شيء مماثل.» وأصدر يوانجون أمرًا بالقبض على اللاعب المتجول تمهيدًا لإعدامه، غير أنه لم يمضِ في الاعتقال سوى شهر واحد ثم أفرج عنه وأخلى سبيله.

[١٦]

تكلم «موكون» أمير دولة تشين مع «بولي» [أحد أشهر خبراء الخيول في دولته] فقال له: «أراك قد كبرت في السن وبلغت من العمر عتيًّا (ولا أريد أن أسند إليك المزيد من المهام ...) أفلا يمكن أن أعهد إلى أبنائك وأحفادك بمن يختارون لي أجود الخيل؟» فأجابه بولي قائلًا: «أجود الخيل يمكن التعرف عليها باستقراء ملامحها وبنيتها الجسدية وأحوالها البدنية الظاهرة؛ أما بالنسبة لخيول السباقات فأظن أن فصائلها قد انقرضت منذ زمان بعيد، أو أنها هربت من هذا العالم واختفت في أقصى أطراف الأرض؛ ذلك أن مثل هذا النوع من الجياد (يخيل إليك وهو يجري ...) أن حوافره تكاد تلمس الأرض، أو لعلها لا تلمس من الأرض شيئًا؛ لأنها تركض فلا يثور وراءها الغبار، ولا أجد في أبنائي ولا أحفادي من يملك الخبرة والمهارة في انتقاء هذا الصنف من الخيل. ومِن ثَم فقد تجد فيهم من يعينك على اختيار الأنواع الجيدة فقط، لا النادرة المثال، ومع ذلك، فإن أحد أصحابي، ممن يعمل بائعًا متجولًا، يحوز رصيدًا طيبًا من معرفة لا تقل عن خبرتي في تجارة الخيول، وهو مشهور جدًّا ويدعى «جيوفانكاو»، وأرى أن ترسله ليشتري لك ما تريد من الخيول الممتازة. وبعد ثلاثة أشهر عاد الرجل (جيوفانكاو) إلى موكون ليقول له: «وجدنا النوع المطلوب من الجياد في منطقة تسمى ب «شاتشيو»، فسأله موكون: «فما صفتها إذن؟» فأجابه قائلًا: «هي فرس كميت، من أحسن ما رأيت في حياتي.» فأرسل موكون من يأتي بها إليه، فلما عادوا بها نظر إليها فإذا هي جياد (ذكور) لونها أسود فاحم، فتغيرت نفسه للغاية وأرسل في طلب بولي، فلما مثل بين يديه قال له: «يؤسفني أن أبلغك أن الرجل الذي رشحته، بوصفه خبير خيول، لم يستطع التعرف على لون الخيل ولا

التمييز بين ذكورها وإناثها، فكيف حدثتني عن خبرته في انتقاء أجود فصائل الخيول؟ فتنهد بولي وهو يجيبه قائلًا: «أهو قد بلغ إلى هذه الدرجة (الرفيعة) إذن؟ فاسمح لي، يا سيدي، أن أقول لك بأنه قد وصل إلى أقصى مستويات الخبرة في تقييم الخيول حتى تجاوزني بمائة ألف درجة أو يزيد؛ ذلك إنه سدد إلى الخيل نظرة ثاقبة انكشفت له منها بواطن أسرار ولطائف علم مكنون، فكان أن بلغ جوهر أنقى الحقائق، فالزم التصديق فيما أشار عليك به، فهذا رجل نافذ النظر من وراء حجب وأستار وكثائف غيهب منسدل، على مناقب الفهم، فلا يوزن بميزانه إلا راجح القوة الباطنة، ولا يستوقفه سفور ضلالات الظاهر، فلا بد أنه راقب سرًّا لطيفًا، فمنع نفسه من أن ينظر إلى ما لا داعي أن يوقف النظر عليه من اللون الظاهر وجنس الدابة وما إلى ذلك، بل انصرف بكليته إلى مكمن المواهب، ورد نفسه عن الوقوف عند ما لا فائدة ولا ضرورة للوقوف عنده، وأستطيع الآن القول بأن جيوفانكاو قد استخدم أقصى طاقته ومقدرته في اختيار أعظم الخيول طرًّا، وأكرمها منبتًا وأجودها عنصرًا.» وبالفعل، فقد حقت نظرة جيوفانكاو إلى الخيل، واتضح أنها فصيل نادر المثال.

[١٧]

تكلم الملك «تشوانغ»، حاكم دولة تشو، إلى «جانهي» وسأله قائلًا: «ما السبيل إلى الأسلوب الأمثل في إدارة شئون الممالك وإصلاح أحوال البلاد؟» فأجابه قائلًا: «لست أحيط علمًا إلا بما يصلح شأن الفرد وتقوم به أمور الذات الإنسانية، أما أحوال البلاد وسياسة الممالك، فذلك موضوع لست أفقه فيه شيئًا.» فقال له الملك تشوانغ: «(فيما يتصل بشئون العرش، فأظنني ...) أعرف الآن كيفية تقديم القرابين في المعابد، والقيام بشئون الحكم وتدبر أحوال الممالك، لكني أريد (أن أتقدم خطوات أبعد ...) أن أعرف الطريقة التي تضمن الحفاظ على مراسم الطقوس، وتدعم قوة البلاد.» فقال له محدثه: «عمومًا، فلم أسمع في حياتي عن امرئ صَلُح نفسًا وبدنًا واستقامت أحواله، ثم إذا تولى شئون البلاد أفسدها وتسبب في تخريبها؛ كما لم يحدث، في عمري كله، أن رأيت من فسدت روحه وقبحت نفسه، ثم قام على أمر الممالك فأصلح شأنها ونهض بدعائم التطور والقوة فيها؛ ولذلك فالأساس كله يكمن في إصلاح النفس؛ وبعد، فلست أريد أن أخوض في تقديرات (أخرى) غير ذات قيمة.» وعندئذٍ قال له الملك: «هذا هو القول السديد!»

[١٨]

تحدث شيخ بلدة «كوشيو» مع «سونشو» فقال له: «كثيرًا ما يعاني المرء ثلاث معضلات، أتعرف ما هي؟» فتساءل سونشو، مستفهمًا عن تلك المعضلات الثلاث، فأجابه شيخ كوشيو قائلًا: «أن يحوز المرء درجة اجتماعية عظيمة، فيخشى شر الحسد، وأن يترقى في المنصب (الرفيع) فيثير توجس جلالة الملك وأن تزداد أمواله [حرفيًّا: رواتبه] فتثور ضده ثائرة البغض والكراهية.» وعندئذٍ أجابه سونشو بقوله: «لكني كلما ارتقت مكانتي الاجتماعية، تضاءلت تطلعاتي؛ وكلما اتسع نفوذي وسلطاتي (ذات الشأن) ازددت حذرًا وفطنة؛ وكلما تنعمت ثراءً، بسطت يدي عطاءً ومنحةً، أفليست تلك طريقة مناسبة للتخلص من المنغصات التي أشرت إليها؟»

[١٩]

اشتدت وطأة المرض على «سونشو» حتى كاد أن يقضي نحبه، فعهد إلى ولده بوصيته قائلًا: «(اعلم أنه ...) كم من مرة حاول أمير دولة «تشو» أن يهب لي إحدى الإقطاعيات، دون أن يجد مني موافقة، فإذا مت، فسيحاول أن يمنحك هذه الإقطاعية، فاحذر أن تقبل إقطاعًا تتطلع إليه الأفئدة ويأمل في الحصول على النفع منه الآملون؛ أما منطقة «تشين تشيو» الواقعة على الحدود بين دولتي «تشو» و«يوي» فأحوالها مختلفة؛ إذ ليس من طامع فيها ولا متربص بها، فهناك أهالي دولة تشو الذين يعتقدون بأنها مهبط الأرواح (القدسية ... ويتبركون بها، لهذا السبب ...) وهناك، من ناحية أخرى، أهالي المنطقة المجاورة (من سكان دولة «يوي») ممن طال بهم العهد وهم يقيمون طقوس العبادات فيها (... لما يعتقدونه من التبرك بهذه المنطقة المقدسة ...) وهكذا، فقد تدوم الأوضاع، على هذا النحو، بين الفريقين أمدًا طويلًا دون أي تغيير؛ فلا يثور طمع الطامعين.» وبعد أن توفي سونشو، أراد أمير دولة تشو إهداء الإقطاعية الكبرى إلى ولد المتوفى، فاعتذر عن قبولها، راجيًا أن يتكرم الأمير بأن يمنحه إقطاع «تشين تشيو» فمنحه الأمير ما سأل، فصارت الأرض له ولأحفاده من بعده، حتى يومنا هذا.

[٢٠]

كان «نيو تشوي» من أعظم علماء منطقة «شاندي»، فبينما هو في طريقه مسافرًا، ذات يوم، إلى «هاندان» [عاصمة دولة جاو، في زمن الدول المتحاربة] قطع عليه الطريق، في

منطقة «أوشا»، عصبة من اللصوص وسلبوه كل ما يملك حتى ملابسه وأمتعته ودوابه، ولم يتركوا له شيئًا، فلم يسعَ «نيو تشوي» (بعد أن فقد ركوبته وأمتعته) إلا أن يمضي في طريق سفره، على قدميه، خالي الوفاض. ونظر اللصوص فرأوه يسرع في طريقه منشرح الصدر، غير عابئ بما وقع له من السرقة والنهب، فأسرعوا في إثره وسألوه عن السبب في عدم اكتراثه وسيره المتمهل هكذا، فأجابهم قائلًا: «إن أهل العلم لا يحزنون على ما يقوم به أمر أبدانهم، بل يصرفون النظر دومًا إلى ما ينصلح به شأن عقولهم ونفوسهم [حرفيًّا: لا يعدون خسارة ما يستر الأبدان مضيعة لما تزينت به عقولهم واتشحت به نفوسهم من أردية الفهم والوعي] فقالوا له: «عجبًا، وتتكلم مثل الحكماء أيضًا!» ثم إنهم تناجوا فيما بينهم، قائلين: «إن رجلًا يتكلم بفم الحكمة مثل صاحبنا هذا، ربما يكون قد التقى بملك دولة جاو، وكلمه فأرسله عينًا على خفايانا؛ ليستقصي أحوالنا، ولا يسلم الأمر من أن يكون مسلطًا علينا في أمور نعجز عن مدافعتها، والرأي أن نقتله ونأمن شره!» ثم لم يلبثوا أن تحلَّقوا به وقتلوه شر قتلة. فلما سمع أهالي دولة يان بما وقع من أمر تلك الحادثة، اجتمعت قبائلها، فتناصحت فيما بينها، واتفق أمر الناس جميعًا على أن ... «من يصادف لصوص الطريق، فلا ينبغي له أن يتصرف على منوال الرجل المقتول نيو تشوي!» واجتمعت آراء الكافة على هذه النصيحة، ثم لم يمضِ وقت طويل، حتى كان شقيقان من أهالي دولة يان مسافرين إلى دولة تشين، فلما بلغا مضيق «هانكو» أطبقت عليهما زمرة قطاع الطريق، فتذكَّرا مناصحة القوم بعضهم بعضًا، وما تواصوا به فيما بينهم، فشمَّرا عن أكمامهما مدافعين عن أنفسهما، شاهرين السلاح في وجه المجرمين، لكنهما لم يلبثا أن خارت قواهما في مواجهة زمرة حاشدة، فتراجعا وأذعنا بتسليم أمتعتهما وأموالهما، على أن يُخلى لهما سبيلهما، ويمضيا في طريق السفر، فنهرهما اللصوص في غضب قائلين: «كنتما في غناء عن ملاحقتنا، وقد أمنتما حياتكما وادخرتما طاقتكما، لكنكما مضيتما في إثرنا، فعرفتما دروبنا وكشفتما مواقع أقدامنا، واللص لا يعبأ بالحق والعدل والإنسانية، أتظنان اللص مدفوعًا بالأخلاقيات الكريمة؟» ثم إنهم ذبحوهما ذبحًا، وقتلوا من كانوا يسيرون في ركابهما.»

[٢١]

كان «يو تسي» أحد أغنياء الزمان، وكان منزله بدولة «ليانغ» محتشدًا بمظاهر الثراء والرفاهية، وقد عمرت خزائنه بالذهب والأموال والديباج، مما لا يحصى له عد، واشتملت مقتنياته على ما لا يقدر بمال من الأمتعة والأثاث والتحف النادرة، وقد بنى فوق داره علية

تطل على الطريق، رصت في جنباتها الآلات الموسيقية، يضرب على أوتارها العازفون، وقد صفت فوق الموائد كئوسًا من خمر مصفًّى، لذة للشاربين. وفي الأركان جلس المتقامرون متحلقين حول موائد النرد. والسعادة تتقافز في عيونهم والبشرى تتحلق فوق أحجار متراصة تتجاذبها فرص الحظ الجميل، وكوكبة من لاعبي الووشو يتقاطرون على العلية من فجاج شتى، يصعدون إلى الصالة الكبرى، واحدًا وراء الآخر، وبين تارة وأخرى، تنطلق صيحات هنا وهناك، صيحات فوز مجلجلة في ركن الرماية، بعد ضربات مسددة في قلب الهدف، وصيحات تزدحم فوق رقعة الشطرنج الممتدة تحت عيون تتلهف على نقلات ناجحة متتالية [لعبة قمار قديمة، على مثال الشطرنج، حيث تقسم أحواض المياه إلى جداول صغيرة تسبح فيها الأسماك كيفما استحثها اللاعبون].

وذات يوم، وبينما كان الجميع غارقون إلى الأذقان في ألوان من الترف واللهو في الصالة العلوية، حلقت فوق الرءوس طائرة ورقية مجنحة وسقط منها فأر ميت فوق رأس أحد لاعبي الووشو، فضج غاضبًا، وصاح فيمن حوله، متوعدًا: «هو ذا «يوشي» قد طال به عهد الغنى والثراء حتى تطاول علينا وقصد إلى الاستهزاء بنا (والفرجة علينا ...) وأرى أننا إن لم نثأر لأنفسنا، الآن، مما أحدثه بإلقاء الفأر الميت على رءوسنا، فسوف يصول ويجول بمقارعتنا وتجريسنا وسط الناس، فإن لم نسارع إلى تأديبه، فلن نرفع رءوسنا من المذلة، بعد اليوم، فلنتفق على رأي واحد، ونقوم عصبة واحدة، فنستأصل شأفته ونقطع دابره ونقضي عليه وعلى كل من وما يمت إليه بصلة، فلا تقوم له من بعد، قائمة أبدًا.» ووافق الموجودون جميعًا على رأي ذلك اللاعب الشجاع. فلما حل مساء اليوم المضروب له الأجل المحدد، اجتمع الحشد وساروا بالعزم على يد رجل والحد، فجمعوا الرماح وآلات القتال وهجموا بغتة على يوشي، فلم يغادروا منه ومن أهل بيته أحدًا إلا نكلوا به وجندلوه، فأمسى يوشي وأهله أثرًا بعد عين.»

[٢٢]

كان «يوان جينمو» المقيم بشرق البلاد قاصدًا طريق السفر إلى إحدى المناطق النائية؛ إذ وقع مغشيًّا عليه وهو على الطريق؛ لقلة ما تبلَّغ به من الزاد، فلمحه أحد لصوص السابلة بمنطقة «خفو»، وكان قاطع الطريق يدعى «تشيو»، ثم إنه أتى بوعاء من الماء وبلل فيه كسرات الخبز وأطعمه إياها، فأفاق يوان جينمو، قليلًا، وفتح عينيه وسأل مُطعمه قائلًا: «من أنت؟ وماذا تعمل هنا؟» فأجابه، قائلًا: «أنا من قاطني هذه الناحية

التي يقال لها «خفو»، واسمي «تشيو».» فعاد يوان جينمو يسأله، في دهشة: «هه؟ ألست قاطع طريق فيما يبدو؟ فما شأنك بنجدتي وتقديم الطعام لي؟ إن شريفًا صافي النفس والقلب مثلي، لا يجوز له أن يقرب شيئًا من طعامك.» وهكذا، فقد انكفأ المسافر المسكين بجسده منبطحًا على بطنه واعتمد على يديه، يريد أن يتقيأ ما بجوفه، فتجشأ من دون أن يلفظ الطعام من فيه، فجاهد نفسه بأقصى ما يستطيع، فاختنق، ولم يتمالك أن خر على الأرض جثة هامدة، وفاضت روحه.

ولئن كان الرجل ابن بلدة خفو قاطع طريق، فإن الطعام الذي بحوزته كان بريئًا من تهمة السرقة؛ وبناءً على ذلك، فإن الاعتقاد بأن الخبز الذي يحمله السارق متهم بالرذيلة، ومأخوذ بجريرة حامله؛ مما يستوجب رفض الاغتذاء به، وتبديد آخر رمق من الحياة، (... مثل هذا الاعتقاد ...) يعد مجرد تصور مغلوط وإدراك فاسد وخلط معيب بين الأسماء والحقائق [حرفيًّا: التسمية والجوهر].

[٢٣]

كان «جوليشو» وزيرًا في بلاط الملك «آوكون» حاكم دولة «جيو»؛ ولأنه نقم على الملك عدم تقديره لخصاله الطيبة فقد قدَّم استقالته، وقنع بالاعتكاف في كهف عند شاطئ النهر، وصار كلما جاء الصيف يأكل من ثمر أشجار الشاطئ، وفي الشتاء يأكل ثمر شجر البلوط والكستناء، وحدث أن ظروفًا عصيبة ألمت بالملك آوكون، فقرر جولشيو أن يخرج من عزلته ويغادر أصدقاءه من الزهاد؛ ليضع نفسه تحت خدمة الملك المأزوم، وقرر أن يبذل كل جهد ممكن في سبيل خدمة مولاه (حتى لو بلغ به الأمر إلى التضحية بنفسه) فالتف حوله المعتكفون وقالوا له: «لكنك اعتذرت عن عدم العمل عنده بزعم أنه لم يقدِّر فيك صفاتك الجليلة ولم يحسن تقدير مركزك، فكيف تعود إليه اليوم عازمًا على أن تبذل له أقصى ما استطعت من البذل والفداء، ألست بذلك تخلط بين تقديره وعدم تقديره لك بصورة غير مفهومة؟» فأجابهم جوليشو بقوله: «ليس الأمر هكذا، وإنما قدمت له استقالتي لأني تصورت أنه لا يبذل التقدير اللائق لي ولخصالي ومؤهلاتي، لكني اليوم، إذ أذهب إليه لأبذل له كل جهد ممكن؛ فلأني تبينت حقًّا أنه عاجز عن إدراك الحقائق التي تمكنه من إجراء مثل هذا التقدير. وأستطيع التأكيد بأني سأبذل كل جهدي بل إني مستعد للاستشهاد، وغايتي من ذلك أن أندد بالملوك الذين يعجزون عن تقدير مزايا وزرائهم في قادم الأيام ... أن يبذل المرء نفسه لأجل الذين يقدرون مزاياه، وينأى بالبذل عمَّن ينكرون

عليه موهبته» ... ذلك هو المبدأ والمعيار الذي يقتدي به المتشيعون لطريق الحق والعدل.»

ومع ذلك، فيمكن القول بأن جوليشو كان مستعدًّا للبذل والتضحية؛ لأنه هانت عليه نفسه من جراء ما امتلأت به روحه من المرارة والكراهية.

[٢٤]

قال يانغ شو: «من يصنع (للغير) معروفًا فلن يعدم النفع، ومن يصب على الناس جام غضبه ومر ضغينته، فسوف يجلب على نفسه شر البلاء، فوقائع العالم ليست إلا مرآة تعكس للنفس ما يظهر منها، خيرًا كان أو شرًّا.

ليس سوى النوايا المخلصة والضمائر الصادقة، هي وحدها التي تنطبع في جوهر الإدراك الفعلي، فمِن ثَم، ينفق الحكماء جل انتباههم وحذرهم لكل ما ينم عن نفوسهم من مشاعر، وما يصدر عن أفواههم من كلمات.»

[٢٥]

فُقدت شاة كانت في حظيرة أحد جيران يانغ شو، فجمع الجار حشدًا من الناس للبحث عنها، ثم إنه استأذن يانغ شو في أن يستعين بخادمه في عملية البحث عن الشاة الضالة، فقال له يانغ شو: «عجبًا، أتطلب كل هؤلاء الناس للبحث عن شاة واحدة؟» فأجابه جاره قائلًا: «لا بأس فالطرقات كثيرة والدروب متفرعة.» فلما عاد الباحثون سأل يانغ شو جاره قائلًا: «هل وجدتم ضالتكم؟» فأجابه: «قد ضاعت الشاة.» فسأله: «وكيف تضيع بعد كل ما فعلتم؟» فأجابه: «الدروب متفرعة، وفي كل طريق فرعي، منحنى لدرب آخر يتفرع منه، فلما تعددت الطرق، وتفرعت الدروب؛ تحيرنا في أي اتجاه نطلب ضالتنا، فلم نلبث أن عدنا.» وهنالك تغير وجه يانغ شو، واعتراه القلق وتبدت في ملامحه الحيرة، واكتسى وجهه حزنًا وصمت دهرًا لا ينطق بشيء، بل إنه بقي طوال يومه واجمًا مقطب الجبين، واستغرب تلاميذه هذا الحال منه، فكلموه وقالوا له: «ليست الشاة إلا داجنًا حقير الشأن ثم إنها ليست تخصك، يا سيدي، فما لك تطرق حزينًا لأجلها كل هذا الوقت؟» وبقي يانغ شو صامتًا لا يرد عليهم بشيء، فلما وجدوه عازفًا عن أن يطلعهم على فحوى الأمر (وينير قرائحهم بشيء من العلم، في هذا الموضوع ...) مضوا إلى شئونهم إلا «منسون يان» [تلميذ يانغ شو]، الذي خرج من عند أستاذه الصامت ليلتقي بزميله «شن دوزي» [تلميذ الفيلسوف الحكيم

ليقص عليه ما حدث، فما هي إلا بضعة أيام حتى كان التلميذان كلاهما يدخلان على أستاذهما يانغ شو، يطلبان إليه المشورة في أمر عرض لهما، وقالا للفيلسوف الساكت: «كان ثلاثة أشقاء يطلبون العلم في سالف الزمان، بين دولتَي «تشي» و«لو»؛ وقد درسوا على يد أستاذ واحد علم «المبادئ الكونفوشية» ثم عادا إلى بلدهم، فسألهم أبوهم قائلًا: «أخبروني عما درستموه من علم المبادئ.» فقال له ولده الأكبر: «إنما هو علم يدعو المرء إلى الاعتناء بجسده، وصرف الانتباه إلى تطهير البدن، على أن يكون الاهتمام بما يشاع عنه من سمعة طيبة بين الناس أمرًا ثانويًّا (في المقام الثاني).» وأجابه الابن الثاني: «إنما تقضي مبادئ الخلق القويم بأن يبذل المرء حياته في سبيل الحصول على سمعة طيبة جديرة بالثناء.» وقال له الولد الأصغر: «تعلمت من مبادئ الكونفوشية ضرورة الاعتناء بصحة جيدة والحفاظ على سمعة طيبة.» وهكذا، تباينت أقوال ثلاثتهم، بل تضاربت إلى حد بعيد، مع أنها كانت تنبع كلها عن أصل كونفوشي واحد؛ فكيف تفرق بين الصواب فيها من الخطأ؟» فقال يانغ شو: «قيل في الحكايات إن رجلًا يقيم بشاطئ النهر كان يجيد السباحة وفنون العوم، فاتخذ من دفع القوارب، على صفحة الماء، مهنة يعمل بها؛ وذلك لكي يعبر بالناس بين الشاطئين، فكان يربح من عمله الشيء الكثير [حرفيًّا: يربح ما يمكنه من الإنفاق على مائة فرد] وعلى هذا، فقد قصده كثير من الراغبين في تعلم فن السباحة، وحملوا له الأحمال الثقال من الطعام؛ عساه يوافق على أن يدربهم على العوم، لكن ما حدث هو أن نصفهم تقريبًا قد غرق في الماء. فالمشكلة هي أنهم كانوا يريدون التدرب على العوم لا الغطس، فالمرء قد يقرر أمرًا ما؛ طلبًا للفائدة، ثم تقع له نتائج مخيبة للآمال، لم تكن في الحسبان، وعمومًا، فانظروا في هذه المسألة، وتساءلوا عن وجه الصواب والخطأ فيها».»

بيد أن «دوزي» خرج من عنده، دون أن يقول كلمة، فعاتبه على ذلك زميله «منغ سونيان» قائلًا: «لماذا كنت تطرح عليه أسئلة متعرجة وملتوية حتى إنه كان يرد عليك بأسلوب أكثر غموضًا والتواءً؟ أنا، بصراحة، لم أعد أفهم حقيقة الأمر بينكما.» فأجابه شين دوزي، فقال: «لما تعددت الدروب المتفرعة عن الطريق الرئيسي، شردت الشاة، فضلَّت الطريق؛ وإذ تعددت مناهج الدرس فقد تحير الدارسون وأنفقوا عمرهم بددًا. (ومن المسلم به أن ...) كل العلوم تقوم على قاعدة واحدة والمبادئ العلمية ليست محل خلاف، ومع ذلك فقد اختلفت النتائج إلى حد بعيد، فلا مفر، إذن، من العودة إلى طريق واحد وأصل ثابت تنبع منه شتى الآراء ووجهات النظر؛ ادخارًا لطاقة الحياة. (والعجيب أنك، أنت نفسك، من ...) أكثر التلاميذ وعيًا ونبوغًا، ومع ذلك، (وللأسف الشديد ...) فإنك

تعجز عن فهم المعنى المضمر في كلام أستاذك وهو يضرب الأمثال لما يريد أن يقوله، في حين أنك ألصق الجميع بأفكاره، وأحرصهم على استبصار معانيه!»

[٢٦]

خرج «يانغ بو» [الشقيق الأصغر لـ «يانغ شو»] مرتديًا ثوبًا أبيض، فتصادف وهو بالخارج أن سقط المطر مدرارًا وتلطخت الشوارع بالأوحال، فما كان منه إلا أن خلع ثيابه البيضاء، ولبس رداءً أسود، فلما عاد إلى منزله، آخر المطاف، إذا بكلبه الرابض لدى الباب، ينكره (وهو في الرداء الأسود) ويتلقاه بالنباح، فغضب يانغ بو، وزجره وجرى وراءه يريد أن يركله، فقال له يانغ شو: «دع الكلب، لا تضربه، فلست بأعقل منه؛ وافرض أن كلبك هذا الأبيض قد سبقك إلى الشارع، ثم عاد بعد ساعات أسود اللون مغبرًا، أما كنت تنكره أنت أيضًا!»

[٢٧]

قال يانغ شو: «قد يترفَّع فاعل الخير عن طلب الشهرة، لكنها تأتيه من حيث لا يطرق إليها سبيلًا، وقد تتعفَّف الشهرة عن استقصاء أوجه النفع، لكن منافع كثيرة تنهمر على ساحة المشاهير؛ وقد تنأى المنفعة الذاتية عن جدل الخصومة، لكن ألوانًا من النزاعات والتعقيدات تعلق بذيل المصالح الشخصية رغم أنفها، فمِن ثَم وجب على العاقل أن يفكِّر وينتبه كثيرًا قبل كل مرة يقدم فيها على فعل الخير.»

[٢٨]

ادعى أحد فقهاء الطاوية، فيما مضى من الزمان، أن لديه سرًّا من أسرار العلم يحول بينه وبين الموت، فترامت الأخبار بذلك إلى أمير دولة يان، فأرسل من يجتهد في تحصيل تلك الأسرار من الشيخ الفقيه، غير أن الأمور لم تسِرْ على ما يرام، وكان أن توفي الرجل المدعي امتلاك أسرار الخلود، وانزعج أمير دولة يان لهذا الخبر بشدة، وأصدر أمرًا بإعدام الرجل الموفد من عنده لتلقي أسرار البقاء الأبدي، لكن وزيره (الذي كان موضع حفاوته وتقديره) كلَّمه في هذا الأمر قائلًا: «ليس في الدينا كلها شيء أفزع للناس من الموت، فالجميع يحرصون على الحياة، وإذا كان الشخص الوحيد الذي ادعى معرفته بأسرار الخلود قد مات، فأنى له أن يُبقي على حياتك إلى الأبد؟»

وتراجع الأمير عن قرار الإعدام، ثم قيل إن واحدًا من طلاب علم الخلود، ويدعى «تشي تسي» ما سمع بوفاة فقيه الأسرار الأبدية، صرخ جزعًا وراح يدق صدره بعنف (... علامة الأسف والحزن) في حين أن ولد أحد الأثرياء لما تناهى إليه الخبر سخر من تشي تسي، وقال له: «كنت تريد دراسة أصول البقاء الأبدي، غير أن الفقيه العارف بأسرار العلم قد مات، ومع ذلك، فها أنت تصرخ باكيًا، وتطرق آسفًا حزينًا، وأظنك لم تدرك المغزى الأساسي والهدف الأصلي من دراستك واهتمامك بهذا العلم.» ورد عليه رجل من العامة يدعى «هوزي»، فقال: «لست أتفق معك في الرأي، فقد يتقن العلوم والأسرار من لا يعمل بها، فهذا أمر معلوم وشواهده كثيرة، وقد تجد أحدهم ماهرًا في تطبيقات العلوم والمعارف، دون إلمام بنظرياتها ومبادئها، والأمثلة موجودة وبغير حصر، وقد بلغني أنه كان في دولة «ويه» واحد من أنبغ الرياضيين، عاش عمرًا طويلًا يتفقه في الحساب والرياضيات، فلما حانت ساعة وفاته، دنا من ولده وألقى عليه صيغة رياضية (موجزة وعلى نمط مسجوع؛ ليسهل حفظها) فحفظها الابن عن ظهر قلب، وظل يرددها في كل حين، دون أن يعي منها شيئًا، أو يحاول الاستفادة التطبيقية منها، ولما تلقى عنه أحدهم تلك الصيغة الرياضية وراح يتأملها ويجري بها العمليات الحسابية، بلغ مرتبة تكاد تفوق ما وصل إليه الرياضي المتوفى؛ فإذا صحت تلك الأخبار، فلماذا لم يترك لنا ذلك الفقيه العارف بأسرار البقاء علمًا يشهد على صحة دعواه؟»

[٢٩]

اعتاد أهالي «هاندان» في ليلة رأس السنة الجديدة، إطلاق أسراب من الحمام المطوق في سماء المدينة تكريمًا (للنبيل الماجد) «جيانزي»، وبالطبع، فقد كان مثل هذا الاحتفال يلقى منه شديد العرفان، ومن جانبه، فلم يكن يتأخر، أيضًا، في كل احتفال عن تقديم المكافآت السخية والهدايا الثمينة لأعداد وفيرة من الأهالي، حتى نزل على البلدة، ذات يوم، ضيف عابر، وسأل عن سبب كل تلك الاحتفالات والمكافآت، فذكر له جيانزي أصل هذا التقليد قائلًا: «إطلاق الحمائم، في ليلة رأس السنة [السنة الصينية، الموافقة لموسم الربيع] إنما هو احتفال رمزي يشير إلى الاعتراف بقيمة وفضل الحياة، فإطلاق الحمام، في مغزاه الأصلي تعبير عن الانعتاق من الأسر، والانطلاق إلى أفق الحياة.» فرد عليه الضيف قائلًا: «لكن الناس يتسابقون سباقًا عنيفًا في اصطياد وجمع الحمائم [حرفيًّا: جمع تلك الطيور الضئيلة المسكينة] ولا بد أن يسفر ذلك التزاحم عن قتل ما لا يحصى عدده من الطيور،

فماذا لو أبقيت على الجميع حياته وحظرت على الأهالي تلك العادة البغيضة، فمنعتهم من أسر الحمائم مطلقًا، وأمرت من أسر منها شيئًا، أن يطلقه (أليس هذا أرحم بالحياة؟) فمتى كان الإحسان، يا سيدي، تعويضًا عن القسوة! [حرفيًّا: إن العطف، يا سيدي، لا يمكن أن يكون تعويضًا عن الوحشية!]» فأجابه جيانزي قائلًا: «الحق معك … وكذلك ينبغي أن يكون التقدير!»

[٣٠]

أقام الماجد «تيان» المقيم بدولة تشي مأدبة جنائزية على روح أجداده، فعمرت ساحة قصره بمئات الضيوف الذين جاءوا يحملون إليه هداياهم من السمك والإوز، واستقبلهم بحفاوة ثم تنهد قائلًا: «ما أكرم السماء بالبشر، أنبتت لهم حقولهم ألوانًا من المزروعات [حرفيًّا: أنبتت لهم الحبوب الخمسة] وأجرت الأسماك في الأنهار والإوز في الحظائر، طعامًا مريئًا.» وهنالك، هتف له الحاضرون بالتحية، وصفقوا له تصفيقًا حادًّا. ووقف صبي من آل «باو» في أقصى الفناء، وكان حدثًا لا يتجاوز عمره الثانية عشرة، وصاح قائلًا: «ليس الأمر على نحو ما ذكرت يا سيدي؛ فكل الأشياء في السماء والأرض، ذات وجود مماثل لوجود البشر، سواءً بسواء، وليس في حق الوجود تفرقة بين بشر أو غيرهم من باقي الكائنات؛ فليس هناك رفيع أو وضيع، وإنما يتسلط بعضهم على بعض، بمقدرة جسمانية أو ذهنية متفوقة، فيأكل القوي الضعيف، ويتسلط الغالب على المغلوب، فلم يوجد كائن لأجل كائن آخر، ولم يعِش مخلوق ليشبع نهمة مخلوق غيره، وإنما يتناول الناس بأفواههم طعامًا يجدونه مستساغًا، فكيف يمكن القول بأن السماء أوجدت لهم الطعام، وبأي برهان تقول هذا؟

ثم إن البعوض والحشرات تلدغ الإنسان وتمتص دماءه، والوحشي من الذئاب والنمور تلتهم لحم بني البشر، أفلا يقال، إذن، إن السماء خلقت دم الإنسان لغذاء الحشرات والبعوض، وصنعت لحم البشر؛ لتأكله الأسود والنمور، يلتهمونه مريئًا؟»

[٣١]

كان في دولة «تشي» رجل فقير يقضي سحابة نهاره في شوارع المدينة يتسول الطعام، فأبغضه المارة والسكان، وضاقوا ذرعًا بملاحقته لهم، وأمسكوا أيديهم عن الإحسان إليه، فما كان منه إلا أن قصد إلى مأوى الخيل، في ضيعة النبيل «تيان» ليعمل مساعدًا لسائس

الخيول في الضيعة، وصار يعيش على الكفاف، لكن الناس سخروا منه قائلين: «هو ذا الشحاذ يطلب قوت يومه عند سائس الخيل، يا للعار!» لكن الشحاذ نفسه كان يقول: «أسوأ العار، في الدنيا كلها، أن يتسول المرء طعامه، فإذا كنت أعد التسول شيئًا مقبولًا، فهل أنظر إلى العمل مع السائس باعتباره أمرًا مشينًا؟»

[٣٢]

كان أحد المتسكعين في شوارع دولة سونغ يجمع، من الشوارع، بقايا الصكوك النقدية التي ألقى بها المارة على قارعة الطريق، ثم يعود إلى بيته، آخر اليوم، فيخرج حصيلة نهاره من تلك السندات النقدية (القديمة المهترئة) ويحسب الأرقام المدونة عليها، بمنتهى الدقة، ويدونها (في الأوراق) ثم يقول لجاره: «قد أوشكت على الدخول إلى دنيا المال والثراء، قريبًا جدًّا.»

[٣٣]

كانت الشجرة العالية أمام البيت [حرفيًّا: شجرة البارسول الصيني] قد جفت أغصانها وذبلت جذورها، فجاء الجار الكهل لصاحب المنزل الذي انتصبت أمامه الشجرة، وقال له: «إن أبقيت على شجرة ذابلة كهذه، فلن يجيئك الحظ السعيد أبدًا.» فسارع الرجل إلى قطع الشجرة من جذورها، فجاء الكهل إليه ورجاه أن يعيره بقاياها ليستخدمها حطبًا جافًّا للوقود، فحزن الرجل، صاحب الشجرة المقطوعة، وقال في نفسه: «لم يكن جارنا المسن يكترث إلا لمصلحته، يوم أن اقترح عليَّ قطع الشجرة، (فهل أخسر شجرة، حتى لو كانت ذابلة ...) لأكسب جارًا خبيثًا ماكرًا؟»

[٣٤]

كان رجلٌ قد فقد فأسه، وبقي يتطلع، في شك، إلى ولد جاره، وهو يظن أنه سرقها، وكلما رآه ماشيًا على الطريق، بدا له أنه السارق، وكلما تفرس في ملامحه، رأى فيها وجه اللص الذي سرق فأسه، وكلما سمعه يتكلم، بدا له أنه كلام لص استولى على الفأس؛ فكانت حركاته وسكناته وقعوده وقيامه، وكل شيء فيه، يشير إلى أنه اللص ولا أحد سواه.

فما هي إلا أيام، حتى كان الرجل يحرث أرض السهل الجبلي، فعثر على الفأس المفقودة، فكان بعدئذٍ، كلما رأى الولد، ابن جاره، وتفرس في ملامحه وحركاته وسكونه وكل أحواله، لم يجد في شيء منها أثرًا يقطع بأنه لص، بأي حال.

[٣٥]

كان «بايقون شنغ» [أحد أحفاد الملك بينغ آل تشو] يتأمل بعمق شديد، ما أثير بشأن احتمالات التمرد والعصيان، وبينما هو مستغرق في تأمل الأفكار على وجوه شتى، كان اجتماع الديوان الملكي قد انفض، فوجد نفسه وحيدًا، وبيده المنخس الذي يسوق به حصانه، ويبدو أنه انقلب في يده، دون وعي منه، فصارت الذؤابة الحادة مصوبة إلى وجهه، فخدشته فسالت من خده الدماء غزيرة، وسقطت على الأرض، دون أن ينتبه إلى أنه أصيب بجرح نازف، فلما ترامت الأنباء بذلك إلى (المسئولين في ...) دولة جنغ، قالوا: «إذا كان قد ذهل عن الجرح في وجهه، فسوف يذهل عن أشياء كثيرة (ذات شأن)!» ذلك أنه بتركيزه الشديد وانشغاله التام بالأفكار الدائرة في رأسه، يمكن أن يتعثر في وتد ناشئ بجوار جذع شجرة، أو يقع في حفرة عميقة، أو يرتطم رأسه بغصن متدلٍّ من شجرة مائلة، كل ذلك ممكن حدوثه، في أي وقت، دون أن ينتبه إلى ما يقع له.

[٣٦]

قيل في حوادث الزمان الغابر إن أحد أهالي دولة «تشي» كان مولعًا بالذهب، وتاقت نفسه إلى الحصول عليه بكل وسيلة، وكان أن استيقظ ذات صباح فارتدى أحسن ثيابه وخرج يمشي وسط الناس، في أبهى مظهر، حتى وصل إلى سوق المدينة، ثم دلف إلى أول متجر للذهب صادفه في طريقه، والتقط من أمام البائع قطعة مرصعة بالذهب ومضى بها، سريعًا، إلى خارج المتجر. وفي الحال أمسك به الشرطي واقتاده إلى المخفر، حيث سأله: «أبلغت بك الجرأة أن تسرق الذهب، جهرةً، والعيون إليك شاخصة، والناس حولك ينظرون؟» فأجاب قائلًا: «كنت، ساعة أن مددت يدي إلى طاولة المتجر، أنظر بكل انتباه، لكني لم أرَ أحدًا من الناس هناك، قد نظرت وتأملت جيدًا، لكني لم أرَ سوى الذهب.»

قائمة أهم المصطلحات الطاوية

اكتشاف الذات	轨己
الاعتزاز بقيمة الحياة	贵生
الحفاظ على الطاقة الروحية	养性
الاستقلالية	无君
استخلاص إكسير الخلود	炼丹
الانخزالية	无为
الفلسفة الطاوية	道家
الفلسفة الكونفوشية	儒家
المذهب القانوني	发家
المذهب الموهي	墨家
المذهب الاسمي	名家
عصر ما قبل تشين	先秦
الحكايات الخرافية	寓言
الين واليانغ	阴阳

قائمة أهم الأعلام

يانغ شو	养朱
كوان يين	观尹
جانهي	詹何
ويمو	魏牟
سونشين	送钘
بن منغ	彭蒙
هوانيوان	还渊
هيكوانزي	鹖冠子
لاوشانغ	劳商
بوكاتسو	伯稿子
هينشن	寅生
يان بينجون	宴瓶中
طايهان	太行
تسايهو	宰和
بوهن ماورن	伯昏瞀人
هوشيوتسي	壶丘子林
لونشو	龙叔

أونشي	文挚
شانشيو	商丘子
كونسون لونغ	公孙龙
قون كونغ	共工


هنداوي